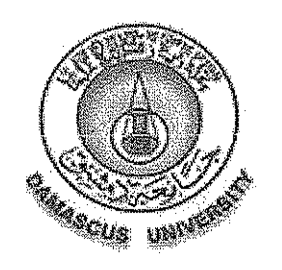
جامعة دمشق
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم التاريخ



الفتح العربي الإسلامي لجنوب بلاد الشام من الناحية العسكرية
7هـ / 628م ـ 17هـ / 638م

رسالة أُعدّت لنيل درجة الماجستير في تاريخ العرب والإسلام

إعداد
إبراهيم علي الشنيور

بإشراف الأستاذة الدكتورة
شكران خربوطلي

دمشق1431 هـ/ 2010م

الإهداء

إلى روح خالي الغالي العميد المهندس أحمد علي رفاعي الذي فقدناه في الأمس القريب، فلاقى وجه ربه قبل أن يقطف ثمار غرسه.. لذا كان حزننا عليه عظيماً حين فقدناه.. أسأل الله العلي القدير أن يجعله في ميزان حسناته إنه أكرم مسئول وخير مجيب............

كما أهديه:

إلى من كتبوا معي هذه الرسالة وهم يجهلون المجانية..........

أبي العلم الشامخ الذي جاهد في دروب الحياة ليرى السعادة في قلوب أبنائه..........

وأمي الغالية الفاضلة التي تحمّلت معي الكثير من المتاعب والآلام.........

إلى أخوتي الأعزاء حسين، حسن، أحمد، صلاح، الذين قدّموا لي الكثير والكثير من الدعم.........

وإنْ أنسَ لا أنسَ من حملت معي الكثير والكثير من الأعباء ووقفت إلى جانبي في أصعب اللحظات، إلى التي ستشاركني ضروب الحياة لعلني أبادلها به الوفاء وأخفّف عنها من خلاله مرارة الصبر.... الروح التي سكنت روحي والجسد الذي احتوى نفسي.........

كما أهديه.. .إلى قادة العرب المسلمين في أخطر المعارك...........

إلى جندي مجهول سقط عن صهوة حصانه في معارك الفتح الإسلامي في كل مكان ليمتطي صهوة التاريخ، فأنار عتمة الليل وآنسَ وحشة الدرب...........

إلى كل من يبحث عن الحقيقة الكاملة...........

إبراهيم الشنيور

فهرس المحتويات

الموضوع

الصفحة

تقديم:

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}سورة البقرة:الآية 143

الحمد لله القوي العزيز الذي أوقف الأمة المسلمة وأورثها النبوة والكتاب، واصطفاها لحمل الرسالة الخاتمة الخالدة، والذي جعل الإسلام دعوة ودولة، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد، فكان خير من غزا وجاهد صلوات الله عليه أما بعد:

إن الحقبة الزمنية التي امتد خلالها العهد النبوي وعصر الخلافة الراشدة تعد الركيزة الأساسية التي استندت إليها الحضارة العربية الإسلامية، إذ انتمى إليها رجال صادقون، تابعوا ما بدأ به الرسول صلى الله عليه وسلم، وحقّقوا ما كان يرمي إليه من نشر الدين الإسلامي وإعادة الإنسان إلى إنسانيته، والارتقاء به من عبادة الأصنام والأوثان التي لا تضر ولا تنفع إلى عبادة الواحد القهار الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير. وهذا هو دافعي الأول لاختيار هذا البحث.

أما الدافع الثاني: فقد تمثّل بطبيعة التاريخ، إذ إنه خبر ورؤية لذلك يجب إعادة النظر في الفتوحات، وسبر كل ما يتعلق بها؛ إذ يغلب على الدراسات التي تناولت الفتح الإسلامي اهتمامها بأعمال القادة، وبالنتائج المباشرة للفتوح وتجاهلها للاستراتيجيات والخطط والأهداف البعيدة والأخرى المباشرة، وجغرافية المعارك ودور الجيوش العربية في معارك التحرير.

أمّا الدافع الثالث: فهو الخصوصية التي تمتعت بها جنوب بلاد الشام، فهذه اليرموك وبعدها بقرون حطين، من ثم تلتها عين جالوت وجميعها حصلت في الزاوية الجنوبية من بلاد الشام. فكان لابد من البحث عن الأهمية التي تكمن في هذه المنطقة والسر الغريب الذي يرتبط بها، فنتائجها كانت فاصلة وحاسمة، ونقطة تحول تغيرت معها كل الأحداث اللاحقة، وحددت مصير الأمة بشكل كامل.

أما الدافع الرابع: فقد ارتبط بالفتوحات الإسلامية ذاتها، إذ أنها بشكل عام لم تُعطَ حقَّها العلمي من الدراسات الموضوعية على ضوء المبادئ المتطورة لعلوم التاريخ العسكري، والمعارف الجغرافية، والمكتشفات الأثرية. لذا كان اختيار موضوع:

الفتح العربي الإسلامي لجنوب بلاد الشام من الناحية العسكرية

7هـ / 628م ـ 17هـ / 638م

يعطي هذا البحث صورة واضحة للدوافع الكامنة وراء الفتوحات، ودور الجيوش العربية في معارك التحرير، ويدرس جغرافية مواقع المعارك التي دارت على أرض جنوب بلاد الشام. إذ

لا يمكن فهم أي حدث من دون دراسة جغرافية، لاسيما أن ميدان السياسة هي الجغرافية وامتدادها هو التاريخ.

ومن هذين المنطلقين فقط يمكن فهم الأحداث، ووضعها في زمانها ومكانها الصحيحين، وتعرّف الصعوبات والعقبات الطبيعية، ومن ثم خطوط المواصلات، وذلك للعبرة والفائدة من التجارب السالفة، وفهم الطريقة التي كانت تحارب الأجيال بها، والنصر الذي أحرزوه.

قُسِّمَ البحث إلى خمسة فصول:

تقدّمها الحديث عن جغرافيّة المنطقة التي تمّ دراستها، وتم التمهيد للحديث عن تلك الفتوح بالحديث عن أوضاع جنوب بلاد الشام السياسية والدينية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية قبيل الفتح العربي الإسلامي.

أمّا الفصل الأول فقد خُصِّصَ للحديث عن أسباب الفتوح وموقف القبائل العربية التي تسكن جنوب بلاد الشام منها، فشملت الأسباب الدينية والدوافع السياسية والاقتصادية والجغرافية بالإضافة إلى الدوافع الأخرى التي تكاملت وتداخلت، وتمّ الحديث فيه عن موقف القبائل العربية، في جنوب بلاد الشام من هذه الفتوح (جذام ولخم وطيء و تنوخ والأنباط وغسان وتغلب وحتى أهل الكتاب).

أما الفصل الثاني فقد تحدّث عن بدايات الفتوح والتي تمثلت بسرايا تمّ من خلالها التمهيد لبدء النشاط الدبلوماسي، والذي أخذ صورة رسائل أرسلت إلى الملوك والحكام والأمراء من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم يدعوهم فيها إلى الإسلام. وبدأ بعد ذلك النشاط العسكري فتمّ الحديث عن أسباب غزوات مؤتة وذات السلاسل وتبوك وأحداثها ونتائجها.

وعرض الفصل الثالث مرحلة جديدة من مراحل الفتوحات تمثلت بالفتوحات زمن الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، والذي بدأها بسرية أسامة بن زيد التي أعدها الرسول صلى الله عليه وسلم قبل وفاته، ومن ثم انتقل إلى مرحلة تجهيز الجيوش للفتح الشامل، وإرسالها واستقدام القائد خالد بن الوليد من العراق، وقد تمّ البحث في كيفية معالجة القائد خالد بن الوليد لمشكلة الطريق الذي سيسلكه، وتعددت الروايات في هذا المجال واختلفت، وكيفية حله لمشكلة المياه وصولاً إلى الحقيقة التاريخية قدر المستطاع من خلال ما توفّر من معلومات تاريخية وعلمية. كما تمّ الحديث عن فتح بصرى الشام وانتصار أجنادين.

وجاء الفصل الرابع ليشمل الحديث عن الفتوحات زمن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأهم المعارك التي قامت في عهده، وهي فحل وبعد نجاح المسلمين في فتح دمشق توغلوا شمالاً حتى حمص، ومن ثم انسحبوا إلى اليرموك لتبدأ المرحلة الفاصلة من المعركة في

اليرموك ، وما أعقبها من فتح بيت المقدس، وتم تسليط الضوء على ما ظهر من خطط عسكرية جديدة ابتدعها المسلمون متفوقين بها على القوة العسكرية للروم، وما ظهر من روح قتالية عالية لدى المقاتل المسلم نسفت الصورة التي اعتاد الروم رؤيتها فيهم، قلبوا بها كل موازين القوة السالفة، وما تلاه من اجتماع الجابية وتوزيع المهام الجديدة، وفتح باقي المناطق. ومن ثم الحديث عن الوباء الذي حل بالشام(طاعون عمواس).

أما الفصل الخامس فقد جعل لعرض الآثار التي ظهرت على سكان جنوب بلاد الشام نتيجة لتحركات الجيوش والنجاحات التي حققتها وما أدى ذلك إلى نتائج مهمة وكبيرة في المجالات كافة.

وقد قام منهج البحث على جمع المصادر العربية والأجنبية والسريانية والبيزنطية والأرمنية، واستقراء كل الروايات المتعلقة بالفتوح ومقارنتها وتحليل البيانات ونقدها وتنظيمها ومن ثم تركيبها وعرضها بأسلوب تاريخي واضح، وبموضوعية؛ للوصول إلى الحقيقة التاريخية قدر الإمكان، ومن معاينة أرض المعركة حسب المستطاع لأنّ الجغرافية هي الهيكل العظمي للفكرة التاريخية، إذ تؤثر في سير المعارك بل والأكثر من ذلك تحدد نتائجها.

وقد واجه البحث العديد من الصعاب في أثناء كتابته كان أولها صعوبة الحصول على المعلومات، كما أنّ تفاوت الآراء بين المؤرّخين جعل من الصعوبة بمكان الأخذ برأي من دون الآخر، بالإضافة إلى وجود تحيز ما في المصادر غير العربية، المعاصرة لأحداث الفتوح، وفرضت كثرة المعارك وتقاربها الكبير زمنياً الخلاف حول ترتيب المعارك، ومما زاد الخلط في ترتيبها تفرّق الجيوش العربية في مناطق مختلفة. فضلاً عن أن طبيعة البحث تفرض تناول أحداث وقعت في فلسطين المحتلة، ولاسيما معركة أجنادين وفتح بيت المقدس وغيرها، والأحداث الأخيرة من معركة اليرموك التي وقعت في الجزء المحتل من الجولان فحالت دون الوصول إلى مناطق تلك المعارك والقيام بدراسة ميدانية لتلك المواقع.

بالإضافة إلى ما ظهر من صعوبات ومعاناة في أثناء السفر من بلد إلى آخر ومن دولة إلى أخرى لزيارة مواقع المعارك التي تخللت عملية الفتوح منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وحتى نهاية الفتوح. وإن سد هذا البحث نقصاً في ناحية من نواحي ودراسات الفتوح فإن فيه من النقص ما ترك أمره للمستقبل لإعادة النظر فيه، ولا يمكن لأي عمل أن يسلم من الملاحظات، فإن أصبت هذا مرامي وإن أخطأت فسوف أعمل جاهداً على تصحيح الأخطاء، وكما قيل من أجتهد وأخطأ فله أجرٌ ومن أجتهد وأصاب فله أجران.

وبعد أن منّ الله عليّ بإتمام بحثي هذا بقيت في داخلي عبارة صغيرة، وحارت نفسي بها، لا تجاهلاً لها وابتعاداً عن الاعتراف بالجميل بل خشية من تقصيرها، ألا نشكو من تقصير الكلمات في بعض المواقف، لقد كانت الدكتورة شكران خربوطلي إلى جانبي دائماً، دفعتني إلى الأمام، وأنارت لي طريقاً كاد أن يلبسه الظلام. إذ تفقدتني بعين المعلم الثاقبة، عزّزت وباركت خطوتي حيناً وردّتني عن الزلل حيناً آخر، إلى أن وصلت بهذا البحث إلى هذه الصورة، فكان لها كبير الأثر في ذلك. فلها مني خالص الشكر والامتنان، كما أسطّر عبارة الشكر لكلّ من أصابني معروفه ونالني جميله سائلاً الله تعالى أن يبارك فيهم ويجزيهم خيراً، والله ولي التوفيق.

دراسة المصادر والمراجع

فرضت طبيعة البحث التنوع في المصادر والمراجع العربية والأجنبية والسريانية والبيزنطية والأرمنية، فكان بعضها شديد الصلة بالموضوع ويغطيه كاملاً وبعضها الآخر يوضح بعض جوانب الموضوع.

المصادر العربية:

تتميز بكثرتها وتنوعها وتتحدد قيمتها بالنسبة للبحث بما تقدم من معلومات عن جنوب بلاد الشام وقد تمت دراسة البعض منها:

ومن الطبيعي أن تأتي **مصادر السيرة** على رأس المصادر العربية لهذا البحث، ومن أهم كتابها:

ابن هشام: (أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري الحميري الذي توفي عام213هـ / 828م)، كتابه السيرة النبوية وهو من أشهر كتب السيرة، واعتمد فيها على مغازي محمد بن اسحق بشكل رئيسي الذي اعتمد بدوره في نقل أخباره على الرواية الشفوية أفاد منه البحث بما ذكره عن نسب النبي صلى الله عليه وسلم وغزواته وبعوثه وسراياه إلى بلاد الشام بشكل مفصل.

التميمي: (الحافظ أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي ت354هـ /965م)، كتابه السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، وفائدته تمثّلت بحديثه عن سيرة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ودعوته وغزواته، وحديثه عن الخلفاء وأهم الأحداث التي دارت في عهدهم، ومن ثم انتقل للحديث عمّا سمّاهم ملوكاً جاؤوا بعد الخلفاء من عهد معاوية بن أبي سفيان وحتى عهد المطيع بن المقتدر، كما قدّم معلومات عن مدن الشام في صدر الإسلام والتي غزاها المسلمون في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم.

ابن كثير: (أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي ت 747هـ / 1346م)، كتابه السيرة النبوية، أفاد منه البحث من خلال حديثه عن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وتاريخ دعوته حتى وفاته. ذكر الرواية بالأسانيد، وامتاز بنقده لبعض الأسانيد عندما يكون المتن غريباً.

وشغلت **كتب المغازي والفتوح** مكاناً مهماً بين مصادر البحث، إذ قدّمت مادة وفيرة حول المعارك وأهمها:

الزهري: (محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب ت 124هـ / 741م)، كتابه المغازي النبوية، من أقدم ما أُلِّفَ في المغازي، أفاد البحث منه في الحديث عن إسلام الصحابة وغزوات الرسول صلى الله عليه وسلم واستخلاف أبي بكر وعمر وفتوحاتهم في الشام.

الواقدي: (عمر بن واقد ت207هـ / 822م)، وقد انقسم عمل الواقدي إلى قسمين، القسم الأول حمل عنوان المغازي، وتألف من ثلاثة أجزاء، قدم للبحث معلومات شملت كل غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم في الجزء الأول إلى إعداد جيش أسامة بن زيد في نهاية الجزء الثالث.

أما القسم الثاني بعنوان فتوح الشام، أخبر فيه عن أحداث المعارك والفتوحات التي قادها الخلفاء من بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد امتاز فيهما باتباعه التسلسل الزمني في إيراد الأحداث ، وقد أفاد البحث منه من كل ما ورد فيه، بل كان من أهم المصادر التاريخية بالنسبة إلى البحث.

الأزدي: (محمد بن عبد الله ت231هـ / 845م). كتابه فتوح الشام، وهو من المخطوطات التي ظلت مجهولة أمام المؤرخين العرب مدة طويلة، وقد عثر المستشرق الإيرلندي وليم فاسوليس على نسخة مخطوطة منه في خزانة كتب شاه كالي في دلهي في الهند، فعمد إلى نشرها سنة1271هـ ـ1854م، وقد تم نشر هذا الكتاب بتحقيق عبد المنعم عبد الله عامر، بدأ الأزدي الحديث في الكتاب من تجهيز الجنود وحتى إتمام الفتح بشكل كامل، إذ توسع في ذكر المعارك والأحداث، فقدم بذلك مادة غزيرة للبحث.

البلاذري: (أبو الحسن أحمد بن يحيى ت279هـ / 892م)، كتابه الأول فتوح البلدان، ذكر فيه معلومات عن الفتوحات الإسلامية على عهد النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده، وسار على طريقة المحِّدثين، وذلك بذكر الرواية المسندة إلى أخبار حروب النبي مع اليهود وحروب الردة وفتوح العرب في الشام والجزيرة وأرمينية ومصر والمغرب وفارس، وقّدم أدق المعلومات عن أجناد الشام ومدنها وتنظيمها الإداري في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، إلا أنّه أغفل بعض مدن الشام التي وردت في أخبار صدر الإسلام.

ابن الأعثم الكوفي: (أبو محمد أحمد بن أعثم ت 314هـ / 926م). كتابه الفتوح، يعد من أقدم المصادر التاريخية المتخصصة في جانب تاريخي معين. ويهتم بالفتوح التي تمت على أيدي الخلفاء المسلمين من عهد الخليفة الراشدي أبي بكر الصديق رضي الله عنه حتى بداية خلافة المعتصم بالله عام(218هـ ــ 833م). فقدّم معلومات دقيقة عن الأحداث التي رافقت الفتوح،

فكانت إفادته للبحث كبيرة. وهو يشبه كتاب الأزدي إلا أنّ كتاب الأزدي السالف الذكر في الفتوح يعتمد على السند وابن الأعثم الكوفي يفتقد إليه، أضف إلى ذلك أنه يسترسل بالتفصيلات.

ابن حبيش: (عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن يوسف ت584هـ /1188م)، كتابه غزوات ابن حبيش، ويتضمن الغزوات الكاملة والفتوح في أيام الخلفاء الثلاث الأول في الشام ومصر وحتى شمالي أفريقيا، وقد أفاد البحث في كل ما ورد فيه.

ابن سيد الناس: (أبو الفتح محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى ت734هـ / 1333م)، كتابه عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، قدم معلومات دقيقة وشاملة عن حياة النبي صلى الله عليه وسلم، نسبه وولادته وحياته في السلم والحرب حتى وفاته.

ومن المصادر المفيدة والتي اعتمد عليها البحث **كتب الطبقات والأنساب والتراجم** ومن أشهرها:

ابن سعد: (أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري ت230هـ / 844م)، كتابه الطبقات الكبرى، شمل الحديث عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ومغازيه، والخلفاء الراشدين والأمويين والصحابة وغيرهم حتى عهده، وقد أفاد البحث كثيراً في هذا المجال عندما عرَّف بالصحابة والأعمال التي قام بها كل صحابي وبهذا يكون قدم مادة غزيرة وموثوقة.

ابن حنبل: (عبد الله أحمد بن محمد ت241هـ / 855م)، كتابه مسند الأمام أحمد، أفاد البحث في تقديم معلومات عن أفراد المسلمين إذ رتبه مراعياً فيها أمور كثيرة منها فضائلهم، وجعل أحاديث بعضهم في أكثر من موضع.

البلاذري: (أبو الحسن أحمد بن يحيى ت 279هـ / 892م)، كتابه أنساب الأشراف، مصدر غني وثمين تناول تاريخ الأرستقراطية العربية في جاهليتها وإسلامها، وأورده على شكل قصص لتاريخ الشخصية وأسرتها، فقدم معلومات عن أهم القادة والأفراد الذين شاركوا في الفتوح بالإضافة إلى معلومات متفرقة عن أجناد الشام.

ابن الأثير: (عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني ت630هـ / 1232م)، كتابه أُسد الغابة في معرفة الصحابة، ذكر فيه سبع آلاف وخمسمائة ترجمة، ويُعَدُّ من أفضل الكتب في هذا المجال، وهو أشبه بقاموس أبجدي لتاريخ الصحابة الذين أقاموا مع الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد أفاد البحث من خلال ترجمته للصحابة مع ذكر أعمالهم وما ارتبط بهم من أحداث، ومنهم الأمراء الذين أمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم لقيادة الغزوات.

ابن حجر العسقلاني: (أحمد بن علي بن محمد بن الكناني العسقلاني الشافعي ت 852هـ / 1448م)، كتابه الإصابة في تمييز الصحابة، رتّبهم بحسب حروف المعجم، وترجم فيه لمجموعة كبيرة من صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم بشكل مفصّل من حيث نسبهم وأعمالهم وأوضاعهم، قدّم للبحث تعريفاً بالقادة والأفراد الذين شاركوا بالفتوح وأهم أعمالهم، ويعد من أكثر كتب التراجم جمعاً.

واعتمد البحث كذلك على **كتب الأخبار والتاريخ العام**، إذ حوت هذه الكتب الأخبار بكل أنواعها ومن أبرز من كتب في هذا المجال:

ابن خياط: (خليفة بن خياط العصفري ت 240هـ / 854م)، كتابه تاريخ ابن خياط الذي يمثّل أقدم الحوليات في التاريخ الإسلامي، إذ يبدأ من السنة الأولى للهجرة وينتهي عند سنة 230هـ ـ 844م، قدّم معلومات متفرقة عن أجناد الشام من خلال حديثه عن غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم وسراياه إلى بلاد الشام، ونقله لأحداث الفتوح مختصرة مرتبة بحسب السنين.

اليعقوبي: (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب العباسي ت284هـ / 897م)، مؤرّخ وجغرافي كتابه تاريخ اليعقوبي، قسم كتابه إلى قسمين رئيسيين، واتخذ من الدول وعهود الحكام أساساً لتنظيم تاريخه، لذلك عُدَّ من أبرز التواريخ التي وضعت بحسب هذا المنهج، واستعرض فيه المدة الزمنية لكل خليفة، وأفاد القسم الثاني من الكتاب في التعرّف على أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم، وأخبار الخلفاء من بعده، وقدّم معلومات غزيرة عن قادة الفتح وعن أحداث فتوح الشام.

الطبري: (أبو جعفر محمد بن جرير ت310هـ / 922م)، كتابه تاريخ الرسل والملوك، تألّف من عدة أجزاء، اعتمد فيه الجمع المفصّل والشامل للروايات المختلفة عن الخلافة بصورة عامة، وبدأ بالحديث عن بدء الخليقة حتى عصره على ترتيب السنين، وأكثر من اعتماده على الواقدي والمدائني، و قدّم مادة تاريخية وفيرة عن الفتوح من خلال ذكره أحداث كل سنة على حدا.

المسعودي: (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي ت346هـ / 957م)، كتابه مروج الذهب ومعادن الجوهر، كتاب جغرافي وتاريخي بدأه بذكر الخليقة، ثم تناول أخبار الملوك والأمراء قبل الإسلام في أنحاء المعمورة، ثم ناقش سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ثم الخلفاء الراشدين، من ثمّ تحدث عن تاريخ الدولتين الأموية والعباسية حتى سنة 336هـ / 947م، قدم معلومات وافرة عن فتح الشام، ومعلومات متفرّقة عن أجناد الشام.

المقدسي: (مطهر بن طاهر ت 507هـ /1113م)، كتابه البدء والتاريخ، تناول فترة حكم كل خليفة من الخلفاء على حدا، فكان فيه الكثير من المعلومات التي كانت موضع البحث.

ابن عساكر: (ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله ت571هـ / 1175م)، كتابه تاريخ دمشق، قدم معلومات مفصّلة للبحث عن مدينة دمشق وروايات فتحها وأهم المواثيق وكتب الأمان التي عقدت، وتراجم رجالات العالم الإسلامي مشرقه ومغربه، فشكّل مصدراً مهماً بمادته التاريخية.

ابن الأثير: (عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني ت630هـ / 1232م). كتابه الكامل في التاريخ الذي تألّف من مجموعة من الأجزاء، رتبها كالطبري على نظام الحوليات، وبدأه بالتحدّث عن تاريخ البشرية منذ أول الزمان حتى عام 628هـ / 1230م وانتهى في حديثه عن كل سنة بخلاصة لكلّ الأحداث، واعتمد بشكل كبير على الطبري، فشكل مادة داعمة لما ورد في البحث من خلال عرضه لأحداث الفتوح مرتبة حسب السنين.

أبو الفداء: (عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن محمد بن عمر ت732هـ / 1331م)، كتابه المختصر في أخبار البشر، الذي تضمن مختصراً عن مطولات كتب التاريخ الإسلامي حتى زمن المؤلف، ورتّب السنين بحسب تأليف الكامل لابن الأثير، فأفاد البحث من المعلومات التي ذكرها.

الذهبي: (شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز بن عبد الله الذهبي ت748هـ / 1347م)، كتابه تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تناول فيه تاريخ الإسلام من بدء الهجرة حتى سنة (700هـ / 1300م)، وتضمّن تراجم المشهورين في كل ناحية من نواحي الحياة وذلك بترتيب السنين، فقدم للبحث مادة غزيرة نادرة عن أعلام البحث وغيرها من نقاط البحث.

ابن شاكر الكتبي: (محمد بن شاكر بن أحمد ت 764هـ / 1362م)، كتابه عيون التواريخ، تحدّث فيه عن غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم ونسبه وأهم الأحداث التي مرّ بها ودعوته وغزواته. وذلك بحسب ترتيب السنوات، ومن ثم انتقل للحديث عن الصدّيق وتوقف عند خلافته، وتحدث عن جهوده الحربية لفتح بلاد الشام ونشر الإسلام، فقدّم معلومات دقيقة ومهمة حول أحداث الفتح.

ابن كثير: (أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي ت774هـ / 1372)، كتابه البداية والنهاية، أفاد البحث فيما ورد فيه عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وغزواته وفتوح الخلفاء الراشدين.

القلقشندي: (أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد ت821هـ / 1418م). كتابه مآثر الإنافة في معالم الخلافة، أول كتاب يتحدث عن الخلافة بصورة خاصة، وتحدث عنها منذ نشأتها إلى أيامه مفصلة مبوبة، فأفاد البحث فيما أورد فيه من معلومات مفيدة.

السيوطي: (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ت911هـ / 1505م). كتابه تاريخ الخلفاء بدأه بالحديث عن الخلفاء الراشدين الأربعة مضافاً إليهم الحسن بن علي، فأغنى البحث بما ذكره من معلومات تتعلق بالفتوح في الحقبة المدروسة.

الدياربكري: (حسين بن محمد بن الحسين ت966هـ / 1558م). كتابه تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، دعم البحث في حديثه عن النبي صلى الله عليه وسلم، وعن وقائع كل سنة منذ بداية الهجرة مشتملاً الحديث عن الخلفاء الراشدين معتمداً الترتيب الزمني للأحداث، وقدم معلومات مهمة عن الغزوات والفتوح التي خصّت الشام.

ابن العماد الحنبلي: (الإمام شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد الحنبلي الدمشقي ت 1089هـ / 1678م)، كتابه شذرات الذهب في أخبار من ذهب، أرّخ فيه لحقبة زمنية طويلة تمتد لعشرة قرون، اعتمد الترتيب الزمني في سرد الأحداث، وقد أفاد البحث في تقديم معلومات عن نشأة الدولة العربية الإسلامية الأولى، وما ارتبط بها من أحداث، بالإضافة إلى معلومات تعلّقت بمدن وأجناد الشام.

وتُعدُّ **الكتب الدينية وكتب الحديث النبوي** من بين المصادر الأساسية، ويقف على رأسها:

البخاري: (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن المغيرة بن بروزبة البخاري الجعفي ت 256هـ / 869م). كتابه صحيح الإمام البخاري، أجلّ كتب الإسلام وأفضلها بعد كتاب الله عز وجل، وقد رتّبه على أبواب، فبدأ بباب بدء الوحي وختمه بكتاب التوحيد، واهتمّ بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، فقدّم مادة غنية يتصل بعضها بالموضوعات الأساسية في هذه الدراسة، مثل كتب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ملوك العالم وأمرائه، وسرية مؤتة وتبوك وغير ذلك.

ومن بين المصادر الدينية المهمة التي اعتمد عليها البحث:

البيهقي: (أبو بكر أحمد بن الحسين ت458هـ / 1065م). كتابه دلائل النبوة، جمع بين دفتيه كل ما يتعلق بالرسول الله صلى الله عليه وسلم واتّبع فيه الترتيب الزمني للأحداث، وسعى فيه إلى إثبات نبوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، واعتمد في ذلك على القرآن الكريم وعلى الصحيحين والترمذي ومسند الإمام أحمد.

ورفدت **كتب الجغرافية والبلدان** البحث في أكثر من جانب، فقد حوت مادة غنية جداً، إذ لم تُقصِر الحديث على جغرافية البلاد بل عرضت الحوادث ونقلت الروايات التاريخية ومنها:

اليعقوبي: (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب العباسي ت284هـ / 897م)، كتابه البلدان، اعتمد فيه على السؤال وسجّل فيه لمن وثق بصدقه فقط، أفاد منه البحث في التعرف على جغرافية المنطقة التي شملها البحث، وتم من خلاله تحديد التغيرات التي طرأت على أجناد الشام ومدنه وتنظيمه بعد الفتح أيضاً.

ابن خرداذبه: (عبيد الله بن عبد الله ت 300هـ / 912م)، كتابه المسالك والممالك حوى مادة غنية وقيمة عن الجغرافية الطبيعية لأجناد الشام وكوره.

البكري: (عبد الله بن عبد العزيز ت487هـ / 1094م)، كتابه معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، أفاد البحث في تعريف المدن.

الحموي: (ياقوت بن عبد الله ت626هـ / 1228م)، كتابه معجم البلدان في معرفة المدن والقرى والخراب والعمار والسهل والوعر في كل مكان، قدم للبحث مادة جغرافية مهمة وشاملة وضخمة عن أهم المدن في بلاد الشام، ووصف مواقعها مع أخبار بسيطة عن فتوحها وصلحها بشكل عام من دون تحديد التاريخ، ورتّب الكتاب على الحروف الهجائية، وتميّز باتساعه وجمع بين الجغرافية والتاريخ والعلم والأدب والفلك.

ومنهم أيضاً الاصطخري في كتابه المسالك والممالك، وابن حوقل في كتابه صورة الأرض، والمقدسي في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم وغيرها كثير.

المصادر الأجنبية:

السريانية: ذلك الفرع من الآرامية الذي كان يستعمل في الكتابة والحديث لدى شعوب الشام وما بين النهرين والمناطق المجاورة منها، وقد حفظت لنا معلومات عن العرب في وقت لم يكن فيه للعرب كتابة خاصة بهم، ومن أهمهم:

ابن العبري: (أبو الفرج غوريغوريس بن اهرون، ولد سنة 623هـ / 1226م في ملطية في أرمينية الصغرى وتوفي سنة 685هـ / 1286م)، ألفّ بالعبرية كتاباً مفصّلاً في التاريخ ووضع بالعربية موجزاً لجزئه الأول بعنوان: مختصر تاريخ الدول، مضيفاً إليه معلومات علمية وطبية. وقد قسّم التاريخ على شكل دول وكان عددها عشر، بدأها مع آدم عليه السلام، وحتى الدولة المنتقلة من ملوك العرب المسلمين إلى ملوك المغول، فقدّم معلومات مهمة عن أحداث الفتوح.

ميخائيل السوري(السرياني):

ولد عام (520هـ / 1126م) وتوفي عام (569هـ / 1199م)، كان ذا ثقافة واسعة، ويعرف كثيراً من اللغات منها العربية والأرمنية، وتنبع أهمية كتابه من احتفاظه بنصوص ضاعت أصولها، اعتمد في كتابته على مصادر غير سريانية فشكّل معرضاً لمصادر كثيرة، ورأى أن الفتوح إنما هي من رب الانتقام الذي بعث بأبناء إسماعيل من الجنوب ليخلّصوهم من قبضة الرومان، وقد ترجم الكتاب لأهميته إلى الأرمنية والعربية، ومن هنا قدّم مادة غنية ومهمة عن الفتوح، وعن القبائل العربية والفلاحين والعامة.

الأرمنية: ومنهم

سيبيوس الأرمني:

كان أسقفاً، ألّف كتاباً تحدث فيه عن تاريخ هرقل وأرّخ فيه لأحداث القرن الأول الهجري السابع الميلادي ومنها مرحلة الفتوح الإسلامية التي عاصرها، فقدّم معلومات خدمت البحث في هذا المجال، إذ رأى أن الفتح الإسلامي إنما هو عقوبة تحل بالأرض بسبب آثام الناس.

افتيشيوس:(سعيد بن بطريق)

كتابه التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، وقد كتبه إلى أخيه عيسى في معرفة التواريخ الكلية من عهد آدم إلى سني الهجرة الإسلامية، وأتبعه بتاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي، أفاد البحث منه في تقديم معلومات حول الفتح العربي الإسلامي لبلاد الشام من وجهة نظر غير عربية.

البيزنطية: ومنهم

ثيوفانس:

مؤرّخ بيزنطي توفي عام(203هـ / 818م) تكمن أهميته بالنسبة إلى التاريخ الإسلامي في أنّ حوليته تكشف عن اطّلاع واسع على تاريخ بلاد الشام وفي اعتماده على مصادر سالفة ضاع معظمها، فشكّل نافذة أطلّ من خلالها البحث على ما تمّت كتابته من قِبَلِ المؤرِّخين غير العرب فيما يخص أحداث فتح الشام.

المراجع العربية:

تأتي المراجع العربية لتوضح وجهات نظر متعددة في الأحداث وهي رافد أساسي للمصادر لا يمكن الاستغناء عنها ومنها:

المباركفوري:(صفي الدين) كتابه الرحيق المختوم، خدم البحث فيما احتواه من حديث عن نسب الرسول صلى الله عليه وسلم وأسرته، وأدوار الدعوة وما جرى من أحداث خلالها، ومن ثم هجرته، وأهم سراياه وبعوثه وغزواته كاملة.

عباس:(إحسان) كتابه تاريخ بلاد الشام من ما قبل الإسلام حتى بداية العصر الأموي، قدّم معلومات مهمة للبحث عن فتوح الشام، وأهم التنظيمات التي أقيمت في بلاد الشام بعد فتحها.

سعيد:(أمين) كتابه حروب الإسلام والإمبراطورية الرومية، أفاد البحث في حديثه الذي غطى الحقبة الزمنية الممتدة ما بين(5هـ/ 626م ــ 33هـ/ 654م). إذ بدأ بالغزوات النبوية على مناطق الحدود الحجازية الشامية، ثم انتقل للحديث عن المعارك التي حدثت في عهد الخلفاء الثلاث أبي بكر و عمر وعثمان رضوان الله عليهم.

غوانمة:(يوسف) كتابه معركة اليرموك، أفاد البحث بما تحدث فيه عن معركة اليرموك وسيرها وطبوغرافية المنطقة، وإعداد الجند، وتحديد المواقع والتاريخ وأحداث المعركة بأيامها الستة ونتائجها.

شكري:(فيصل) كتابه حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول الهجري، أفاد البحث بما ذكره من معلومات حول فتح الشام، إذ أطلق على حركة الفتح في عهودها الأولى اسم حركة التحرير الإسلامي، وقد استخدم الكاتب في أغلب الأحيان عبارات المؤرخين أنفسهم، وضم في كل فصل مصور لمنطقة الفتح.

الصعيدي:(عبد المتعال) كتابه السياسة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين، وشكل جزءاً مكملاً لكتاب آخر له حمل عنوان السياسة الإسلامية في عهد النبوة، وتضمن هذا الكتاب أحداث مهمة ارتبطت بتحرير جبهة بلاد الشام من الروم البيزنطيين، وقد قدّم معلومات قيّمة فيما يخص هذا الموضوع.

العقاد:(عباس محمود) كتابه العبقريات الإسلامية، ضم مواضيع عدة، منها ما تحدث فيه عن البعثة النبوية ونشأتها، ومنها ما تحدث عن عبقرية محمد صلى الله عليه وسلم إذ بين فيه البواعث النفسية التي توحي إلى النبي أعماله ومعاملاته، ومنها ما تحدث عن عبقرية أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وخالد رضوان الله عليهم جميعاً، وقد تضمّن هذا الكتاب ماله علاقة بالبحث الشيء الكثير.

أكرم:(أ) كتابه سيف الله خالد بن الوليد، تحدث فيه عن خالد بن الوليد منذ زمن النبي صلى الله عليه وسلم وموقفه في أثناء غزواته وفتح الشام، فأغنى البحث بما قدمه من معلومات.

وتر:(محمد ظاهر) كتابه الريادة في حروب وفتوحات أبي بكر الصديق، وحاول فيه الكاتب إبراز الجانب العسكري عند أبي بكر الصديق، وتضمن سبعة فصول، وكان الخامس منها ماله علاقة بالبحث، وكان بعنوان فتح دمشق.

الشجاع:(عبد الرحمن) كتابه دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، وتألف من ثلاثة أبواب، والباب الثالث تحدث فيه عن الخلافة الراشدة وعالمية الإسلام، وتضمن الحديث عن الفتوح الإسلامية في جبهات مختلفة ومن ضمنها جبهة بلاد الشام، فأفاد البحث فيما تضمنه من معلومات.

الخربوطلي:(علي حسني) كتابه الدولة العربية الإسلامية، اقتصر على دراسة الحياة السياسية والدينية، إذ لم يجعل الخلفاء محوراً لدراسته بل قسّمه إلى موضوعات حافظ من خلالها على وحدة الحركات والأحداث السياسية وتكاملها ، فقدم معلومات أفادت البحث.

صالح:(قاسم محمد) كتابه العسكرية الإسلامية في العصر الراشدي، اليرموك والقادسية، أفاد البحث بما قدمه من معلومات عن المبادئ العامة العسكرية الإسلامية في العصر الراشدي، وعن الإستراتيجية التي اعتمدها الخليفتان أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وبما استعرضه من خطط عسكرية ميدانية كان قد رسمها قادة الفتح الأوائل، وأوضح سير العمليات العسكرية بمنهجية تاريخية سليمة وبخرائط دقيقة.

زكار:(سهيل) كتابه اليرموك والفتح العمري الإسلامي للقدس، وكان هذا الكتاب في البداية مجرد ترجمة لكتاب صدر بالإنكليزية من تأليف داوود نيقولا، الذي لم يتحدث فيه بما فيه الكفاية عن فتح دمشق، وأهمل بعض إجراءات العرب للتحضر لهذا الفتح خاصة في عزل المناطق الساحلية حتى لاتصل الإمدادات البيزنطية عبرها، وكما أشار إشارة عابرة إلى فتح القدس، لذلك جاء هذا الكتاب في قسمين، الأول لترجمة المُؤلَف الإنكليزي، أما القسم الثاني تدارك فيه الدكتور سهيل زكار ذلك النقص وتحدث عن كل ما يتعلق بهذه الفتوح لتلك المنطقة في تلك الحقبة، وقد تضمن هذا الكتاب معلومات غزيرة شكلت الأساس لكثير من المسائل التي تناولها البحث.

جغرافية المنطقة المدروسة:

تشمل المنطقة المدروسة الجزء الجنوبي من بلاد الشام الواقعة في الجزء الأوسط من منطقة غرب آسيا، وتمثل الجزأين الأوسط والغربي من منطقة الهلال الخصيب، والتي تتكون من كل من (جنوب سورية ولبنان وفلسطين والأردن)، بالإضافة إلى الجزء الجنوبي الغربي من العراق الذي شكّل الطريق الذي سلكه خالد بن الوليد في توجهه إلى الشام، وتمتد بين درجتي عرض(21 ،44َ،34ْ) و(25 ، 23َ ، 28ْ) شمال خط الاستواء، وبين درجتي طول (54 ،16َ ، 34ْ) و(27 ،44ْ) شرق غرينتش.

وتعد جنوب بلاد الشام نقطة وصل بين شبه الجزيرة العربية في الجنوب وبلاد الأناضول في الشمال وبين العراق وبلاد فارس في الشرق والسواحل الشرقية للبحر المتوسط في الغرب[1]، كما تعد المعبر البري الوحيد إلى مصر وشمال أفريقيا، وذلك عبر شبه جزيرة سيناء للقادم من منطقة غرب آسيا، وكذلك الأمر للقادم من مصر وشمال إفريقيا، ويصعب تحديد الحدود الجغرافية في تلك المرحلة لبلاد الشام بشكل دقيق، والسبب في ذلك الحركة المستمرة للقبائل والصراعات التي كانت تنشب من حين إلى آخر بين القبائل بعضها مع بعض، والصراع الذي كان ينشب بين أكبر قوتين في المنطقة آنذاك البيزنطيين والفرس، وطبعاً ساحة الصراع في أغلب الأحيان بلاد الشام مما كان له الأثر الواضح في اتساع المساحة وضيقها، بحسب الوضع السياسي السائد، وبناء على ذلك لم ترسم الحدود بشكل دقيق في كتابات الجغرافيين والمؤرخين العرب لأن بلاد العرب وحدة جغرافية كاملة لا بحار واسعة ولا جبال عالية تفصل بينها، وقد اقتصرت على الحديث عن المناطق التي ضمتها بلاد الشام ومن خلال ذلك يمكن استنتاج جغرافية بلاد الشام، فمنهم من تحدّث فقط عن الأقاليم والطرق التي تصل بينها مثل ابن خرداذبه الذي تحدث عن إقليم حمص والطريق من حمص إلى دمشق وهكذا في كل مناطق بلاد الشام[2]. ومنهم من قسمها إلى أجناد أربعة هي حمص، ودمشق، والأردن، وفلسطين، مثل اليعقوبي[3].

أما الأصطخري في كتابه المسالك والممالك فقد تحدث عن حدود بلاد الشام قائلاً:" أما الشام فإن غربيها بحر الروم وشماليها بلاد الروم وجنوبيها حد مصر وتيه بني إسرائيل، وآخر حدودها مما يلي مصر رفح، ومما يلي الروم الثغور وهي (ملطية والحدث ومرعش والهارونية

---

1 ـ حتي: (فيليب)، تاريخ سورية ولبنان، ترجمة جورج حداد وكمال اليازجي، دار الثقافة، بيروت ج1، ص5

2 ـ ابن خرداذبه:(عبيد الله بن عبد الله ت300هـ / 912م)، المسالك والممالك، دار احياء التراث العربي، بيروت، 1988م، ص17-18

3 ـ اليعقوبي: (أحمد بن يعقوب ت 284هـ /897م)، البلدان، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، العراق، ص36 - 37 - 38

والكنسية وعين زربة والمصيصة وأذنة وطرسوس)[1]. أما ابن حوقل فقد حدّد بلاد الشام بشكل مفصل تماماً من خلال الخريطة التي رسمها لها وقد جاء هذا التحديد مطابقاً للأصطخري[2].

أما المقدسي فقد قسمها إلى كور[3] ويمكن استنتاج حدود بلاد الشام من خلالها، إذ وردت بلاد الشام لديه في الإقليم الرابع، الذي قسمه إلى أربعة صفوف، يشكل الحد الغربي للصف الأول حدّ بلاد الشام من الغرب والحد الشمالي للصفوف الأربعة مجتمعة، إذ يقول:"الصف الأول: وهو الذي يلي البحر (بحر الروم) وهو السهل الساحلي، ويقع فيه من البلدان(الرملة، وجميع مدن الساحل).

الصف الثاني: وهو الجبل مشجر ذو قرى وعيون ومزارع، يقع فيه من البلدان(بيت جبريل، إيليا، نابلس، اللجون، القدس، البقاع، أنطاكية).

الصف الثالث: الأغوار وهي ذات قرى وأنهار ونخيل ومزارع، ويقع فيها من البلدان(أيله، تبوك، صغر، أريحا، بيسان، طبرية، بانياس).

الصف الرابع: ويتمثل في سيف البادية، وهي عبارة عن جبال عالية باردة معتدلة مع البادية ذات قرى وعيون وأشجار، يقع فيه من البلدان(مآب، عمان، أذرعات، دمشق، حمص، تدمر، حلب)، وتقع فيه الجبال الفاصلة مثل جبل(زيتا، صديقا، لبنان، اللكام)" [4].

وذكر بعضهم تفاصيل الحدود كأبي الفداء الذي قال:" ويحيط به من جهة الجنوب حتى يمتد من رفح إلى حدود تيه بني اسرائيل إلى مابين الشوبك وأيلة والبلقاء"[5].

ويُستنتج من كل ذلك أنّ الحدود تشابهت عند الجغرافيين والمؤرخين العرب والمسلمين، بحيث يمكن القول إن جنوب بلاد الشام تمتاز بتنوع التضاريس من جبال وسهول وغابات وطرقات ممتدة في كل الجهات، فمن جبالها سلسلة لبنان الغربية والشرقية، ومن سهولها البقاع، ومن أغوارها الأردن[6]، وأهم أنهارها اليرموك الذي يصب في نهر الأردن[7]، والأردن الذي يصب في بحيرة طبرية[8]، وبردى يمر في دمشق[9]، والأرند (العاصي) شمالي الشام يمر

---

1 - الأصطخري:(أبي اسحق إبراهيم بن محمد ت 346هـ / 956م)، المسالك والممالك، تحقيق جابر عبد العال الحسيني، مراجعة محمد شفيق غربال، دار القلم، بيروت، 1961، ص43

2 - ابن حوقل:(أبي القاسم ت 367هـ / 977م)، صورة الأرض، مطبعة بيرل ليدن، 1967م، ط2، ج3، ص165

3 - الكور: اسم فارسي وهي كل صقع يشتمل على عدة قرى. الحموي:(شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت ت 626هـ / 1228م)، معجم البلدان، بيروت، دار صادر، ج1، ص36

4 - المقدسي:(محمد بن أحمد ت390هـ / 999م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط3، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1991م، ص186

5 - أبو الفداء:(عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر ت732هـ / 1331م)، تقويم البلدان، تصحيح ريود ومالك كوكين ريسلان، نشر دار الطباعة السلطانية، باريس، 1850م، ص225

6 - لومبارد:(موريس)، الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي خلال الأربعة قرون الأولى ، ترجمة عبد الرحمن حميدة، دار الفكر، دمشق، 1979م، ص44

7 - الحموي: معجم، ج5، ص434

8 - الحموي: معجم، ج1، ص147

9 - الحموي: معجم، ج2، ص378

بحمص وحماه[1]، وباديتها الواسعة التي تمتد حتى قرب الحجاز وتسمى بالبلقاء، وقد امتازت منطقة جنوب بلاد الشام بكثرة المدن والبلدان، ولكثرتها سيتم الحديث عن المناطق التي كانت مسرحاً للعمليات العسكرية فقط ومنها:

- دومة الجندل[2]: وهي على سبع مراحل[3] من دمشق بينها وبين مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيها حصن، وهي قرب جبلي طيء، وفيها عين تسقي النخل والزرع[4]، وتعرف اليوم بالجوف وهي تتألف من مزارع صغيرة متقاربة وهي على عشرين وثلاثمائة ميل إلى الشمال من المدينة[5].
- آيل الزيت: وهي بالأردن من مشارف الشام.
- مؤتة: من قرى البلقاء في حدود الشام، وعلى مقربة منها كانت تطبع السيوف في قرية المشرفة[6]. وهي اليوم في جنوب الأردن في محافظة الكرك.
- ذات السلاسل: وهي اليوم بمنطقة العُلا على بعد مائة وستين ميلاً[7] إلى الشمال الغربي من المدينة[8].
- تبوك: تقع على طريق الشام من جهة المدينة المنورة، وهي غرب دومة الجندل، وفيها عين ماء ونخل وأشجار وتتصل بالمدينة المنورة بطريق إلى الجنوب، وتتصل بالشام بطريق يمر من معان إلى بصرى، وتتصل بدومة الجندل بطريق يصل إلى الفرات، وهي حصنْ وتبعد مائتي وخمسين ميلاً إلى الجنوب من عمان[9].
- داثن (دائن) : ناحية بالقرب من غزة[10]، في فلسطين اليوم.
- عربة: موضع من بلاد فلسطين[11]، وهي المنطقة المنخفضة التي يحدها اليوم النقب بفلسطين من الغرب وجبال الكرك والطفيلة ومعان في الأردن من الشرق[1].

---

1 ـ الحموي: معجم، ج1، ص162

2 ـ كان في دومة الجندل قبل الإسلام حصن يسمى "المارد" وقد بني بالحجارة وأقيم حوله سور حجري، ومن أجل هذا حملت دومة لقب " الجندل"

SURDEL:(D), Dumat al- Djandal,in the Encyclopedia of Islam new edition, P.624.

3 ـ المرحلة: مابين المنزلتين مرحلة، والمرحلة مسيرة يوم واحد وتقدر بنحو /90كم/. أبو خليل:(شوقي)، الحضارة العربية الإسلامية، دار الفكر، دمشق، 1996، ص391

4 ـ الحموي: معجم، ج2، ص487

5 ـ عطوان:(حسن)، الجغرافية التاريخية لبلاد الشام، دار الجيل، بيروت، 1407هـ - 1987م ط1، ص52

6 ـ جبر:(يحيى عبد الرءوف)، معجم البلدان الأردنية والفلسطينية حتى نهاية القرن الهجري السابع، ص207- 208

7 ـ الميل: 400ذراع شرعية= 2/1 فرسخ= حوالي 2كم. هنتس:(فالتر)، المكاييل والأوزان الإسلامية، ترجمة كامل العسلي، عمان، 1970م، ص95

8 ـ القزويني: (زكريا بن محمد بن محمود ت682هـ / 1283م)، آثار البلاد واخبار العباد، دار صادر، بيروت، 1389هـ - 1969م، ص275 - سعيد:(أمين)،حروب الإسلام والإمبراطورية الرومية، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر ، ص52

9 ـ عطوان: الجغرافية التاريخية، ص52

10 ـ الحموي: معجم، ج2، ص417

11 ـ البلاذري:(أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البغدادي ت 279هـ / 892م)، فتوح البلدان، تحقيق طه عبد الرءوف سعد وعمر أحمد عطوة، دار ابن خلدون، ص151

- قراقر: اسم واد أصله من الدهناء وهي ماء لكلب، وإليها ينتهي سيل حائل وتسيل إليه أودية مابين جبلي طيء وأسد[2].
- سوى: اسم ماء لبهراء من ناحية السماوة[3].
- تدمر: مدينة قديمة في برية الشام، ولها حصون قوية [4].
- القريتين: قرية كبيرة من أعمال حمص في طريق البرية بينها وبين سخنة [5].
- حوارين: حصن من ناحية حمص بالقرب من القريتين[6]، وقد ذكر أنّ القريتين هي حوارين على الرغم من أنهما منطقتان وليس منطقة واحدة وهما يتبعان محافظة حمص حتى الآن[7].
- مرج راهط: إلى الشمال من دمشق على بعد ستة أميال منها، يتصل بالغوطة اتصالاً وثيقاً، ويعرف اليوم بالمرج وهو من أعمال دوما، وكان يدعى أحياناً مرج عذراء، لأنه بجانب قرية عذراء وهي على أثني عشر ميلا من دمشق[8].
- ثنية العقاب: وهي ثنية مشرفة على غوطة دمشق، يطؤها القاصد من دمشق إلى حمص[9]، سميت بهذا الاسم لأنّ خالد بن الوليد وقف عليها ساعة ناشراً رايته وهي راية سوداء، كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فسميت ثنية العقاب يومئذ، والعرب تسمي الراية عقاباً، وهي تطلق اليوم على الجبل الواقع آخر سهل دوما إلى الشمال من دمشق على بعد عشرة أميال منها[10].
- بصرى: من أعمال دمشق، وهي قصبة حوران اشتهرت عند العرب قديماً وحديثاً[11].
- حوران: كورة من أعمال دمشق[12]، فيها الكثير من القرى والمزارع الخضراء، امتازت بتربتها الخصبة، ويزرع فيها القمح والحبوب والبقول[13].

---

1 ـ عطوان، الجغرافية التاريخية، ص31
2 ـ الحموي: معجم، ج4، ص317
3 ـ الحموي: معجم، ج3، ص271
4 ـ الحموي: معجم، ج2، ص17
5 ـ الحموي: معجم، ج4، ص336
6 ـ الحموي: معجم، ج2، ص315
7 ـ دراسة ميدانية
8 ـ عطوان: الجغرافية التاريخية، ص43
9 ـ الحموي: معجم، ج2، ص85
10 ـ عطوان: الجغرافية التاريخية، ص44
11 ـ الحموي: معجم، ج1، ص441
12 ـ البكري:(أبي عبيد الله بن عبد العزيز ت487هـ / 1094م)، معجم ما استعجم، تحقيق مصطفى السقا، القاهرة، 1945م، ج1، ص474
13 ـ ابن الأثير:(عز الدين أبي الحسن علي بن محمد ت 630هـ / 1232م)، الكامل في التاريخ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العرب، بيروت، 1420هـ ـ 1999م، ط2، ، ج2، ص409 ـ دراسة ميدانية

- مرج الصفر: موضع بين دمشق والجولان[1]، في الجهة الجنوبية الغربية من دمشق على مساحة أربعة عشر ميلاً، وينبسط إلى الجنوب من نهر الأعوج الذي ينبع من قرية عرنة في السفح الشرقي من جبل الشيخ[2].
- أجنادين: من أرض فلسطين بين الرملة وجيرون[3]، وقرب عجور من قرى الجليل[4].
- نهر الأردن: ويسمى الشريعة، يلتقي بنهر اليرموك بعد أن يخزن في بحيرة طبرية ويتابع في وسط الغور جنوباً حتى يتجاوز بيسان[5].
- فحل: من قرى الشام[6]، تقع في محافظة إربد حالياً إلى الشرق من نهر الأردن، وهي منطقة واسعة غنية بالمياه وتحيط بها السلاسل الجبلية من الغرب والشرق، وتكثر فيها بقايا القلاع الأثرية[7].
- بيسان: في غرب غور الأردن غنية بالمياه والأشجار[8].
- دمشق: ريحانة الشام، كتب عنها الكثير في مختلف النواحي، [9]يرويها نهر بردى، محاطة بالجبال من الجهة الغربية والشمالية ومفتوحة إلى البادية.
- حمص: مدينة في أرض الشام حصينة واسعة صحية الهواء والتربة وكثيرة المياه والأشجار[10]، تقع على نهر العاصي على بعد اثنين وتسعين ميلاً إلى الشمال من دمشق[11].
- الواقوصة: وادٍ في أرض حوران يحده من الشرق وادي اليرموك، ومن الغرب يتصل بسهول فيق ومن الشمال بسهول حوران[12]، وتعرف كذلك بالياقوصة وكلا الاسمين مستخدم من سكان المنطقة القريبة منها في منطقة الجولان.
- تل الجابية: الجابية موضع بالشام، من ناحية الجولان قرب مرج الصفر ونوى والصنمين، بالقرب منها التل الذي يعرف باسمها[13]، وفي هذا الموضع خطب عمر

---

1 ـ الحموي: معجم، ج3، ص413
2 ـ عطوان: الجغرافية التاريخية، ص46
3 ـ البكري: معجم ما استعجم، ج1، ص114
4 ـ جبر: معجم البلدان الأردنية، ص67
5 ـ القلقشندي:(أبي العباس أحمد بن علي ت 821هـ / 1418هـ)، صبح الأعشى، وزارة الثقافة، القاهرة، ج4، ص91
6 ـ البكري: معجم، ج3، ص1014
7 ـ دراسة ميدانية لموقع المدينة
8 ـ القلقشندي: صبح الأعشى، ج4، ص104
9 ـ ابن عساكر:(ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله ت571هـ / 1175م)، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق علي شيري، دار الفكر، دمشق،ج1، ص54 - الحموي، معجم، ج2، ص463
10 ـ القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص184
11 ـ سعيد: حروب الإسلام ،ص163
12 ـ وتر:(محمد ظاهر)، الريادة في حروب وفتوحات أبي بكر، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1999م، ص86
13 ـ الحموي: معجم، ج2، ص91 - القزويني: آثار البلاد، ص175 ـ دراسة ميدانية

ابن الخطاب رضي الله عنه خطبته المشهورة، وباب الجابية بدمشق منسوب إلى هذا الموضع[1].

- القدس: وعرة المسالك موقعها على جبل، بناؤها من الحجر الأسود والكلس، تجري فيها عين سلوان، كثيرة الفواكه والخيرات [2]، تقع على بعد ثلاثين ميلاً إلى الجنوب من نابلس.
- آيلة (العقبة): بلدة تقع على ساحل بحر القلزم (البحر الأحمر)، وهي أول بلاد الشام من الجهة الجنوبية [3]، بينها وبين عمان مائةٌ وستون ميلاً، كانت إحدى موانئ فلسطين[4].
- غزة: من بلاد فلسطين مطلة على بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) قريبة من مصر[5]، تقع إلى الشمال من رفح، و من قراها الداثن وتقع إلى جهة الشرق منها.
- عسقلان: إلى الشمال من غزة على اثني عشر ميلاً منها، وهي على ساحل البحر بين غزة وبين جبرين[6].

---

[1] ـ البغدادي:(صفي الدين ت 739هـ / 1338م)، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق وتعليق علي محمد البجاوي، دار احياء الكتب العربية، مكتبة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ط1، 1954م، ج1، ص304 ـ المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، مركز الدراسات العسكرية، طباعة المؤسسة العامة للمساحة، دمشق، ط1، م2، 1992م، ص599

[2] ـ المقدسي: أحسن التقاسيم، ج1، ص63

[3] ـ الحموي: معجم، ج1، ص292 ـ القزويني: آثار البلاد، ص153

[4] ـ عطوان: الجغرافية التاريخية،ص32

[5] ـ المقدسي: أحسن التقاسيم، ج1، ص65

[6] ـ عطوان: الجغرافية التاريخية، ص27

تمهيد:

أوضاع جنوب بلاد الشام قبيل الفتح العربي الإسلامي:

بلاد الشام هي الامتداد الطبيعي والبشري لجزيرة العرب، ولذلك جاءته موجات منتظمة وضخمة كالعاموريين والكنعانيين والفينيقيين والآراميين والعبرانيين والأنباط والتدمريين والغساسنة والمناذرة.... الذين انساحوا من جزيرة العرب في حقب متباعدة قبل الميلاد إلى الشمال، وقد أسسوا ممالك لهم في الأماكن التي استقروا بها، استمر بعضهم فيها حتى ما بعد الميلاد، وما يهم البحث القبائل التي سكنت جنوب بلاد الشام نذكر منها الأنباط في مطلع القرن الثاني قبل الميلاد، ضمّت مملكتهم جنوب فلسطين وشرق الأردن والجنوب الشرقي من سورية وشمال جزيرة العرب، ووصلت إلى مدينة دمشق في عهد الحارث الرابع الذي حكم العقد الأخير من القرن الأول قبل الميلاد إلى سنة أربعة بعد الميلاد[1]. وقد أجمع الكتاب البيزنطيون على تعريف جميع العرب في سهول سوريا وبين الرافدين باسم سكنتاي أو سراكيني و سكنتاي هم أصل العرب[2]، وهي تعني البدو وسكان الخيم.

وسبب توسعهم إلى دمشق أهميتها التجارية فإليها تتجه السلع الآتية من الجنوب[3]، كما نزلت قبائل عربية تدمر والبادية القريبة منها قبل الميلاد بقرون، وأهل تدمر من العرب شأنهم في ذلك شأن الأنباط، حكمتها أسرة أذينة بن حيران وحكمت حمص حتى منتصف القرن الثالث الميلادي، وكان لها سلطان على الشام، وحكمتها زنوبيا زوجة أذينة الثاني أيضاً وصية على ابنها وهب اللات، واستمرت مملكتهم العربية حتى قضى عليها الرومان في آخر القرن الثالث الميلادي[4]. وقد انساح أيضاً إلى بلاد الشام العربُ اليمنيون من قبائل الضجاعم وكلب وغسان وجذام[5]، وبهراء وبلقين وعاملة وقضاعة وعذرة، كما استقرت بها قبائل من سليح، واستُخدِمَتْ هذه القبائل من قبل الروم لحماية نفوذهم في الشام، كما استوطنت كل من لخم وجذام وعاملة في فلسطين، واستوطنت قبيلة كلب في دومة الجندل ثم نزحت إلى تدمر، وسكنت حمص والسويداء وبادية السماوة من حد دومة الجندل إلى عين التمر و قراقر وسوى[6]. أما وادي حسمى من جنوب الأردن فقد نزلتها فزارة[7]. واستقرت بهراء في المنطقة الممتدة من الينبع إلى أيلة [8]،

---

1 - العلي:(جواد)، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1969 ج3،ص15 - ج1، ص166

2 - Trimingham:(J. S), Christianity Among the Arabs in pre- Islamic Times London and New York. P.313

3 - سليم:(أحمد أمين)، معالم تاريخ العرب قبل الإسلام، مكتب كريدية أخوان، بيروت، ص145

4 -حتي: تاريخ سورية ولبنان ، ج1، ص437

5 - ابن الأثير: الكامل ، ج2، ص260،270

6 - اليعقوبي: البلدان ، ص324

7 - البطاينة:(محمد ضيف الله)، القبائل العربية في بلاد الشام، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، نيسان، تموز، 1985م، العدد19-20 ص131

8 - القلقشندي: صبح الأعشى، ج1، ص317

كما يذكر ابن حوقل أنّ بادية الشام إنما هي ديار لفزارة ولخم وجذام وبلي وقبائل مختلفة من اليمن وربيعة ومضر[1]، وأقامت غسان في البادية جنوب شرق الشام في منطقتي دمشق و حوران، و كانت قضاعة في البلقاء إلى الجنوب الشرقي من الأردن، و تنوخ و طيء و سليح بجوار حلب و قنسرين[2]، وتوزعت القبائل العربية في بلاد الشام بأعداد مختلفة ومساحات توزع متفاوتة. بالإضافة إلى القومية العربية ظهر فيها اليهود واليونان والرومان الذين ألّفوا الأكثرية المطلقة في المنطقة الشمالية، بالإضافة إلى الآشوريين النازلين في منطقة دمشق، والمردة "الموارنة" في جبال لبنان، والفرس في المنطقة الشرقية[3].

و كان لهذه القبائل علاقات تجارية مع الحجاز، وصلات قديمة جداً لم تنقطع في أي وقت من الأوقات، وأضف إلى ذلك أنه لم يكن انتقال القبائل العربية إلى بلاد الشام دفعة واحدة بل حدث على مراحل زمنية متعددة استغرقت قروناً طويلة، وبذلك يكون الدخول مستمراً مما جعله أمراً طبيعياً وعادياً، وهذا الأمر أدى إلى تشكيل صعوبة في تحديد زمن معين لوصول القبائل العربية إليها[4]. وهذه القبائل شكلت فيما بعد دويلات إلا أنها كانت قصيرة العمر وزالت قبل الفتح الإسلامي، فكانت المواجهة مع الروم الذين احتلوها لمدة سبعة قرون من سنة (63ق.م إلى سنة 638م)[5].

وكان الاستيلاء على تخوم الشام وأطراف شبه الجزيرة العربية هدف لابد من تحقيقه، إذ إنّ تلك المنطقة كانت تشكل معبراً لأهم الطرق التجارية، فكان لابد من حمايتها. ولأجل ذلك ملكت بيزنطة المتغلب منها وفوضتها بحماية الحدود، بل إنها أشركتها معها في حروبها الخارجية[6].

إذ جعل الروم من الضجاعم حكاماً، ثم ملك بالشام بعد الضجاعم تنوخاً وهم من قضاعة كذلك، ثم جاءت الموجة الثالثة من قضاعة الممثلة ببني سليح التي تغلبت على تنوخ واعتنقت النصرانية، وملّكتهم الروم على سائر قبائل عرب الشام[7]، ونجد من ذلك الاعتبار الوحيد الذي اعتمد عليه الروم في تسليم تلك القبائل السيادة هي القوة، فالأقوى هو الذي يحكم، واستمروا في حكم الشام إلى أن جاءت قبائل غسان من اليمن ــ وهي من قبائل الأزد ــ وذلك في حدود عام

---

1 ـ ابن حوقل: صورة الأرض، ص42 ـ الطيب:(محمد سليمان)، موسوعة القبائل العربية، دار الفكر العربي، عابدين، 1418هـ ـ 1997م، ط2، ج2، ص314

2 ـ البخيت، عباس:(محمد عدنان، إحسان)، بلاد الشام في صدر الإسلام، مطبعة الجامعة الأردنية، 1405هـ ـ 1985م، ص107

3 ـ سعيد، حروب الإسلام ، ص38،39

4 ـ دسوقي:(محمد عزت)، القبائل العربية في بلاد الشام من ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الأموي، الهيئة المصرية للكتاب، 1998، ص29، 30

5 ـ البيطار:(عزت)، الرسول العربي محمد والإمبراطور هرقل، 1350هـ ـ 1931م، بدون، ص8

6 ـ بطاينة: القبائل العربية، ص133 - Thomson:(R.W),The Armenian History Attributed to Sebeos, , Liverpool university press, 1999, p.i

7 ـ المسعودي:(أبي الحسن علي بن الحسين 346هـ / 957م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الفكر، بيروت، 1409هـ ـ 1989م،، ج2، ص106

(250م) على ما قاله بعض المؤرخين المحدثين[1]، واحتلوا مكانهم ومكانتهم[2]. وجاورتهم آنذاك قبائل أخرى منها كلب وتنوخ ولخم وجذام وبهراء وبلقين وبلى وعذرة وغيرها من القبائل التي ظلت موجودة إلى جوار غسان حتى ظهر الإسلام، وقام الغساسنة بالدور الذي رسمته الدولة البيزنطية لهم فقد كانوا كالمجن يحمي الإمبراطورية البيزنطية من هجمات القبائل والأعراب، وشريك يحميهم ويقف معهم بالحروب ضد الفرس وحلفائها المناذرة في العراق قبل الإسلام، واستمر هذا الدور بعد الإسلام، إذ اشتركت في وقائع فتح الشام وحرب اليرموك ضد المسلمين حيث كانت ديارهم باليرموك والجولان وحوران وغيرها من غوطة دمشق وأعمالها، ومنهم من نزل الأردن[3].

ويبدو أنّ بيزنطة وجدت سياسة اتخاذ القبائل العربية لحرب العرب المناوئين حلاً عملياً مجدياً عسكرياً واقتصادياً، ولاسيما في الدفاع عن الحدود ضد مجاوريهم. وقد بلغت إمارة الغساسنة منزلة عالية لدى البيزنطيين. وشملت سلطتهم القبائل العربية الرحل، أو شبه الرحل. أي كل القبائل العربية في بلاد الشام. وقد قدمت الحكومة البيزنطية الإعانات السنوية لهم، إلا أنهم على الرغم من كل ذلك كانوا مقيدين بسلطة أشخاص معينين من قبل الحكومة البيزنطية المركزية[4].

إلا أن هذه المكانة لم تدم طويلاً، وأخذت الخلافات تدب بين الغساسنة والبيزنطيين وذلك لعدة أسباب منها ضعف مركز البيزنطيين في العالم بعد هزيمتهم أمام الفرس والأعباء المالية التي ترتبت على ذلك. بالإضافة إلى الخلافات الدينية التي جرت بينهم وبين البيزنطيين حول طبيعة السيد المسيح عليه السلام[5]. ونتج عن كل ذلك توقف الإعانات السنوية سنة (8هـ / 629م)، التي كان يقدمها هرقل لهم، بل وصل الأمر إلى أكثر من ذلك إذ فرضوا عليهم الضرائب[6]. وكل ذلك أدى إلى ملء نفوس الغساسنة والعرب سخطاً على الإدارة الرومانية.

وعلى الرغم من ألف سنة من الحكم الإغريقي والروماني لسورية، فقد احتفظت بشخصيتها الثقافية العربية المتميزة[7]. وكانت البلاد مقسمة في العصر البيزنطي ما قبل الفتح العربي الإسلامي إلى عدة مناطق إدارية هي :

---

[1] ـ سالم:(عبد الرحمن) ، المسلمون والروم في عصر النبوة،دار الفكر العربي، القاهرة، 1418هـ ـ 1997م، ص34، 37

[2] ـ أبو الفداء:(عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر ت732هـ / 1331م)، المختصر في أخبار البشر، دار المعرفة، بيروت، ج1، ص45

[3] ـ المسعودي: مروج الذهب، ج2، ص107

[4] ـ البطاينة: القبائل العربية، ص133 ـ ص134

[5] ـ البيطار: الرسول القائد، ص9

[6] ـ كيرك:(جورج): موجز تاريخ الشرق الأوسط، ترجمة عمر الأسكندري، دار الطباعة الحديثة، ص24 ـ فيغوليفسكيا:(نينا فكتورفنا)، العرب على حدود بيزنطة وإيران من القرن الرابع إلى القرن السادس الميلادي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص293

[7] ـ زكار:(سهيل)، اليرموك والفتح العمري للقدس، دار الفكر، بيروت، 1422هـ ـ 2002م ، ص74

1ـــ سورية: وقد انقسمت إلى قسمين:

أ ـــ سورية الأولى: تشمل شمال سورية من الساحل إلى الولاية الفراتية شرقاً، أما في الشمال فكانت تحدها ولاية كيليكيا الشمالية، وفي الجنوب تلاصقها سورية الثانية[1]، وشملت أنطاكيا وهي المركز، والسويدية وحلب واللاذقية وجبلة[2]، ومن مدنها قنسرين التي كانت مركزاً لإقامة الجند الموجودين في تلك المنطقة[3].

ب ـــ سوريا الثانية أو سورية المجوفة: ومركزها مدينة أفاميا، ويتبع لها حماة، والرستن، وشيزر[4]. وتمتد من الساحل عبر أواسط بلاد الشام إلى الصحراء تقريباً[5].

2ـــ فينيقيا وتشمل:

أ ـــ فينيقيا الأولى (الساحلية): تمتد على ساحل البحر المتوسط من مدينة بانياس إلى جنوبي جبل الكرمل، وعاصمة المقاطعة صور، وتضم طرابلس وبيروت وصيدا وعكا وقيسارية. وضمت في الداخل سلسلة الجبال الغربية.

ب ـــ فينيقيا اللبنانية (الداخلية): وكانت عاصمتها دمشق، ومن أهم مدنها حمص وحوران وبعلبك وسلمية وتدمر.

3ـــ فلسطين وتشمل:

أ ـــ فلسطين الأولى: وتشمل السهل الساحلي الممتد من جنوبي جبل الكرمل إلى جنوبي مدينة رفح، وكانت تشمل الجزء الجنوبي من وادي الأردن، ومركزها الإداري قيسارية، وأهم مدنها أريحا ونابلس وسبسطية ويافا وعسقلان، و في الداخل تشمل جبال نابلس والقدس والخليل[6]، وغزة[7].

ب ـــ فلسطين الثانية: وتشمل مرتفعات الجليل ومنابع نهر الأردن والمنطقة الشمالية من غور الأردن ومرتفعات الجولان، وتضم مدن بلا وجدارا(أم قيس حالياً)، وبيت راس والحصن وطبرية وصفورية واللجون وتل المتسلم[8]، وعاصمتها ومركزها مدينة بيسان[9].

1- زيادة:(نقولا)، التطور الإداري لبلاد الشام وبيزنطة والعرب(المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام)، عمان، 1986م ، ص118

2- (زكار): اليرموك، ص252

3- زيادة: التطور الإداري، ص118

4- زكار: اليرموك، ص252

5- زيادة: التطور الإداري، ص118

6- زيادة: التطور الإداري، ص119

7- زكار: اليرموك، ص253

8- زيادة: التطور الإداري، ص119

9- زكار: اليرموك، ص253

جـ ــ فلسطين الثالثة: تضم جزءاً كبيراً من شبه جزيرة سيناء، وكل المنطقة الواقعة إلى الشرق والجنوب من الجزء الأوسط للبحر الميت، ومنطقة بئر السبع والنقب والخالصة والبتراء ويوتابي، وقد كانت أيلة (العقبة) مقر حاكم الولاية.

4ــ العربية: وتشمل المنطقة الواقعة إلى الشرق من فلسطين الأولى والثانية، وإلى الجنوب من ولاية فينيقية اللبنانية، وإلى الشمال من وادي أرنون (الموجب)[1].

وقد كانت الغاية الأساسية من هذه التقسيمات إضعاف الأسر الحاكمة وتسهيل عملية جباية الضرائب وتوفير الحماية للمراكز المهمة فيها.

أضف إلى ذلك أن الإمبراطورية البيزنطية المسيطرة على بلاد الشام والتي كانت تدين بالمسيحية كانت تدور في تيار الصراعات والخلافات المذهبية حول طبيعة السيد المسيح، مما أدى إلى اتساع الخلافات ونشوب الحروب، هذا بالنسبة إلى أوضاعها الدينية، أما بالنسبة إلى أوضاعها السياسية فقد كانت أكبر قوة دولية في ذلك الوقت، ونظام الحكم فيها إمبراطوري، وفي تلك الأثناء لم يستطع الإمبراطور أن يكون بعيداً عن الخلافات المذهبية، فتحيز الإمبراطور إلى مذهب، دون آخر، فانشغلوا عن تصريف أمور الدولة، بالإضافة إلى أنهم انهمكوا في الملذات والشهوات. فكان المجتمع غارقاً في بحار الرذيلة، وانعدام القيم والمبادئ، الأمر الذي أثّر في حالتهم الاقتصادية فقد كانت سيئة جداً، إذ كانت طبقة الحكام مستحوذة على كلّ الموارد ولم تكتف بذلك بل فرضت ضرائب باهظة على الفلاحين والتجار[2].

---

[1]ـ زيادة: التطور الإداري، ص119

[2]ـ الزيادي:(محمد فتح الله)، ظاهرة انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منها، طرابلس، ليبيا، ط1، 1392هـ ، 1983م، ص121-124 -129

الفصل الأول

أسباب الفتوح وموقف القبائل العربية منها

أسباب الفتوح:

استقر النبي محمد صلى الله عليه وسلم في المدينة، وأسس الدولة، التي واجهت قوة قريش وخبث اليهود ومن دار في فلكهم وعمل على بناء القوة التي احتمى المسلمون بها، وردت عنهم الاعتداءات التي تعرضوا لها، وقضت على قوة الباطل التي أحاطت بالجزيرة من كل الجهات[1]، وأولى الجهات التي عملوا على الفتح فيها الجهة الشمالية. فما هي الأسباب التي دفعت الرسول صلى الله عليه وسلم للبدء بهذا النشاط؟.

سمحت تلك الفتوح للإسلام بالانطلاق كدين عالمي انتشرت معه وتنامت الحضارة المرتبطة بها في الوقت ذاته. و ظهر المجتمع العربي والإسلامي الذي امتد من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب.

إن مسألة الفتح الإسلامي تضع المؤرخ أمام تساؤلات مهمة، إجاباتها أثارت جدلاً وخلافاً بين المؤرخين، وتطاولاً من بعضهم لتزييف الأسباب والحقائق، بل ومحاولة تشويه الرسالة السماوية التي سعى النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى نشرها وتبليغها للناس كافة. إن تزييف الأسباب هو البداية والمدخل لتغيير الحقائق، ورفض بعضهم التسليم بشجاعة المقاتل العربي، ودور ذلك في نجاح الفتوحات خاصة بعد أن صقلها الإسلام وهذّبها:" زعموا أنّ العربي شجاع بل عللوا نجاح الفتوحات الإسلامية الأولى بصفاته ومزاياه. فلا يمكن القبول بهذا الرأي المفرط في المبالغة". وحاول بعضهم التأكيد على المكاسب المادية والغنائم باعتبارها الهدف الأوحد والأساس وراء الفتوحات وليس الحرص على نشر الإسلام والجهاد في سبيله يُقال:" ويبدو كما لو كان الخلفاء تعودوا تشجيع الكفار على البقاء على كفرهم حتى يتسنى جباية الضرائب منهم لبيت المال ومن المحقق أنّ عمراً كان يسترشد بهذا المبدأ الاقتصادي ..... إبقاء المؤمنين على إيمانهم وحمل الكفار على الدفع"[2].

و قد رأى كل من لوبون وبروكلمان أنّ السبب في توجيه المقاتلة المسلمين العرب إلى خارج شبه الجزيرة العربية راجع إلى رغبة الخلفاء في امتصاص حب العرب للقتال وإشغالهم في حروب خارجية من أجل الاستمرار بعاداتهم القديمة المتمثلة بالاستعداد الدائم للقتال ومن هنا كان لابد من محاولة نسيان الذكريات المؤلمة الناتجة عن الصراع المحتدم فيما بينهم برأيهما. فعلى

[1] - FOURACRE:(PAUL),THE NEW CAMBRIDGE MEDIEVAL HISTORY, VOLUME c.500- 700, PRINTED IN THE UNITED KINGDOM AT THE UNIVERSITY, CAMBRIDGE, 2005, P. 335

[2] - فوزي:(فاروق عمر)، الإستشراق والتاريخ الإسلامي، مؤسسة ياقوت، لبنان، 1998م، ط1، ص82. نقلاً عن انتوني

الرغم من أن بروكلمان يشير إلى دافع الجهاد أيضاً، ولوبون يشيد بموقف العرب المسلمين تجاه الأراضي المفتوحة بقوله:" لم يشهد التاريخ فاتحين أرحم من العرب"[1].

بينما رأى بعضهم ومنهم سورديل رأياً اقترب فيه من الواقع حيناً وابتعد أحيانا، إذ مهد لذلك بقوله:" إنَّ الإسلام وإن نزل بلسان العرب فإن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم قد سعى إلى نشره وإدخال باقي الشعوب فيه........ وبدا الإسلام منذ تأسيسه بشكل دين فاتح". إلا أنه قال:" إنما سبب الفتوح الرئيسي يكمن في السيطرة السياسية والتجارية انطلاقاً من المدينة". وهو سبب بعيد عن الواقع كما سيظهر لاحقاً. وعاد الكاتب إلى الصواب في أمر آخر من أمور الفتح والذي تمثّل بأسلوب الدعوة الذي اعتمد القوة في قتال الكفار حتى يفيئوا إلى أمر الله، باستثناء أهل الكتاب الذين يكتفى بأخذ الجزية منهم[2].

لذا لابد من إيضاح الأسباب التي دفعت المصطفى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم من بعده للقيام بفتح الشام، سواء أكانت أسباباً دينية، أم سياسية، أم اقتصادية، أم جغرافية، أم كل هذه الأسباب مجتمعة لأنها تكمل بعضها بعضاً.

أما الدينية، فقد تمثّلت بالرغبة في إظهار القوة ضد المشركين الذين يمارسون الضغط على المسلمين فبث فيهم الرسول صلى الله عليه وسلم حماسة دينية لتبليغ الدعوة الإسلامية ، لأن الدين الإسلامي دين عالمي للبشر كافة، وليس محلياً قاصراً على عرب شبه الجزيرة كما فهم بعضهم[3]،قوله تعالى:{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}[4].

أضف إلى ذلك أن وجود الدولتين البيزنطية والفارسية على أطراف شبه الجزيرة العربية كان بمثابة مانع يحول دون انتشار الإسلام فكان لابد من إزاحتهم ليسهل على العرب المسلمين نشر الدين الحنيف لإنقاذ البشرية مما كانت تعانيه من استغلال وعبودية، هذا من ناحية أولى، ومن ناحية ثانية فقد ابتدأ الرسول صلى الله عليه وسلم بالشام لمكانتها وما فيها من مقدسات ، فالقدس أولى القبلتين وثالث الحرمين، وإليها أسرى النبي محمد صلى الله عليه وسلم ومنها عرج إلى السماء، وفي إحدى قرى الشام ولد عيسى عليه السلام ونشأ[5]. فمن هنا كان الحرص على وضع الأماكن المقدسة تحت حكم العرب المسلمين إذ قيل:" الشام مباركة، وفلسطين مقدسة، وبيت المقدس قدس القدس"[6].

---

[1] ـ لوبون:(غوستاف)، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ص139 ـ بروكلمان:(كارل)، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه فارس والبعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، 1974، ص90

[2] ـ سورديل:(دومينيك)، الإسلام العقيدة السياسة الحضارة، ترجمة علي مقلد، دار التنوير للطباعة والنشر، لبنان، ط2، 1998،ص34

[3] ـ الشامي:(أحمد)، الخلفاء الراشدون، دار النهضة العربية، القاهرة، 1982م، ط1، ص72

[4]ـ سورة سبأ،الآية 28

[5] ـ عباس:(إحسان)، تاريخ بلاد الشام، عمان، 1410هـ ـ 1990م، ص180

[6] ـ ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج1، ص145

ومن هنا حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على توجيه سراياه وعقد المعاهدات والقيام بغزوات للشمال، وجاء الخلفاء فأكملوا ما بدأه عليه الصلاة والسلام، وما حملة أسامة بن زيد التي جهّزها الرسول صلى الله عليه وسلم لإنفاذها إلى جنوب الشام إلا دليل على رغبته في التوسع خارج الجزيرة ونشر الإسلام فيها. وليس معنى الجهاد مقاتلة الناس جميعاً كما يظن بعضهم، وذلك أخذاً بظاهر الحديث النبوي:" أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله". ولكن المعنى قاصر على محاربة المشركين الذين ليسوا من أهل الكتاب، والذين حاربوا الإسلام والمسلمين[1]، وغاية كل واحد منهم إحراز شرف الشهادة ونعيم الجنة، فكانت هي الدافع والقوة المحركة لهم[2]. فكان إيمانهم راسخاً بأن كل من مات مجاهداً في سبيل الله دخل الجنة حيث النعيم المقيم:{وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[3].

لقد اتسم الدين الإسلامي بالحرية والتسامح فلم يرغم أحداً على اعتناق الإسلام، فمن رغب البقاء على دينه من أهل الكتاب تُرك على أن يدفع الجزية [4]. وهذا ينفي ما حاول بعضهم نشره نشره وتأكيده على أن الإسلام إنما فُرِضَ على كل الأمم بقوة السيف، فامتاز بالتسامح في وقت الاضطهاد وبالحرية في وقت الإجبار. وما عهود الصلح التي كتبها المسلمون إلا تعبيرٌ صادقُ عن روح التسامح التي عمل بها المسلمون الفاتحون والتي سيتم الحديث عنها في موضعها[5].

وبذلك ظهر أثر الدافع الديني بوضوح في رفع المعنويات لدى العرب، وفي إيجاد رابطة سمت على الرابطة القبلية[6]. فأعطت حرارة الإيمان بعضهم قوة من نوع خاص. والعامل الديني حين يكون صادقاً، ومقترناً بالاستعداد والتدريب يكون فعالاً في معنويات الجند ويقود إلى النصر، فالإنسان الذي لم يدرك مدى تأثير هذا الدافع يستغرب اندفاع هؤلاء الناس للتجمع في معسكر المدينة بسرعة وعفوية على الرغم من حداثتهم في الإسلام، فشّكل الفوز بالجنة أكبر الأثر في التحفيز إلى الجهاد الذي كان بمثابة القوة المحركة لتلك الفتوح. وهو العامل الذي تجاهله المستشرقون، واكتفوا بالحديث عن الأسباب المتعلقة بتحقيق المصالح الدنيوية الظاهرة وهدفهم من كل ذلك إعطاء أصحاب الدعوة صورة مغايرة وصفات مختلفة عن صفاتها الحقيقية.

---

1 ـ الشامي: الخلفاء الراشدون، ص73

2 ـ الشجاع:(عبد الرحمن)، دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، دار الفكر المعاصر، صنعاء، 1419هـ ـ 1999م، ص343

3 ـ سورة آل عمران، الآية(169، 170)

4 ـ سالم:(عبد العزيز)، التاريخ السياسي والحضاري للدولة العربية، دار النهضة العربية، القاهرة، ص202

5 ـ سالم: مرجع متقدم، ص203

6 ـ ماجد:(عبد المنعم)، التاريخ السياسي للدولة العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1960م، ط2، ص166

وبذلك كان الدافع الديني عاملاً مساعداً على الفتح، وكان له أثر واضح في نفوس المقاتلين المسلمين، ودور بارز في تحقيق النصر.

كما شغلت العوامل السياسية دوراً بارزاً في توجيه العرب إلى عملية الفتوحات الإسلامية. إذ إنّ طرد الروم من الأرض العربية التي عاثوا فيها فساداً ونهبوا خيراتها شكل الهدف الأساسي للرسول عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم من بعده، إذ إنه لا يمكن توحيد هذه الأرض وهذه البلاد ما لم يتم الخلاص من كل أشكال الاحتلال للبلاد العربية. فكانت البداية في الأراضي المجاورة لشبه الجزيرة العربية. خاصة وأن البيزنطيين في بلاد الشام حاولوا قبل الإسلام التدخل في شؤون الحجاز بصور متعددة ولما أخفقوا أوعزوا إلى حلفائهم الأحباش القيام بالحملة المعروفة باسم حملة الفيل، وكل ذلك بغية السيطرة على الجهة الغربية من شبه الجزيرة العربية وبالتالي السيطرة على منافذ التجارة العالمية.

كما كان للعوامل الاقتصادية دورها في هذا التوجه، فحالة الضعف التي أصابت تجارة شبه الجزيرة بعد ظهور الإسلام نتيجة الحروب التي استمرت قرابة عشرة أعوام كان لها دورها[1]. ففي الوقت الذي كانت فيه الدولة الإسلامية بحاجة إلى اقتصاد قوي، بدأت الأوضاع الاقتصادية بالتراجع وما من شك في أن الوصول إلى بلاد الشام ذات الجنات والأعناب والزرع والنخيل والأخشاب والأعتدة القتالية سيوفر للجيش العربي الإسلامي قاعدة مادية كبيرة يستعين بها في فتوحاته المستقبلية [2]. خاصةً أن العرب اعتادوا منذ ما قبل الإسلام ارتياد أسواق الشام، بل وكانت هذه الأسواقُ عاملاً أساسياً من عوامل غنى الجزيرة. ولكن ما إن ظهرت الدعوة حتى بدأت بالتآمر ضد المسلمين وبدأ العمل على محاصرتهم وحرمانهم من هذه الأسواق التي كانوا بأمس الحاجة إليها؛ إذ منع هرقل التجار المسلمين من الوصول إليها كونه القوة المسيطرة على بلاد الشام. بالوقت الذي سمح فيه لقريش والمشركين ارتياد أسواق بلاد الشام الأمر الذي يوحي بأنه قد يكون هناك تحالفاً بين المشركين وقريش والبيزنطيين لحصار المسلمين أراد الرسول صلى الله عليه وسلم كسره.

إلا أنّ هذا لا يعني أنّ الأوضاع الاقتصادية بالنسبة إلى الحجاز كانت سيئة، فقد منحها موقعها في منتصف الطريق التجاري الذي يصل بين الشام واليمن السيطرة عليه، مما جعلها ذات نفوذ اقتصادي قوي. و هذا ينفي ادعاءات المستشرقين ومنهم كايتاني ولاندو، الذين جعلوا منه سبباً وحيداً وموجِّهاً، إذ لم يكن في شبه الجزيرة جفاف أو حتى جوع أو أي أزمة اقتصادية دفعت

[1] ـ الشامي: الخلفاء الراشدون، ص82
[2] ـ وتر: الريادة، ص144

بسكانها للخروج[1]. وهي بذلك لم تكن تحرك من التحركات السكانية المتأخرة التي اعتادت على قذفها شبه الجزيرة العربية الجدباء إلى الهلال الخصيب. وارنولد توماس يقول:" يعتبر توسع الجنس العربي على أصح تقدير هجرة جماعية نشيطة قوية البأس دفعها الجوع والحرمان إلى أن تهجر صحاريها المجدبة وتجتاح بلاداً أكثر خصباً كانت ملكاً لجيران أسعد حظاً منهم"[2].

وأهداف هذا القول واضحة تتمثل بتشويه حركة الفتوح وتزييف أهدافها الحقيقية، والطعن بالإسلام ذاته، وقد سعى هؤلاء إلى استغلال ما ذكره البلاذري في كتاب أبي بكر إلى المسلمين من أجل التجهز لفتح الشام:" فكتب إلى أهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب بنجد والحجاز، يستنفرهم للجهاد ويرغبهم فيه وفي غنائم الروم فسارع الناس إليه من بين محتسب وطامع، وأتوا المدينة من كل أوب"[3]. وهنا أخذوا عبارة مبتورة من النص وأقاموا عليها استنتاجاتهم. وعلى الرغم من أنّ المؤرخ ذا المنهج السليم لا يأخذ إلا النصوص الصريحة الواضحة[4]. إلا أنّ كل منصف يرفض هذا الإدعاء، فبواعث الحرب في الإسلام معنوية تهدف إلى نشر الحق ومحاربة الأذى والعدوان، فكيف لإنسان أن يصدق بأن فرداً ما يضحي بحياته ومصير أسرته في سبيل غنائم مادية غير مضمونة، ولو كان هذا صحيحاً فلماذا لم يصل الأعداء إلى تلك النتائج التي وصل إليها الجيش العربي الإسلامي؟ هذا من جهة. ومن جهة أخرى لا يمكن للعامل الاقتصادي أن يؤدي إلى النتائج التي انتهت بها معارك الفتوح لولا وجود دوافع أسمى من ذلك الدافع. فبذلك كان العامل الاقتصادي وسيلة وعاملاً مساعداً، ولم يكن باعثاً ولا دافعاً[5].

وإن حصل تعليق على تقاسم الغنائم بعد انتصارات المسلمين، فلم يكونوا هم الوحيدون الذين اقتسموا أموال أعدائهم عند الانتصار بل هذا شأن كل منتصر. وإذا تم ذكر الغنائم في كتاب أبي بكر لاستنفار القبائل، فهو أمر طبيعي لأن النتائج المادية لابد من وجودها ولا يمكن الاستغناء عنها وإغداق العطاء للذين أسلموا حديثاً يدل على حكمة الرسول صلى الله عليه وسلم في سعيه لإشعارهم بفضل دخولهم الإسلام من الناحية المادية، لأن بعض النفوس تركز على مسألة العامل المادي، فالحكمة أن تلبى تلك الحاجة، وخاصة أن المحاربين العرب وحتى خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه كانوا يعتمدون على الغنائم فلم يكن للجند عطاء على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وعلى أيام الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

---

1 ـ سالم: التاريخ السياسي، ص200

2 ـ توماس:(ارنولد) ، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم وآخر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1970م، ط3، ص64

3 ـ البلاذري: فتوح البلدان، ج1، ص128

4 ـ شجاع: دراسات، ص338

5 ـ شجاع: مرجع متقدم، ص339

إلى جانب هذه العوامل كان للجغرافية دورها في اختيار الشام دون غيرها، إذ إنّ الرسول صلى الله عليه وسلم رأى أنّ إقدام جيوشه الأولى الداعية يجب أن لا تطأ أرضاً غريبة وبعيدة ومجهولة، فقد سلكوا تلك الطرق ووصلوا تلك البلاد تّجاراً، كما أنّ هذه البلاد هي الأقرب إلى الجزيرة العربية[1]، وما بادية الشام إلا امتداد طبيعي لصحراء النفوذ، ولا يوجد بينها أي فاصل طبيعي. كما أنه كانت قد سكنت جنوبي الشام قبائل عربية يمنية قبل ظهور الإسلام كما سلف القول، وكانوا على اتصال اجتماعي واقتصادي وسياسي في بعض الأحيان مع عرب الجزيرة[2]، ومن هنا لا يقبل العامل الاقتصادي كعامل ودافع مستقل للفتوح.

ومنهم من جعل من طبع العرب في حب القتال ومحاولة الخليفة أبي بكر تسخيرها لنشاط خارجي خوفاً من الفتن والثورات و ملء الفراغ الذي سيؤدي إلى التفكير للخروج عليه[3]، سبباً آخر لهذه الفتوح. ولو صح ذلك لندب أبو بكر من سلف له أن أرتد للمشاركة في الفتوح للخلاص من المشكلات التي يثيرونها.

ومنهم من جعل من الدافع القومي الدافع الأول للفتوح الإسلامية:" إن الفتح كان حركة قومية وإن الفوز فيه كان للقومية العربية لا للدين الإسلامي"[4]. وغاية هذا الادعاء معروفة تتمثل بحصر الإسلام بالعرب، إلا أن موقف عرب الشام في بداية الفتح أظهر عكس ذلك، إذ إنّ الكثير من القبائل وقفت إلى جانب الروم ضد العرب، وهذا ما ينفي الادعاء.

ومن الأسباب كذلك دفع الظلم ورد أي اعتداء على الإنسان من جميع الجوانب، والدفاع عن النفس ونصرة المظلومين.

ومنهم من جعل من ضعف الدولتين البيزنطية والساسانية نتيجة الحروب بينهما، السبب في التفكير بالفتوح[5]. وهم بذلك يغفلون توحد الفرس والروم والعرب المشركين والنصارى ضد المسلمين، كما يغفلون قوة مقاومة كل من الفرس والروم لتحركات جيوش المسلمين. ومن هنا فهذا السبب بعيد كل البعد عن الواقع.

وجعل بعضهم قتل مبعوثي الرسول صلى الله عليه وسلم سبباً من أسباب التوجه لفتح الشام. وطبعاً لا يمكن عد ذلك سبباً من أسباب الفتوح لأنه مجرد أن يتم إرسال الرسل يعني ذلك البدء بهذا النشاط وبالتالي تكون الأسباب قد توفرت سلفاً، وهنا يمكن عدّ قتل مبعوثي الرسول صلى

---

[1] ـ شكري:(فيصل)، حركة الفتح العربي الإسلامي في القرن الأول، دار العلم للملايين، بيروت، 1982م، ط6، ص17

[2] ـ سالم: التاريخ السياسي، ص200

[3] ـ حسن:(حسن إبراهيم)، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1964م، ص214، الشجاع، دراسات، ص340

[4] ـ حتي، جرجي، جبور:(فيليب، ادوارد، جبرائيل)، تاريخ العرب المطول، ترجمة ادوارد جرجي وجبرائيل جبور، دار الكشاف، بيروت، 1965م، ص197

[5] ـ سالم: التاريخ السياسي، ص213

الله عليه وسلم أنه من أحداث الفتوح ذاتها. فلم يكن قتل شرحبيل بن عمرو الغساني للحارث بن عمير الأزدي سبباً ودافعاً وحيداً لغزوة مؤتة، كما لم تكن غاية هذه الفتوح الثأر لشهداء ذات أطلاح. وبالتالي تكون فكرة الثأر لقتل مبعوثي الرسول صلى الله عليه وسلم بعيدة كل البعد من أن تكون هي من أسباب الفتوح.

والإنصاف يقتضي القول بأن الاستناد إلى سبب واحد من أسباب التفكير بفتح الشام، وتجاهل الأسباب الأخرى فيه تشويه للحقيقة التي ينبغي أن تقدم لدارسي التاريخ، إذ كان لكل واحد منها دوره كبر أم صغر، فتكاملت وأدت مجتمعة بالمسلمين لبدء هذا النشاط الذي كان مفاجئاً لكل شعوب الأرض؛ لذلك لا يصلح أحد الأسباب أن يكون منفرداً في مناقشة حركة الفتوح التي قد تجمع بين كل الأسباب وعلى درجات مختلفة من حيث الأهمية، فالادعاء أن المقاتل العربي المسلم كان قد توجّه للقتال هرباً من الجوع لا يعبر عن واقع يختلف تماماً عن هذا التصور[1]. ولذلك فإن الاعتماد على دافع محدد لمناقشة حركة الفتوح لن يؤدي إلى أية نتيجة، لأن كل العوامل السالفة أسهمت في تهيئة الأجواء المناسبة لحركة الفتوح ولتحقيق الانتصارات التي جرت في لحظة تاريخية محددة، إلا أنّه من الطبيعي أن تخلّف حركة الفتوح وراءها عاصفة من الجدل وبحراً واسعاً من التأويلات وذلك نتيجة السرعة المذهلة التي تم فيها للعرب المسلمين القضاء على سيطرة أعظم إمبراطوريتين في تلك البلاد على الرغم من حداثة هذه القوة وبساطتها مقارنة بقوة هاتين الإمبراطوريتين، ولعل الجهاد كان في مقدمة الحوافز التي دفعت تلك الجموع إلى الفتوح وكان لها أكبر الأثر في تحقيق كل هذه النجاحات.

وعلى هذا الأساس فإن حركة الفتوح والنجاحات التي حققتها لم تكن بفعل قوة غير مرئية ولم تكن هجرة جديدة ولم تكن بحثاً عن وضع اقتصادي أفضل، وإنما كانت حركة تعددت أسبابها وظهر فيها أثر العقيدة الجديدة على نفسية المقاتل المسلم، وكان لها دورها في كل معركة وكل مواجهة بل وفي كل موقف. والدليل على ذلك الانتصارات التي حققها الجندي المسلم على الجندي الرومي على الرغم من قلة أعدادهم وتواضع تجهيزاتهم وأسلحتهم إذا ما قورنت بما لدى الجندي الرومي. العقيدة التي جعلت المقاتل المسلم يتفوق على كل هذه الإعدادات بل جعلته يتفوق حتى على نفسه ليخوض تلك المعارك، وبعد كل هذا العرض يمكن القول إن هذه الفتوح غلب عليها طابع نشر الدين والدفاع ورد الاعتداء والانتصار للمظلومين، وذلك بعد أخفاق كل المحاولات التي حاول الكثير من خلالها إبعاد قارئ التاريخ عن هذه الحقيقة.

---

[1] ـ بيضون:(إبراهيم) ، من دولة عمر إلى دولة عبد العزيز، دار النهضة العربية، بيروت، 1411هـ - 1991م، ص39، 40

موقف القبائل العربية من الفتوح:

إن معظم القبائل العربية في بلاد الشام تطلعت إلى المخلص من حكم الروم نتيجة الضغوطات التي مارسها الروم عليهم بسبب الخلاف المذهبي. إذ إنّ معظم أهل الشام يدينون بالمذهب اليعقوبي المخالف لمذهب كنيسة القسطنطينية، الأمر الذي جعل صراعاً مذهبياً ينثر ذراه في بلاد الشام، وتدخل أباطرة بيزنطة في هذا الصراع، وعدوا المذهب اليعقوبي كفراً وإلحاداً، فأمعنوا في التنكيل بالأهالي[1]، وعلى الرغم من ذلك فقد وقف العرب في بلاد الشام إلى جانب الروم في الكثير من غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم أبرزها غزوة مؤتة[2]، وباقي الغزوات، وظهر موقف بعض القبائل من الدعوة الجديدة منذ البداية، إذ إنّ الحارث بن عمير الأزدي مبعوث الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أمير بصرى قُتل على يد شرحبيل بن عمرو الغساني كما سلف، وهذا دليل على عدم تقبّلهم الدعوة في بدايتها، كما أنّ الحارث بن أبي شمر الغساني هدّد بإعلان الحرب على المدينة بعد أن أرسل إليه النبي محمد صلى الله عليه وسلم رسولاً يدعوه إلى الإسلام وما حدث في ذات أطلاح ما هو إلا تعبير من قبيلة قضاعة على رفض الدعوة الإسلامية.

والأدلة التي تؤكد أنّ عرب الشام كانوا قد اتخذوا موقفهم في المواجهة ورفضوا التعايش السلمي مع الدولة الإسلامية كثيرة[3]، بل كان موقفهم عدائي أكثر من الروم أنفسهم، إذ كان لهم دورهم في كل مواجهة، إلى أن أصبحت الغلبة للمسلمين، وستكون تلك الانتصارات بداية لتغير المواقف.

فمثلاً كانت غالبية قبيلة جذام ضد المسلمين أيام الرسول صلى الله عليه وسلم باستثناء بعض البطون الصغيرة التي اعتنق أفرادها الإسلام مثل فروة بن عمرو الجذامي عامل الروم الذي كان يسكن معان وذلك في ذي الحجة سنة (6هـ / 627م) الذي أرسل مع مسعود بن سعد الجذامي كتاباً إلى الرسول صلى الله عليه وسلم معلناً فيه إسلامه وأرفقه بهدية له فقبلها الرسول صلى الله عليه وسلم[4]، ولأجل ذلك قتله الروم[5]، ومنهم كذلك رفاعة بن زيد الجذامي الضبيبي الذي قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في هدنة الحديبية وأسلم، وكتب رسول الله صلى الله عليه

---

1 - سالم: التاريخ السياسي، ص212

2 - الطبري:(أبو جعفر محمد بن جرير ت 310هـ / 922م)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف،ط2، ج3، ص37

3 - سالم: المسلمون، ص82

4 - ابن حجر العسقلاني:(أحمد بن علي بن محمد المشهور ت 852هـ / 1448م)، الإصابة في تمييز الصحابة،تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت ، ط1 ، 1412هـ، ج6، ص99

5 - ابن هشام:(أبي محمد عبد الملك بن هشام المعافري الحميري ت213هـ / 828م)، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1375هـ - 1955م، ق2، ص176

وسلم كتاباً إلى قومه وفي الكتاب:" بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد رسول الله لرفاعة بن زيد، إني بعثته إلى قومك عامة ومن دخل معهم، أدعوكم إلى الله وإلى رسوله، فمن أقبل فمن حزب الله وحزب رسول الله ومن أدبر فله أمان شهرين، فلما قدم رفاعة على قومه أجابوه وأسلموا".

وفي الوقت نفسه حدثتنا المصادر أنّ قوماً من جذام اعتدت على مبعوث رسول الله صلى الله عليه وسلم دحية بن خليفة الكلبي في طريق عودته من الديار الشامية في تجارة له في مهمة للرسول صلى الله عليه وسلم فأرسل الرسول زيد بن حارثة لتأديب المعتدين،[1]. كما وقف قسم كبير منهم إلى جانب هرقل في مؤتة[2]، إذ إنّ المعركة كانت في ديار جذام التي امتدت من تبوك إلى جبال حسمى في شمال الحجاز إلى الشمال الشرقي، ومنها إلى وادي عربة حتى البحر الميت إلى البلقاء، ومن أيلة شمالاً إلى ينبع جنوباً على طول الساحل[3]. كما أن سرية ذات السلاسل كانت موجهة لجمعٍ من قضاعة أرادوا الهجوم على المدينة[4]، وكان من بين القبائل التي ارتدت عن الإسلام بنو الضبيب وذلك بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم[5]، ويظهر موقفهم بوضوح عند فتح قيسارية حيث أرسل معاوية بن أبي سفيان قائد الفتح باثنين من جذام يحملان بشرى الفتح للخليفة عمر بن الخطاب[6]، وبنو جذام الذين حاربوا المسلمين في مؤتة وتبوك واليرموك هم الذين عاونوهم بصدق في بقية معارك الفتح بعد إسلامهم، وكانت قبائل جذام أكثر القبائل العربية إسلاماً في العهد النبوي. ومن هنا فقد كان دور جذام سلبياً مع بعض المواقف الإيجابية الفردية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وأبي بكر الصديق رضي الله عنه، بينما كان دورهم إيجابياً وفعالاً في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وما المعارك التي قامت في الداثن و أجنادين واليرموك وغيرها إلا دليلاً على ذلك.

أما القبيلة التي احتلّت المرتبة الثانية بين القبائل الشامية فيما يخص اعتناقها الإسلام في حياة النبي صلى الله عليه وسلم فهي قبيلة لخم، وهذا الكلام لا يعني أن القبيلة بأكملها اعتنقت الإسلام وإنّما بعض أفرادها وبطونها، إذ أتى وفد من الداريين إلى الرسول صلى الله عليه وسلم من أجل أن يمنحهم أرضاً كانوا يسكنونها، وفي ذلك دلالة على أنهم وثقوا في نبوة الرسول صلى الله

---

[1] ـ ابن سيد الناس:(فتح الدين أبو الفتوح محمد بن محمد ت734هـ / 1333م)، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، دار الجيل، بيروت، 1974م، ط2 ، ج2، ص101 ـ ابن كثير:(أبي الفداء إسماعيل ت 747هـ / 1346م)، البداية والنهاية، تحقيق مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت،1396هـ ، 1971م، ج3، ص339 ـ

[2] ـ الواقدي:(محمد بن عمر ت 207هـ / 823م)، المغازي، تحقيق مارسدن جونس، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت، ج2، ص760 ـ ابن هشام، السيرة، ج2، ص375 ـ ابن الأثير، الكامل، ج2، ص112- ابن كثير، البداية، ج3، ص277

[3] ـ الحمارنة:(صالح)، دور جذام في الفتوح الإسلامية، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، نيسان ، تموز، 1985م، عدد19-20، ص156

[4] ـ الواقدي: المغازي، ج2، ص770 ـ ابن سيد الناس: ج2، ص157- ابن كثير: البداية، ج3، ص311

[5] ـ الحمارنة:(صالح)، الناس والأرض، دار الينابيع للنشر، عمان، 1991، ص43

[6] ـ الحمارنة: الناس، ص43

عليه وسلم وأنّ الله سيفتح الشام للمسلمين[1]، كما صالح الرسول صلى الله عليه وسلم بطنٌ آخر من بطون لخم وهم بنو حدس بن أريس بن إراش بن جزيلة بن لخم وهم بطنٌ ضخم[2]، كانوا يسكنون الشام وكتب لهم كتاباً فيه:" لمن أسلم من حدس من لخم وأقام الصلاة وأتى الزكاة وأعطى حظ الله وحظ رسول الله صلى الله عليه وسلم وفارق المشركين فإنه آمن بذمة محمد ومن رجع عن دينه فإن ذمة رسوله منه بريئة ومن شهد له مسلم بإسلامه فإنه آمن بذمة محمد وأنه من المسلمين"[3]. إذ كانت بنو حدس من بين عدد من القبائل أتت إلى النبي صلى الله عليه وسلم في سنة الوفود، فأحسن استقبالهم وعلَّمهم وبعثهم دعاة إلى أقوامهم وجعل منهم وسيلة بلاغية تعليمية، وممّا يدل على ذلك ما روي عن مالك بن الحويرث إذ قال:" أتيت النبي صلى الله عليه وسلم في نفر من قومي، فأقمنا عنده عشرين ليلة، وكان رحيماً رفيقاً، فلما رأى شوقنا إلى أهالينا قال:" ارجعوا فكونوا فيهم وعلموهم وصلّوا، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم وليؤمكم أكبركم". ففي هذا الحديث دلالة صريحة على اتخاذه صلى الله عليه وسلم الوفد وسيلة تعليمية حيث كلّفهم تعليم أهاليهم فقال:" فكونوا فيهم وعلموهم"[4].

أما القبيلة التي احتلت المرتبة الثالثة بعد جذام ولخم فهي طيء، إذ جاء في سنة (10هـ / 631م) إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وفد ومن بينهم زيد الخيل فأسماه الرسول صلى الله عليه وسلم زيد الخير بعد أن أسلم وحسن إسلامه وإسلام من معه[5]، أما الشخص الآخر الذي اعتنق الإسلام فهو عدي بن حاتم وذلك بعد إطلاق سراح الرسول صلى الله عليه وسلم لأخته التي أسرت، وكان لذلك أثره في إسلام عدد كبير من طيء فلم يرتدوا[6]، كما أنهم كانوا أدلاء للمسلمين ومنهم دليل جيش خالد بن الوليد رافع بن عميرة الطائي[7]. كما أنّ الأنباط العرب كانوا حاقدين على الروم الذين قضوا على سلطانهم لذلك رأوا في إخوانهم عرب الجزيرة منقذين لهم فعملوا على مساعدتهم والتجسس لصالحهم، ونتيجة لاستمرار تجارتهم مع المدينة تعرضوا للمضايقات من قبل حلفاء الروم، وما حدث في دومة الجندل دليل على ذلك[8].

---

[1] ـ دسوقي: القبائل العربية في بلاد الشام، ص113

[2] ابن حزم:(أبي محمد علي بن سعيد ت 456هـ / 1063م)، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، مصر، 1962م ، ج1، ص173 ـ القلقشندي:(أبي العباس أحمد بن علي ت 821هـ / 1418م)، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، بغداد، 1958م، ج1، ص78

[3] ـ ابن سعد:(أبي عبد الله محمد ت 230هـ / 844م)، الطبقات الكبرى، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968م، ط1، ج1، ص266 ـ الحيدرآبادي:(محمد حميد الله)، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار الإرشاد، بيروت، 1389هـ ـ 1969م،ط3، ص99

[4] ـ المطلق:(إبراهيم بن عبد الله)، التدرج في دعوة النبي، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، 1417ه، ط1، ج1، ص65

[5] ـ ابن الأثير:(عز الدين أبي الحسن علي بن محمد ت 630هـ / 1232م)، أسد الغابة، دار الفكر، بيروت، 1409هـ ـ 1989م ، ج2، ص149

[6] ـ ابن هشام: السيرة ، ق2، ص580

[7] ـ البلاذري: فتوح البلدان، ص135

[8] ـ الحمارنة: الناس، ص10

كما ذكرت المصادر أنّ وفداً مكوناً من ثلاثة أنفار من غسان قدموا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وذلك في شهر رمضان سنة (10هـ / 631م) وقد اسلموا وحاولوا إقناع قومهم بالإسلام من دون أية نتيجة ولذلك كتموا إسلامهم، وبالمقابل عمل بعضهم كجواسيس لصالح الروم ومن بينهم ابن هزارف[1]، الذي أرسله وردان قائد جيش الروم في أجنادين[2]. إذ إنّ عرب الشام لم يتصوّروا أن يكون الفتح استقراراً للمنطقة لذلك لم ينضمّوا للعرب، إلا أنّ سلوك العرب المسلمين النموذجي في الفتح وحسن تعاملهم مع الناس جعلهم أقرب إلى العرب من الروم[3]، فمن صور حسن المعاملة الكتب التي كتبها النبي محمد صلى الله عليه وسلم أو قواده لغير المسلمين من أجل تأمين حريتهم الدينية[4]. أضف إلى ذلك أنّ عرب الشام هم بنو جلدة عرب الجزيرة.

وفي تلك الأثناء استمرت العلاقات التجارية بين الشام وبلاد العرب وظلت القوافل التجارية تروح وتغدو بين الطرفين[5]. وعندما وصل المسلمون إلى الشام كانت قبيلة غسان تتزعم القبائل العربية وملكهم جبلة بن الأيهم، وقد سعى العرب إلى استمالتهم لإحداث شرخ في جبهة الروم، وكان الاتصال الأول بينهم قد تمّ فور وصول أبي عبيدة بن الجراح إلى الشام في جيوش المسلمين، بينما كان جبلة بن الأيهم الغساني ينزل بالغوطة[6]على رأس أربعين ألفاً من العرب المتنصرة، فأرسل أبو عبيدة بن الجراح هشام بن العاص أخو عمرو إليه لدعوته إلى الإسلام أو نصرة أبناء عمومته من أزد اليمن أو بأقل الأمور عدم التدخل لصالح الروم فدخلوا إليه، ودعاه هشام إلى الإسلام إلا أن جبلة رفض، ومن ثم ربط استجابته باستجابة هرقل أولاً، كما أنّ الروم جعلوا من جبلة حلقة الاتصال بينهم وبين المسلمين لردهم عن الشام بأقل الخسائر، وذلك بعد أخفاق المفاوضات بينهما كما سيُذكر لاحقاً، مستخدمين بذلك أسلوب الحيلة ومحاولين استغلال تأثير رابطة الدم بينهم، إلا أن خالد بن الوليد وأبو عبيدة بن الجراح أدركوا ذلك فأرسلوا رجلاً من الأنصار وهو عبادة بن الصامت الخزرجي، الذي حاول إقناعه بدخول الإسلام هو وقومه فرفضوا[7]. وقاتلوا إلى جانب الروم في اليرموك، ولكنّه عاد وانحاز إلى المسلمين قائلاً:" أنتم أخواننا وبنو أبينا"[8]. بالإضافة إلى أنّ تغلب قاتلت مع العرب سنة (13هـ / 634م) قائلين:"

[1] ـ ابن هزارف: من قضاعة من تزيد ابن حيدان(الطبري: تاريخ ، ج2، ص610)
[2] ـ الطبري،تاريخ، ج3، ص417، 418
[3] ـ عباس: تاريخ بلاد الشام، ص183
[4] ـ ماجد: التاريخ السياسي، ص163
[5] ـ دسوقي: القبائل العربية في بلاد الشام، ص68
[6] ـ غوطة دمشق
[7] ـ ابن الأعثم الكوفي:(أبي محمد أحمد ت 314هـ / 926م)، الفتوح، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، ط1، ج1، ص103،426
[8] ـ البلاذري: فتوح ، ص141

نقاتل مع قومنا"[1]. وبذلك كانوا بحسب موقفهم من الفتوح في ثلاثة أقسام قسمٌ كان على دين العرب (المسلمين) وكانوا معهم وهم على أطراف الشام حيث مواطن لخم وجذام[2] .

أما القسم الثاني: فهم العرب النصارى الذين كرهوا قتال الروم بسبب رابطة الدين وقتال العرب بسبب رابطة القربى فاعتزلوا القتال حتى تتضح النتائج وسموا بمسالمة الشام[3].

ولكن أفضل ما قدموا للمسلمين كان في مجال التموين، فقد صالح أهل بصرى المسلمين على تقديم الحنطة والزيت والضيافة لمدة ثلاثة أيام، وقدّم أهل حمص العلف والطعام[4]، وأما النبط فقد صالحوا المسلمين على أن:" يصيب المسلمون من ثمارهم وتبنهم". كما وعمل العرب المتنصرة كأدلاء للمسلمين في المناطق التي كانوا يجهلونها[5].

أما القسم الثالث : الذين كانوا على النصرانية ولهم نية فيها فوقفوا إلى جانب الروم مجبرين لكن الأحداث المستجدة غيرت موقفهم[6]. وخاصة أنهم رأوا حاكماً لا ينحاز لأي من الجماعات المسيحية المختلفة، فبدأت مقاومتهم تضعف تدريجياً كلما اتجهت المعارك إلى شمال سورية.

أما عن موقف اليهود الذين كانوا في بلاد الشام فقد رحبوا بمجيء الفتح الإسلامي لبلاد الشام، إذ تطلعوا إلى معاملة عادلة من المسلمين الفاتحين بل ويكفيهم أن يتخلصوا من اضطهاد البيزنطيين، ليتعاونوا مع الفاتحين المسلمين كجواسيس لهم فقد ذكر البلاذري:" أن أحد اليهود كان دليلاً للمسلمين عند فتح قيسارية"[7]. إلا أنّ ذلك لم يمنحهم مكانة متميزة عند المسلمين، ونستدل على ذلك من نص العهدة العمرية التي سيتم الحديث عنها لاحقاً، إذ ورد فيها شرط بأن لايسكن يهودياً في بيت المقدس[8]. ولعل ذلك يعود إلى طبيعتهم الخائنة، إذ إنّهم تحالفوا مع الفرس ضد الروم قبيل دخول الإسلام لبلاد الشام[9].

ومن هذا يظهر أنّ الإسلام بدأ يأخذ مداه لدى بعض القبائل والأفراد على الرغم من اعتراض بعضهم ورفضه له، بل وتآمر عدد منهم ووقوفهم إلى جانب الروم، وشكّل إسلامهم المقدمة لإسلام عرب الشام، فسماحة الإسلام والمسلمين وضحت الفرق بينهم وبين الروم المحتلين الذين عانوا من حكمهم الكثير من الويلات ومنها سوء الأحوال الاقتصادية لإرهاقهم بالضرائب وما كانت تكابده من سياسة التمايز الطبقي والاضطهاد الديني، الأمر الذي دفعهم في النهاية إلى

---

[1] ـ الطبري:تاريخ، ج3، ص383

[2] ـ الأزدي:(محمد بن عبد الله ت 231هـ / 845م)، فتوح الشام، تحقيق عبد المنعم عبد الله عامر، مؤسسة سجل العرب، ص43،44

[3] ـ الدياربكري:(حسن بن محمد بن الحسين ت 966هـ / 1558م)، تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، مؤسسة شعبان، بيروت، 1970م، ج2، ص168

[4] ـ البلاذري: فتوح، ص119- 131- 137

[5] ـ ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج1، ص181

[6] ـ الأزدي: فتوح الشام، ص168

[7] ـ البلاذري: فتوح، ص143

[8] ـ الطبري: تاريخ، ج3، ص609

[9] ـ الشريف:(حامد محمد الهادي)، أحوال غير المسلمين في بلاد الشام حتى نهاية العصر الأموي، عمان، 2007م، ص35

إعلان ثورتها ثم الوقوف إلى جانب المسلمين في أثناء معاركهم فكانوا خير عون لهم في إحراز النصر.

وقد حاول بعضهم ومنهم ألبرت حوراني تفسير قبول سكان بلاد الشام لحكم العرب إذ قال:" يكمن في عدم مبالاتهم بمن يحكمهم طالما كانوا آمنين يعيشون في سلام ويدفعون ضرائب معتدلة"[1]. والحقيقة ليست كذلك إذ إنّ الأثر الأكبر كان يكمن في تعاليم الإسلام ذاتها التي جذبت جذبت أغلب سكان بلاد الشام وجعلتها تدخل تحت حكم العرب.

وبعد تغير المواقف شعر الروم بالخطر، لذلك بدؤوا وحلفاؤهم بالتحرك، وتحركهم لم يقتصر على مواجهة جيوش المسلمين ودعاتهم بل وصل بهم إلى حد إثارة بعضهم لسكان المدينة، إذ وصل أحد الأنباط وهو رسول من ملك غسان إلى كعب بن مالك ـــ أحد الثلاثة المتخلّفين عن جيش العسرة ـــ يدعوه للحاق بهم إلا انه رفض ذلك[2]، وفي ذلك دلالة على إتباعهم لسياسة جديدة تتمثل بمحاربة الرسول صلى الله عليه وسلم من الداخل وفي أصحابه، ومحاولة تمزيق الجبهة الإسلامية الداخلية وذلك عن طريق تشجيع حركة الانشقاق في الصف الإسلامي والانضمام إليهم، ووضع حد لانتشار الإسلام بين صفوف عرب الشام[3]، ولكن باءت محاولاتهم محاولاتهم بالإخفاق فقد اتسم المجتمع الإسلامي بالوحدة والتماسك، واستمر الإسلام بالانتشار، واقتصر نجاحهم على بعض المنافقين ومنهم علقمة بن علاثة وأبو عامر الراهب.

---

[1] ـ حوراني:(ألبرت)، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيل صلاح الدين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997، ج1، ص61

[2] ـ البخاري:(محمد بن إسماعيل أبو عبدا لله الجعفي ت256هـ / 869م)، صحيح البخاري، تحقيق مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير ، بيروت، 1407هـ ـ 1987م، ط3، ج4، رقم4156

[3] ـ سالم: المسلمون، ص126

الفصل الثاني

بدايات الفتوح :

- إرسال الرسائل بالدعوة إلى الإسلام
- غزوة مؤتة(8هـ / 629م)
- غزوة ذات السلاسل(8هـ / 629م)
- غزوة تبوك(9هـ / 630م)

بعد أن أصبح الإسلام قوة فكر الرسول صلى الله عليه وسلم في توسيع الرقعة الجغرافية لأنه بعث للناس كافة فاتجهت أنظاره إلى الشمال، إذ كانت المنطقة الشمالية من الجزيرة العربية موضع اهتمام الإمبراطوريتين العالميتين بيزنطة وفارس منذ زمن بعيد، وبالوقت نفسه هي الآن موضع اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث اتخذت الشام حيزاً بارزاً في السياسة الخارجية لدولة المدينة، فأخذ الاحتكاك في ذلك الوقت أشكالاً مختلفة، فبحسب المعطيات التاريخية أن دعوة الناس إلى الإسلام لم تكن وقفاً على الجهود الدبلوماسية فقط بل كانت البعوث العسكرية مجالاً آخر من مجالات التبادل والاتصال الفكري، وأعطت الدبلوماسية والجهود العسكرية نتائج ملموسة في هذا الجانب، وهذا النشاط حقق الأهداف المطلوبة من بدايته فعندما علم الرسول صلى الله عليه وسلم أنّ جمعاً كبيراً يريد أن يدنوا من المدينة[1]، غزاهم في دومة الجندل[2]، وكانت أول اهتمام للرسول صلى الله عليه وسلم بالشام، وقد سكنها بنو كلب[3]. وقد ذكرت المصادر أسباباً متعددة للغزوة منها تأمين الطريق إلى دومة الجندل كسوق تجارية لهم وحرمان قريش من هذا السوق[4]؛ لاسيما أنّ المدينة تستمد حاجتها من المواد الغذائية منها[5]، و كان ذلك بعد السماع بخبر تجمع القبائل للزحف باتجاه المدينة. طبعاً تحرك هذه القبائل يدل على بداية اهتمام الروم بالقوة الناشئة، وأن المسلمين وقائدهم محمد صلى الله عليه وسلم أصبحوا يشكلون خطراً على الروم فسعت إلى الضغط عليهم اقتصادياً وذلك بتهديد قوافل المدينة فكان رد الرسول صلى الله عليه وسلم بإرسال هذه الحملة[6]، ومن جانب آخر كانت تهدف إلى إظهار قوة المسلمين لإقناع السكان في تلك المناطق، أنهم الوحيدون القادرون على حمايتهم وبالتالي شن حرب نفسية عليهم، أضف إلى ذلك السعي لنشر الرسالة العالمية أو كسر حاجز الخوف من قتال الروم. كما أضاف بعضهم غاية أخرى لهذه الغزوة تمثلت بالاستطلاع[7].

لذلك ندب الرسول صلى الله عليه وسلم الناس ، وخرج لخمس ليالٍ بقين من شهر ربيع الأول (5هـ) . آب (626م) في ألفٍ من المسلمين، لكنه عندما دنا من الموضع هرب الروم.

فأقام أياماً وبث السرايا فرجعت ولم يصب منهم أحداً[8]. وعاد إلى المدينة مؤكداً على هيبة الدولة الإسلامية وقدرتها على التعامل الحاسم مع المتربصين بها. أضف إلى ذلك أن هذه الغزوة

---

[1] ـ البيهقي:(أبو بكر أحمد بن الحسين ت458هـ / 1066م)، دلائل النبوة، دار الكتب العالمية، بيروت، 1958م، ج3، ص389،390،391

[2] ـ الملحق، الخريطة رقم(1)

[3] ـ أبو الفداء: المختصر، ج1، ص64

[4] ـ الشجاع: دراسات ، ص145

[5] ـ البخيت وعباس، الشام في صدر الإسلام، ص121

[6] ـ سالم: المسلمون، ص69

[7] ـ سالم: المرجع نفسه، ص62

[8] ـ الواقدي، المغازي ، ج1، ص403،404 ـ بن عبد البر:(الحافظ يوسف النمري ت 463هـ / 1070م)، الدرر في اختصار المغازي والسير، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ص168 ـ ابن الجوزي:(أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ت 597هـ /

فتحت أمام المسلمين جبهة الشام وهي جبهة معروفة لديهم. وكان ذلك أول حلقة في سلسلة الصراع بين قوة العرب المسلمين و قوة الروم البيزنطيين، وحرب وقائية حمت المسلمين من الخطر الذي كان يتهددهم.

ونظراً إلى أهمية موقع دومة الجندل بين الشام والحجاز كان لابد من حسم العلاقة فتكرر الامتداد لذلك مرة أخرى في شعبان (6هـ) تشرين الثاني (627م) ، وقاد الحملة عبد الرحمن ابن عوف الكلبي، وهنا لابد من التساؤل الآتي: لماذا تم اختيار عبد الرحمن بن عوف بالذات لقيادة هذا الجيش؟. والجواب، يمكن أن يكون محاولة لاستمالة سكانها اعتماداً على صلة قرابتهم معه، وذلك لدعوتهم إلى الإسلام، وأوصاه النبي حينما دفع إليه اللواء بالوصية الآتية "أغزوا جميعاً في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، ولا تغلوا، ولا تغدروا ولا تمثّلوا، ولا تقتلوا وليداً، فهذا عهد الله وسيرة نبيه منكم"[1] . فكانت غزوة هجوميّة دعويّة.

وحققت الغزوة أهدافها؛ إذ أسلم الأصبغ بن عمرو الكلبي في اليوم الثالث، وأسلم معه كثيرون من قومه ومن بقي منهم أُخِذَتْ منه الجزية، وتزوج عبد الرحمن بن عوف ابنته تماضر[2]. وذلك لأن المصاهرات كانت من أعظم الأسباب لتوطيد الود والمحبة بين القبائل، كما أنها عامل من العوامل التي أدت إلى انتشار الإسلام بين الناس[3]، والمتمعن بغزوة دومة الجندل يدرك مدى أهميتها، فقد كانت غزوة استطلاعية لجبهة لم يجهلها المسلمون ودفاعية أخذت صورة الهجوم على قومٍ اجتمعوا لقتال المسلمين، فكان لابد من إحباط هذا المسعى، وتدريبية لجيشٍ لم يعتد القتال خارج حدود الجزيرة، و تكمن أهمية هذه الغزوة في أنها تجاوزت حدود الحقبة الزمنية التي حدثت فيها، ففرضت السيطرة على هذه المنطقة سواء بالقوة أم بالتحالف، وأحكمت حلقة الحصار على مكة[4]، وزادت من الضغط الاقتصادي عليها وذلك بتهديد قوافلها المتجهة إلى بلاد الشام، كما أنها كانت اللبنة الأولى لعرش أمة جديدة، وشكلت مقدمة لحركة الفتوح الإسلامية.

استمر النبي صلى الله عليه وسلم بالاهتمام بالشمال فوجه السرايا إلى الشام ولم يفتر عنهم في أي وقت من الأوقات، فكانت سرية حسمى في فلسطين[5]، والتي قاد فيها زيد بن حارثة

1200م)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1412هـ - 1992م، ط1، ج3، ص215 - ابن العبري:(أبي الفرج بن اهرون ت 685هـ / 1286م)، تاريخ مختصر الدول، صححه الأب انطون صالحاني اليسوعي، دار الرائد، لبنان، 1415هـ - 1994م، ط2، ص161

[1] - الواقدي: المغازي، ج2، ص560،561 - ابن عساكر:(ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله ت571هـ / 1175م)، التاريخ الكبير، تصحيح عبد القادر افندي بدران، مطبعة روضة الشام، 1329هـ، م1، ص90 - ابن سيد الناس: عيون الأثر، ج2، ص54

[2] - البيطار: الرسول ، ص10،11

[3] - طنطاوي:(محمد سيد)، السرايا الحربية في العهد النبوي، الزهراء للإعلام العربي، 1410هـ - 1990م،ص93

[4] - سالم: المسلمون ، ص68

[5] - الملحق، الخريطة رقم(1)

خمسمائة رجل من المسلمين، إذ أغار على ماشية جذام ونسائهم، وذلك لتأديبهم بعد أن قطعوا الطريق على دحية بن خليفة الكلبي الرسول العائد من عند قيصر ودليله من بني عذرة، وأحاط تحركاته بالسرية، فكان وصوله مع أصحابه مفاجئاً لبني جذام، فقتلوا الهنيد وابنه وغنموا منها الكثير، إلا أنّ أفراداً من قبيلة جذام توجهوا إلى المدينة وقصوا على الرسول صلى الله عليه وسلم ما حدث، فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بفك الأسرى من جذام، وأرسل علي بن أبي طالب رضي الله عنه مع رفاعة ليبلغا ذلك لزيد بن حارثة، فاستردت جذام جميع ما كان في أيدي الجيش فمهدت تلك الأحداث لعلاقة وثيقة مع هذه القبيلة التي سيكون لها تأثير مهم في مسار السياسة التي انتهجها الرسول صلى الله عليه وسلم تجاه القبائل العربية في بلاد الشام. وكان ذلك في السنة (6هـ / 627م)، وكانت بعد غزوة دومة الجندل الثانية على ما قاله الواقدي[1]، وقد كانت ناجحة في حدود الغرض الذي أرسلت من أجله.

وتلتها غزوة استطلاعية هجومية أخرى سبقت مؤتة وهي ذات أطلاح[2] وذلك في شهر ربيع الأول من سنة (8هـ / 629م) بقيادة كعب بن عمير الغفاري، وكانت قوتها لا تتجاوز الخمسة عشر رجلاً وقتل فيها الجميع باستثناء رجل واحد حمل جراحه حتى وصل المدينة وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم الذي رغب في تجريد حملة كبيرة للانتقام، إلا أنّ الأخبار وصلته بفرار المشركين فعدل عن رأيه[3].

وكان لهذه التحركات ضرورة سياسية وعسكرية فرضتها أحوال الدولة الجديدة الناشئة التي أوقفت صراعها مع قريش كلما أرادت التوجه نحو الشمال، إذ إنّ هذه المواجهة جاءت بعد أخفاق كل الدعوات السلمية والمحاولات لإقامة تحالفات و اتفاقات.

[1] ـ الواقدي: المغازي، ج2، ص222
[2] ـ الملحق، الخريطة رقم(1)
[3] ـ ابن الأثير: الكامل، ج2، 108 - الديار بكري: تاريخ الخميس، ج2، ص70 - العسلي:(بسام)، فن الحرب، دار الفكر، 1394هـ - 1974م، ط1، ص89

إرسال الرسائل بالدعوة للإسلام:

تحدثت المصادر[1]، أن الرسول صلى الله عليه وسلم بعد انصرافه من الحديبية أرسل ستة من أصحابه إلى ملوك الدول المجاورة وأمرائها، ولايمكن معالجتها جميعها لأن البحث يتعلق بجنوب بلاد الشام. وهناك اختلاف على تاريخ تلك المراسلات، والتي تمت في نهاية السنة (6هـ / 627م) وبداية السنة (7هـ / 628م)[2]، وهي أنسب زمن لإرسال هذه الكتب، فقد انتشر الأمن والسلام بعد صلح الحديبية، وكان من جملة الذين أرسلهم دحية بن خليفة الكلبي[3]، أحد رسله الستة إلى هرقل[4]، وقد وصلت تلك الرسالة وهرقل بحمص، ولما فرغ من قراءة الكتاب رد هرقل برسالة أظهر فيها رغبته في دخول الإسلام، ولكن قومه لم يطيعوه[5]، إلا أنّ هذه الرواية لا تثبت أمام المناقشة. فكيف ذلك وقد قضى حياته محارباً للإسلام، وما يثبت ذلك نفيه للمقوقس حاكم مصر واتهامه له بالخيانة نتيجة صلحه مع العرب في خلافة عمر بن الخطاب[6]، فصحيح أنه أحسن استقبال مبعوث الرسول صلى الله عليه وسلم إلا أن ذلك لا يكفي للقول أنّه قد أعلن عن رغبته في دخول الإسلام.

وأرسل عليه الصلاة والسلام شجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمر الغساني[7]، وقيل بعثه إلى جبلة بن الأيهم الغساني[8]، ولعل جبلة هو الأصح لأنه كان حاكماً في بلاد الشام في ذلك الزمن وحليفاً للروم.

والمفيد ذكره أنّ النشاط الأبرز بعد مراسلة الملوك، كُتُبْ الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مالك بن أحمر الجذامي العوفي ورفاعة بن زيد الجذامي وفروة بن عمرو الجذامي عامل الروم على معان[9]، وبني جفال الجذاميين، وزهير بن قرضم من قضاعة، وإلى زمل بن عمر العذولي

---

1 ـ كالواقدي وابن هشام وابن سعد والطبري

2 ـ الدياربكري: تاريخ الخميس، ج2، ص29

3 ـ ابن شهاب الزهري:(محمد بن مسلم بن عبيد الله 124هـ / 741م)، المغازي النبوية، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 1400هـ - 1980م، ط1، ص5 ـ ابن الأثير: الكامل، ج2، ص91 ـ ابن سيد الناس: عيون الأثر، ج2، ص260 ـ الدياربكري: تاريخ الخميس، ج2، ص31

4 ـ وقيل أن اسم هرقل قيصر وقيل أغسطس، وقيصر كلمة إفرنجية معناه شق عنه، وسببه على ما قال المؤرخون أن أم قيصر ماتت في المخاض فشق بطنها وأخرج فسمي"قيصر" وكان يفخر بذلك على الملوك ويقول انه لم يخرج من رحم امرأة ثم وضع هذا اللقب لكل ملك من الروم(الدياربكري: تاريخ الخميس، ج2، ص31)

5 ـ اليعقوبي:(أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب العباسي ت 284هـ / 897م)، تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، م2، ج2، ص62

6 ـ سالم: المسلمون، ص77

7 ـ الدياربكري: تاريخ الخميس، ج2، ص37

8 ـ ابن هشام: السيرة، ق2، ص607

9 ـ العيني:(بدر محمود بن أحمد ت 855هـ / 1451م)، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، تحقيق فهيم محمد شلتوت، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1967م، ص22

وإلى جزء بن عمرو العذري[1]، وإلى سعيد بن هذيم من قضاعة وإلى بني غاديا وبني عريض وبني جناب من كلب[2]، سلفت الإشارة إلى بعضها.

وهذه الكتب كانت أقل أهمية من المراسلات مع الملوك، ولم تولَ الاهتمام الكافي ولم تحفظ بدقتها كما حفظت مراسلات الملوك. وتؤكد الرسائل والجهات التي أرسلت إليها، أن هناك خطة أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن ينفذها، وأن أنظاره تتوجه إلى شمال الجزيرة العربية، فالطريق معروفة بالنسبة إليه، ثم إنه يريد فتح طريق تجاري له ولأصحابه في الوقت الذي ينشر فيه الإسلام لأن رسالة الإسلام لم تكن مقصورة على العرب وإنما هي للناس كافة، كما تم توضيحه من قبل.

وقد تضمنت هذه المراسلات دعوة هؤلاء بالحسنى إلى دين الله[3]، دعوة للوصول إلى كلمة سواء، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة التي استشهد بها الرسول صلى الله عليه وسلم في كتابه إلى هرقل:{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}[4]. وبالفعل نجح الرسول صلى الله عليه وسلم في التمهيد لنشر الدعوة الإسلامية، ونجح في كسب العديد من القبائل مثل صاحب آيلة وأهل جرباء وأذرح. وفي الواقع هذه إستراتيجية جديدة لم تألفها الشعوب من قبل، فلم يدعُ الكافر لأمر غير:(أسلم تسلم)، إذ لم يكن هناك لا مفاوضات ولا أي تنازلات، إذ إن الحق واحد ولا يتعدد، والرد على أي قرار من قبلهم لن يكون ما يسمعونه بل ما سيرونه.

وعلى الرغم من أنّ كل المصادر تحدثت عن هذه المراسلات، إلا أن بعض المستشرقين[5] قد أنكروها، ومنهم من قال إنّ خلفاء محمد صلى الله عليه وسلم هم الذين صاغوا هذه الرسائل وذلك لإثبات عالمية الإسلام[6]، إلا أنّ هذا الزعم لا يصمد أمام أمر أثبته القرآن الكريم بأقوى بيان، فقد كانت عالمية الدعوة الإسلامية قضية ثابتة منذ ظهور الإسلام بمكة ولم تكن أمراً جدَّ على الساحة مع ارتفاع شأن الإسلام بالمدينة[7]. وآيات القرآن الكريم أكدت هذه الحقيقة :{ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}[8]. ويسوّغون آراءهم بعدم

---

[1] ـ الحيدر آبادي: مجموعة الوثائق السياسية، ، ص232، 233، 234، 235، 238

[2] ـ ابن سعد: الطبقات، ج1، ص270،279، 280

[3] ـ سالم: المسلمون، ص75

[4] ـ سورة آل عمران، الآية(64)

[5] - Vasiliev:(A.A), History of The Byzantine Empire, Wisconsin,1952،P،211

[6] - Groune baun:(G.E.von), classical Islam, ahistory 600_ 1258London,1970، P. 42

[7] سالم: المسلمون ، ص81

[8] ـ سورة سبأ، الآية(28)

عثورهم على ما يثبت ذلك من وثائق لدى هؤلاء الملوك والأمراء، و طبعاً هذا دليل غير كاف لما يدعون، لأنه قد تكون الصور الأصلية فقدت لسبب ما، أما مؤرخو العرب فلا يشككون بذلك، بل أثبتوا صحتها[1].

ويتساءل بعضهم عن اللغة التي كتبت بها الرسائل، وتأتي الإجابة عن ذلك في الوثائق التي عثر عليها، فجميعها أظهرت أن الخط العربي غير المنقوط هو خط كتابتها[2]، فكيف فهمت الأطراف المتعددة قراءتها ؟. قد يكون عن طريق العرب الذين خضعوا لسيطرة هذه الدول .

ألم يكن الغساسنة وغيرهم حلفاء للروم؟ ألم يتخذ الروم هؤلاء عيوناً لهم وقوة تحميهم من هجمات القبائل؟ ألم يكن هناك جماعة من النبط سميت بالساقطة[3] تنقل أخبار الحجاز إلى الروم؟. أضف إلى ذلك العلاقات التي كانت قائمة بين الحجاز وبلاد الشام منذ قبل الإسلام، حيث عدت بيزنطة أن التحالف مع القبائل التي كانت تنزل الشام وتمدّها بالمال سنوياً مقابل حماية الحدود والمواضع التي يصعب حمايتها هو حماية لها وللقوافل التجارية وللمنطقة التي تشهد الصراع الذي كان يحتدم بينها وبين فارس.

---

[1] ـ ابن سعد: الطبقات، ج1، ص379- 370 ـ اليعقوبي: تاريخ، م2، ص83

[2] ـ الحيدر آبادي: مجموعة الوثائق، ص26 وما يليها.

[3] ـ الساقطة: إسقاط جمع الساقط ما يحملونه من التمر. وأيضاً تسقطت الخبر إذ أخذته قليلاً قليلاً شيئاً بعد شيء. ومن هنا أن الساقطة هم أناس يعملون إما بالتجارة أو في تسقط الأخبار. وكلا المعنيين ينطبق على الأنباط . حمارنة: الناس، ص9

غزوة مؤتة[1]:

تعد غزوة مؤتة[2] من أعظم البعوث الحربية التي بعثها الرسول صلى الله عليه وسلم من أجل إعلاء كلمة الله ورد كيد أعدائه، وكانت في شهر جمادى الأولى من السنة (8هـ) آب أو أيلول (629م)، على ما ذكره أغلب المؤرخين[3]، في أعقاب غزوة خيبر وذلك في وقت كان فيه النبي صلى الله عليه وسلم في موقع قوي مما يؤكد على أنها لم تكن عفوية بقدر ما كانت من المنجزات السياسية المهمة والإعداد الهادئ لها[4]. فكانت غزوة هجومية دفاعية.

وقد تعددت أسبابها ، واختلفت أغراضها ، وتنوعت أهدافها :

فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم، قد بعث الحارث بن عمير الأزدي إلى ملك بصرى بكتاب فقتله شرحبيل بن عمر الغساني في مؤتة ولم يُقْتَل لرسول الله صلى الله عليه وسلم رسولٌ غيره فَقَتْلُ مبعوث الرسول صلى الله عليه وسلم تحدٍ صريح واعتداء مباشر على الإسلام، عندما كان يركز دعائمه في أرجاء الجزيرة، فندب الناس ولبوا نداء الرسول صلى الله عليه وسلم وعسكروا بالجرف[5]، وهدفهم من ذلك الثأر لقتل الحارث بن عمير الأزدي والثأر لشهداء ذات أطلاح الذين قادهم عمرو بن كعب الغفاري وهو الناجي الوحيد[6].

هذا الاعتداء قلل من هيبة الإسلام في نفوس الأعراب ، الذين أذعنوا بسبب قوته وهيبته، والإسلام حريص على بقاء هذه الهيبة، والسكوت على هذا الأمر يمهد لتجرؤ الأعراب على المسلمين[7]، فكان لابد من الثأر للكرامة الإنسانية وتأديب تلك القبائل، إلا أنه لم يكن السبب الرئيس والوحيد وإنما شكل حافزاً لا أكثر، لأن سرايا الرسول صلى الله عليه وسلم كانت سلسلة متصلة الحلقات، وهذا التحرك فرضته في المقام الأول مستجدات المرحلة، حيث الطريق مفتوحة والقبائل متداخلة الانتماء والمصالح، دون أن يعيق ذلك تعارض الولاء الذي بدا واهياً

---

[1] - مؤتة موضع من أرض الشام من عمل البلقاء وتقع شرق البحر الميت إلى الجنوب من الكرك ب/11كم/. اشتهرت بصناعتها للسيوف المعروفة بالمشرفية، دون أن يكون واضحاً إذا ما كان لهذه التسمية علاقة بمشارف القرية المجاورة لها، أو أنها عائدة إلى موقعها الجغرافي على مشارف الشام. وكان اللقاء فيها في البداية ثم انحاز المسلمون إلى مؤتة.(البكري: معجم، ج1، ص319 ــ القزويني، أثار، ص275 ــ سعيد: حروب، ص46)

[2] ـ الملحق، الخريطة رقم(1)

[3] ـ الدياربكري والمسعودي وابن عساكر وابن الأثير وابن العماد الحنبلي

[4] ـ بيضون:(إبراهيم)، تاريخ بلاد الشام إشكالية الموقع والحدود، دار المنتخب العربي للدراسات، ص113

[5] ـ الجرف: موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام.(الحموي: معجم، ج2، ص128) الواقدي: المغازي، ج2، ص755- ابن سعد: الطبقات، ج2، ص128 . ابن عساكر: التاريخ الكبير، م1، ص93 .. ابن سيد الناس: عيون الأثر، ص153

[6] ـ الطبري: تاريخ ، ج3، ص103 - البيهقي: دلائل، ج3، ص323

[7] ـ أبو خليل:(شوقي)، في التاريخ الإسلامي، دار الفكر، دمشق، 1412هـ - 1991م، ط1، ص152

حيناً ومخترقاً أحياناً أخرى، فضلاً عن معرفة النبي التفصيلية بمجمل المعطيات[1]. أضف إلى ذلك فقد كانت غزوة مؤتة بمثابة:

- تدريب للمسلمين على خوض المعارك الصعبة، ومواجهة القوى الكبرى.
- وتعويدهم الصبر، وتحمل المشاق.
- استكشاف عدوهم وقوته، واستطلاع مواقعه وطبيعة أرضه.
- الحصول على الأسلحة المتطورة التي كانوا بأمس الحاجة إليها في تلك الظروف خاصة وأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان ينوي فتح مكة، فقد اشتهرت مشارف الشام وهي وجهتهم ــ المكان الذي قتل فيه الحارث بن عمير الأزدي ــ بصناعة أحد الأنواع المشهورة من السيوف وهي السيوف المشرفية[2]، وستظهر أحداث المعركة حقيقة هذا الأمر.
- دراسة ردود الأفعال العربية والأجنبية المعادية للحركة العسكرية المسلمة الناشئة في الجزيرة العربية.
- رفع المعنويات لدى المسلمين، والانتقال إلى مرحلة التفكير بنشر مبادئ الدعوة خارج حدود الجزيرة، باستخدام الوسائل المناسبة كافة [3].
- فتح خط تجاري إلى الشام مستقل عن الخط القرشي ومنافس له ليحل مسألة الأمن الغذائي في المدينة ذات الخاصية الزراعية ــ ويبدو أن الاكتظاظ السكاني الذي حل بالمدينة جعل المردود الاقتصادي غير كاف ــ فاقتضى الأمر والحال هذا التحويل من السرايا إلى الغزوات وكانت مؤتة أولها نحو الشام.
- اختراق الحاجز القبلي المتحالف مع بيزنطة في الشام.
- إقامة مراكز نفوذ للإسلام على الأطراف الشامية.

وهذه الأسباب مجتمعة مع الشرارة الأولى والتي تمثّلت بقتل الحارث بن عمير الأزدي، عجلت في قيام هذه الغزوة.

وتجهز لدى الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثة آلاف مقاتل[4]، وهذا العدد يدل على أنه منذ غزوة دومة الجندل بدأت بعوث النبي صلى الله عليه وسلم إلى الشام تأخذ طابع الجيوش المقاتلة لا طابع جماعة الدعاة المدافعة لكثرة من خرج فيها من المسلمين[5]، فكانت ذات طابع هجومي

---

[1] ـ بيضون: تاريخ، ص103
[2] ـ الحموي: معجم، ج5، ص131
[3] ـ العقاد:(عباس محمود)، العبقريات العسكرية، دار الآداب، بيروت، 1968م،ط2، ص803
[4] ـ ابن سعد: الطبقات، ج2، ص128.ـ ابن الأثير: الكامل، ج2، ص153 ـ ابن سيد الناس: عيون الأثير، ج2، ص153 - الدياربكري: تاريخ الخميس، ج2، ص70
[5] ـ دسوقي: القبائل العربية في بلاد الشام، ص84

ودفاعي في الوقت ذاته. واستعمل عليهم زيد بن حارثة رضي الله عنه، فهو شامي المولد، انحدر من قبيلة كلب التي اتخذت منازلها بجوار دومة الجندل[1]. وقال صلى الله عليه وسلم :" إن أصيب زيد، فجعفر بن أبي طالب ، فإن أصيب جعفر، فعبد الله بن رواحة على الناس، فإن أصيب عبد الله بن رواحة فليرتض المسلمون منهم رجلاً فليجعلوه عليهم"[2].

لذلك عُرِفَ جيش هذه الغزوة، بجيش الأمراء، إذ تم تعيين ثلاثة قادة بالتتابع، وهذا التصرف يظهر لنا إدراك الرسول صلى الله عليه وسلم صعوبة العمل الذي يقدم عليه وخطورته، وأن هناك خطة مرسومة يجب تنفيذها بدقة وأهداف بعيدة للغزوة، لذلك وقبل مغادرته المدينة حاول وضع الحلول لأي مشكلة يمكن أن تواجه هذا الجيش لاحقاً. وتميز الإعداد لهذه الغزوة بالسرِّيّة التامة ، إذ لم يحدد الرسول صلى الله عليه وسلم وجهتها إلا بعد أن اكتمل الجيش لديه[3].

فتجهز الناس ، ثم تهيّأوا للخروج، وعسكروا في الجرف حيث عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم لواء أبيض، ودفعه إلى زيد بن حارثة، وودّع الناس أمراء رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلموا عليهم فبكى عبد الله بن رواحة، فقالوا ما يبكيك يا ابن رواحة فقال أما والله ما بي حب الدنيا ولا صبابة إليها، ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ :{ **وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا**}[4].

فلست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود، فقال المسلمون صحبكم الله وردكم إلينا سالمين ودفع عنكم[5]. فقال ابن رواحة عند ذلك:

لكنني أسأل الرحمـــن مغفـــرة   وضربة ذات فرع تقذف الزبدا[6].

أو طعنة بيدي حران مجـــهزة   بحربة تنفذ الأحشـــاء والكـــبدا[7].

حتى يقال إذا مروا على جدثي   أرشده الله من عارٍ وقد رشـــدا[8].

وهذا القول له دلالة واضحة على أن المسلمين لم يسعوا إلى منصب أو إلى ربح في الدنيا ، بل إن كل غايتهم هي الآخرة، فعلى الرغم من قلة أعدادهم فقد كانت معنوياتهم مرتفعة وهممهم

---

[1] ـ ابن الأثير: أسد الغابة، ج2، ص224 ـ غلوب:(جون باغوت)، الفتوحات العربية الكبرى، ترجمة خيري حمادة، بدون مكان وتاريخ ورقم الطباعة، ص133

[2] ـ الواقدي: المغازي، ج2، ص756. ابن عبد البر: الدرر، ص209 ـ ابن عساكر: التاريخ الكبير، م1، ص92ـ الذهبي:(شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ت 748هـ / 1374م)، تاريخ الإسلام عهد الخلفاء الراشدين، تحقيق عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط1، 1407هـ ـ 1987م، ص480

[3] ـ خريسات، النابودة:(محمد عبد القادر، حسن محمد)، صاحب الخبر، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، الأمارات العربية المتحدة، 1424هـ ـ 2003م، ص59

[4] ـ سورة مريم، الآية(71).

[5] ـ ابن عساكر: التاريخ الكبير، م1، ص92 ـ ابن سيد الناس: عيون ، ج2، ص153 ـ الديار بكري: تاريخ، ج2، 70

[6] ـ ذات فرع: يريد واسعة. والزبد: ما يعلوا الدم الذي يتفجر من الطعنة.

[7] ـ مجهزة: سريعة القتل

[8] ـ الجدث: القبر

عالية، وبالتالي فقد ظهر مذهب عسكري جديد انتصر على مذهب عسكري قديم، وإنسان مؤمن بمبادئه الدينية وتربية عسكرية جديدة تفوّقت على القديمة.

أمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير الأزدي، وأن يدعو من هناك إلى الإسلام، ثم شيع الجيش الإسلامي إلى ثنية الوداع[1]. وأوصاهم قائلاً:" اغزوا باسم الله في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله لا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث، فأيتهن ما أجابوك إليها فاقبل منهم وأكفف عنهم، ادعهم إلى التحوّل من دارهم إلى دار المهاجرين، فإن فعلوا فأخبرهم أنّ لهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين، وإن دخلوا في الإسلام واختاروا دارهم، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله، ولا يكون لهم في الفيء ولا في القسمة شيءٌ إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية، فإن فعلوا فاقبل منهم واكفف عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم، وإن أنت حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك أن تستنزلهم على حكم الله فلا تستنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا، وإن حاصرت أهل حصنٍ أو مدينة فأرادوك على أن تجعل لهم في ذمة الله وذمة رسوله، فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة رسوله، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أبيك وذمة أصحابك، فإنكم إن تخفروا ذمتكم وذمم آبائكم خيرٌ لكم من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله"[2].

وهذا تأكيدٌ على طبيعة الإسلام بالدعوة إلى السلام والمحبة، وحقن الدماء وعدم الدعوة إلى الحرب إلا إذا استنفذت كل الوسائل الممكنة؛ فقد أراد الرسول صلى الله عليه وسلم من الغزوة أن تكون فاتحة الأعمال الحربية خارج نطاق الجزيرة العربية، ولهذا ربط الخروج إلى مؤتة بنصائح أصبحت هي القانون الحربي الذي سار عليه خلفاؤه من بعده، إنّ هذه الوصية أوجدت من حول مؤتة جواً كالذي أوجدته من حول المعارك اللاحقة ــ أيام أبي بكر وعمر رضوان الله عليهما ــ ولهذا أصبحت مؤتة جزءاً مهماً من الفتوحات الشامية[3].

ويذكر المؤرخ البيزنطي ثيوفانس أنّه كان لبيزنطة عيون تراقب الأحداث في الحجاز. من هؤلاء واحد حمل اسم قطبة، وهو قرشي الأصل، وكان يعمل بمثابة حاجب، أو ترجمان لتيودور أخو هرقل، وصادف في أثناء الإعداد للحملة وجوده في الحجاز، فأسرع نحو تيودور يخبره بالأمر، وقد صمتت المصادر العربية بما فيها كتب الأنساب عن ذكر اسم قطبة، وربما كانت له قرابة أو علاقة مع أبي سفيان، أو أنّ أبا سفيان التقى مع هرقل وهو الزعيم القرشي التاجر في

---

[1] ـ ثنية الوداع: ثنية مشرفة على المدينة(الحموي: معجم، ج1، ص456)

[2] ـ الواقدي: المغازي، ج2، ص757، 758

[3] ـ عباس: تاريخ بلاد الشام، ص208، 209

بلاد الشام ومن وجهاء مكة، وفي الوقت ذاته كانت علاقات تيودور غير مستقرة مع القبائل في بلاد الشام، وأمام هذا الوضع صالح تيودور القبائل ودفع كميات كثيرة من الذهب لقادتها من أجل الاستنفار[1]، ويبدو أنّ عيونه حدّدت له وقت وصول الحملة الإسلامية، إذ غادرت الحملة المدينة سالكة طريق القوافل بين الشام والحجاز، فاجتازت تبوك، وواصلت تقدمها حتى معان فنزلت فيها، وتبعد عن المدينة /843كم / من جهة الشمال، وهي أول بلاد الشراة[2]، وعند قرية كثكث[3]تحرّش أهل تلك القرية بالجيش بعد أن تجاوزهم معظمه، فهاجموا ساقته وقتلوا واحداً من المسلمين، ولكن عظم الجيش لم يتوقف لهذا الحادث واستمر في سيره، ورفض القائد زيد بن حارثة العودة إليهم حرصاً على تركيز الجهود وخوفاً من اشتغال المسلمين بهم عن عدوهم الحقيقي وتشتيت قواهم، وكي لا يصبحوا بين نارين. وهذا يدل على بصيرة ثاقبة وقيادة حكيمة قلما تتوافر لدى أمراء الجيوش في مثل هذه الظروف، لاسيما وأنّ هناك هدفاً أسمى أمامهم[4]. ولمّا فصل المسلمون من المدينة سمع العدو بمسيرهم فجمعوا الجموع. وقام فيهم رجلٌ من الأزد يقال له شرحبيل بن عمر، وقدم الطلائع أمامه، وقد نزل المسلمون وادي القرى وأقاموا أياماً، وبعث أخاه سدوس الذي قتل فخاف شرحبيل بن عمرو فتحصّن، وبعث أخاً له يقال له وبر بن عمرو فقتل، فسار المسلمون حتى نزلوا أرض معان من أرض الشام[5].

وبلغ الناس أنّ هرقل قد نزل مآب، من أرض البلقاء، في مئة ألف من الروم، وانضم إليهم مئة ألف من لخم وجذام والقين[6] وبهراء و بلى، عليهم رجل من بلى يقال له مالك بن زافلة، لم يكن المسلون قد أدخلوا في حسابهم لقاء مثل هذا الجيش العرمرم، الذي بوغتوا به في تلك الأرض البعيدة عن ديارهم، فكيف لجيش صغير لا يتجاوز الثلاثة آلاف مقاتل أن يواجه جيشاً ضخماً وكبيراً قوامه مائتا ألف مقاتل[7]. وإنّ هذا الرقم فيه الكثير من المبالغة، لأنه من دراسة التاريخ لم يتمكن الروم ولا الغساسنة حتى ذلك الوقت من حشد هذا العدد من الجند قبل ذلك في بلاد الشام، فلربما ذكرت الروايات هذا العدد الهائل لتدلل على خطورة الموقف بالنسبة إلى المسلمين، وبيان الفرق الشاسع بين أعداد المسلمين وأعداد عدوهم فضلاً عن الفارق الكبير في القدرة العسكرية والسلاح.

فلماذا هذا الجمع الهائل؟.

---

1 - theophanes: philadelphia, p. 36

2 ـ سعيد: حروب الإسلام، ص48

3 ـ كثكث: إلى الجنوب من مؤتة(الواقدي: المغازي، ج3، ص1124)

4 ـ ابن عساكر: التاريخ الكبير، م1، ص98

5 ـ الواقدي: المغازي، ج2، ص760 الديار بكري: تاريخ، ج2، ص71

6 ـ القين: وردت هكذا عند الدياربكري والصحيح بلقين(الواقدي: المغازي، ج2، ص771 - ابن عساكر: تاريخ ، ج2، ص23)

7 ـ ابن هشام: السيرة ، ج2، ص375 ـ ابن سعد: الطبقات، ج2، ص128.ـ ابن الأثير: الكامل، ج2، ص153 - ابن سيد الناس: عيون، ج2، ص153 - الدياربكري: تاريخ الخميس، ج2، ص70

أهو الفزع من قوة المسلمين التي ارتجّت لها أرجاء الجزيرة العربية؟. والتي لم تستطع قوة جيش الأحزاب مجتمعة أن تنال منها، أم هي سمعة المسلمين المنتصرين على حصون اليهود على الرغم من مناعتها وقوتها[1]، أم كبر وزهو هرقل؟.

وقد يكون هذا الجيش الذي احتشد في مؤتة ما كان يزيد عن بضعة آلاف[2] هذا من جهة، ومن جهة أخرى فلو كان ذلك العدد صحيحاً، لقتل أغلب الجيش ولم يسلم منه إلا القليل القليل. إلا أنّ هذا لا يمنعنا من القول أنّ عدد القوات المعادية كان مرتفعاً.

ولما بلغ المسلمون ذلك أقاموا في معان ليلتين، يفكرون في أمرهم، وقالوا نكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمره ، فنمضي إليه ، فوقف عبد الله بن رواحة وقال:" يا قوم، إن التي تكرهون، للتي خرجتم تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحُسنيين! إما ظهور وإما شهادة". وتأثر الناس بما قاله ابن رواحة، وتعاهدوا على القتال في سبيل الله، وقد قال بعضهم لبعض قد والله صدق ابن رواحة فمضى الناس[3]. وهذا يدل دلالة واضحة على المعنويات المرتفعة للجيش والإقدام على طلب الآخرة والتفكير بالثواب لا بالغنائم التي حاول بعضهم القول بها.

إن المسلمين لم يحاربوا بكثرة عدد، وإنما حاربوا بقوة الدين وثبات الإيمان، وعبقرية القيادة، وبطولة الجند، وحب الموت في سبيل الله، ثم ساروا، فالتقتهم جموع الروم والعرب بقرية من البلقاء يقال لها مشارف ثم دنا العدو، وانحاز المسلمون إلى قرية مؤتة[4]، فعسكروا هناك، وتهيئوا للقتال ،فجعلوا على ميمنتهم رجلاً من بني عذرة وهو قطبة بن قتادة السدوسي، وعلى ميسرتهم عبادة بن مالك الأنصاري، وسكتت الروايات عمن كان في القلب وذلك قد يعني أنه القائد الأول الذي عينه الرسول صلى الله عليه وسلم [5]. والسبب الذي دفعهم إلى الانحياز تمثل بطبيعة المنطقة الجبلية إذ يصعب فيه على المسلمين لقاء عدوهم، خاصة وأنّ أعدادهم لا تسمح لهم بالابتعاد عن بعضهم فتضعف قواهم، ومن ثم تأمين الطريق التي يمكن لهم أن يسلكوها في حال عودتهم بحيث يمنعوا التفاف العدو عليهم، لذا تحصنوا بمؤتة حماية لهم من خطر الإبادة

[1] ـ ابن هشام: السيرة، ج3، ص244- 302- 342
[2] ـ سعيد: حروب الإسلام، ص49
[3] ـ ابن هشام: السيرة ، ق2، ص375 ـ ابن عبد البر: الدرر، ص209 ـ ابن الأثير: الكامل، ج2، 112
[4] ـ ابن الأثير: الكامل، ج2، ص159 ـ البخيت:(عبد الحميد)، ظهور الإسلام وسيادة مبادئه، مكتبة الأنجلو المصرية، ص323
[5] ـ عباس: تاريخ بلاد الشام، ص205

ولا ننسى مسألة السيوف التي كانت تصنع في مشارف[1]، فهل جاء انسحابهم إلى مؤتة لإشغال العدو ريثما يهجمون على مصنع السيوف ، ويحققون المهمة التي كلفوا بها.

المهم التقى الجمعان في مؤتة ، وبدأ القتال الذي ظهر فيه عدم التوازن من حيث العدد، فقاتل زيد بن حارثة بعد أن لبس درعاً، حاملاً راية الرسول صلى الله عليه وسلم، حتى شاط في رماح القوم، بعد أن صاح من يأخذ هذا الدرع وقتل، فأخذه جعفر بن أبي طالب فلبسه، وأخذ الراية متقدماً نحو الأمام فقاتل ونزل عن فرسه وهو يقول:

يا حبــذا الجنـــة واقــترابهـــا	طــيّبةٌ وطيّـــبٌ شرابها
والروم رومٌ قد دنـــا عذابهـــــا	كافرة بــعيدة أنسابـــها

علــيَّ إذ لاقيتـــها ضرابها[2]

فقاتل حتى قُطِعَت يده اليمنى فأخذ اللواء بيده اليسرى فقطعت فضمه بعضديه فضربه رجل من الروم فقسمه نصفين فاستشهد. ودعا الناس عبد الله بن رواحة فأخذ اللواء وهو يردد:

يا نفس إلا تقتلي تموتي	هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت	إن تفعلي فعلهما هـــديـــت

فقاتل حتى قتل[3]. فأخذ الراية رجل من الأنصار، وهو ثابت بن الأرقم الأنصاري فقاتل بها إذ مر به خالد بن الوليد، فقال له الأنصاري: "يا خالد خذ الراية فأخذها خالد"[4]. وكانت كل الظروف المحيطة ضد خالد وضد جيش المسلمين، في معركة واحدة استشهد فيها ثلاثة قادة على التوالي، وجيش المسلمين في أسوأ حالاته، في الوقت الذي كان فيه جيش الروم يعيش نشوة النصر، وكانت مؤتة أول اختبار حقيقي له بعد إسلامه، و لم تكن المهمة أمامه سهلة، إذ كان عليه أن ينقذ المسلمين من المأزق الذي وقعوا به والمحافظة على المسلمين من الإبادة الجماعية، فأظهر خالد بن الوليد هنا عبقريته العسكرية لمواجهة هذا الموقف.

بات خالد بن الوليد ليلته وهو يفكر بالانسحاب، ولكن كيف؟. وهو في وضع لا يحسد عليه ومهمته خطيرة، فقد ضعف المسلمون، وترك بعضهم ميدان القتال وقتل قبله ثلاثة من قادة المسلمين، وأمامه عدو عملاق بالعدد والعدة، ولا أمل له بوصول نجدات من المدينة لبعد المسافة وصعوبة الاتصال، وعلى الرغم من ذلك وضع خطة عبقرية عجز الخصم عن استيضاح معالمها، فأعاد التعبئة وهمَّ على الأعداء مواصلاً القتال حتى حلول الظلام، ثم رسم خطته لليوم

---

1 ـ ابن عساكر: تاريخ دمشق، م1، ص96 ـ ابن الأثير: الكامل، ج2، ص112 ـ ابن سيد الناس: عيون الأثر، ج2، ص54 ـ الدياربكري: تاريخ الخميس، ج2، ص71

2 ـ ابن حنبل:(أبو عبد الله أحمد بن محمد ت241هـ / 855م)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، دار الفكر، بيروت، ج4، ص95 ـ المقدسي:(مطهر طاهر المقدسي ت507هـ / 1113م)، البدء والتاريخ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ج4، ص231

3 ـ ابن عبد البر: الدرر، ص210 ـ ابن عساكر: التاريخ الكبير، م1، ص94 ـ الدياربكري: تاريخ الخميس، ج2، ص71

4 ـ الواقدي: المغازي، ج2، ص763 ـ ابن عساكر: تاريخ ، م1، ص96

القادم وقام بتغيير الوجوه إذ جعل مقدمته ساقته وساقته مقدمته، وميمنته ميسرته، وميسرته ميمنته فأنكر الروم ما كانوا يعرفون من راياتهم وهيأتهم[1]، كما سعى لإيهام الخصم بأن المدد يأتي بشكل مستمر، لذلك جعل الخيل طيلة الليل تجري بحركة دائرية وجعل طائفة من الجيش يثيرون الغبار ويكثرونه عند طلوع النهار، ونشر الجنود على طول جبهة عريضة، فكادت تملأ الأفق، وشكّل مؤخرة قوية لحماية الانسحاب ولتثبيط مطاردة العدو، وبهذا استطاع خالد رضي الله عنه تحقيق انسحاب مدروس منظم مع حماية دقيقة لمؤخرة الجيش، وإلا لانقلب الانسحاب إلى هزيمة منكرة، وخسائر كبيرة، فالارتداد المأمون أصعب من النصر في بعض المآزق[2].

استطاع خالد بالشجاعة البالغة والبسالة العالية والتخطيط الصحيح وإتقان فن الحرب وعبقرية لا مثيل لها أن ينجح بهذا الجيش الصغير في الصمود أمام هذا السيل الجارف من الجيوش، فبرزت مهارة هذا القائد، فبحنكته الذكية ومكيدته الحربية، استطاع أن يلقي الرعب في قلوب الأعداء، فانسحب المسلمون ولم يلحق بهم الروم[3]، ولم يكن هذا الانسحاب بشكل فوضوي، وكان لهذا القرار من الصعوبة ما يفوق صعوبة النصر بالذات، فقطع التماس مع العدو أمر لم يكن بالبسيط بل احتاج إلى حنكة وذكاء جعلا من خالد بن الوليد قائداً بارزاً ومخططاً حكيما، ومن المؤرخين من شكّك بقتال خالد ليوم آخر إذ تعد مخاطرة تقضي على كل الجيش، ولكن نجد العكس وذلك لسبب بسيط جداً، وهو أنه لولا هذا الاشتباك لما استطاع خالد بن الوليد أن يخدع الروم بانسحابه، لأنّ المنهزم يتوقع له الانسحاب لا الاستمرار بالقتال، أضف إلى ذلك أن خالداً لو قام بالانسحاب من دون قتال في ذلك اليوم لكان من الممكن أن يحوّل انسحابه إلى هزيمة، وبذلك ضمن الأمان لجيشه الذي سينسحب، وحال دون القضاء عليه من قبل الروم الذين اعتقدوا أنها مكيدة ليلحقوا بهم إلى الصحراء انتظاراً لمدد، لذلك قرروا التريث وعدم متابعتهم واستطاع خالد بهذه الطريقة أن يعود بالمسلمين إلى المدينة وفي طريقهم إليها مروا على القرية التي اعتدى أهلها على المسلمين قبل أيام، ولا بد أنهم كرروا الاعتداء، ولذلك ضربوا الحصار عليها حتى دخلوها وقتلوا كثيراً من رجالها، في نقيع إلى جانب القرية فسمي ذلك المكان (نقيع الدم)[4].

وفي تلك الأثناء صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر فأمر المنادي أن ينادي بالصلاة جامعة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" ثاب خبر ثاب خبر ثاب خبر ألا أخبركم عن جيشكم هذا الغازي، إنهم انطلقوا حتى لقوا العدو، لكن زيد أصيب شهيداً فاستغفروا له ثم أخذ

---

1 - الواقدي: المغازي، ج2، ص763، 764 - ابن عساكر: التاريخ الكبير، م1، ص98 - ابن كثير: البداية، ج3، ص283

2 - أبو خليل: في التاريخ ، ص157

3 - الواقدي: المغازي، ج2، ص764 - الدياربكري: تاريخ الخميس، ج2، ص73، 72

4 - ابن حنبل: مسند، ج4، ص172 - ابن عساكر: التاريخ الكبير، م1، ص98 - الدياربكري: تاريخ الخميس، ج2، ص72

اللواء جعفر فشد على القوم فقتل شهيداً أنا أشهد له بالشهادة فاستغفروا له ثم أخذ اللواء عبد الله ابن رواحة فأثبت قدميه حتى أصيب شهيداً فاستغفروا له ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد ولم يكن من الأمراء فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم إصبعيه وقال اللهم هو سيف من سيوفك فانتصر به". فيومئذ سمي خالد بن الوليد سيف الله[1].

ولما سمع أهل المدينة بجيش مؤتة قادماً تلقوه بالجرف، فجعل الناس يحثون التراب في وجوه الجيش ويقولون: يا فرار أفررتم من سبيل الله ؟، فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليسوا بفرّار ولكنهم كرّار إن شاء الله!"[2]. وهنا تسرَّع أهل المدينة بالحكم على نتيجة المعركة، وظهرت حكمة الرسول صلى الله عليه وسلم إذ وصفهم بالكرّار ويعني ذلك أنهم أدّوا ما طلب منهم، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم سينفذ الخطة التي رسمها لفتح بلاد الشام.

وبعد ذلك توجه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أسماء بنت عميس الخثعمية، وكانت امرأة جعفر بن أبي طالب وأم ولده جميعاً إذ قالت:" دخل عليَّ رسول الله، ويدي في عجين، فقال يا أسماء أين ولدك؟ فأتيته بعبد الله ومحمد وعون، فأجلسهم جميعاً في حجره وضمهم إليه ومسح على رؤوسهم ودمعت عيناه فقلت: بأبي وأمي أنت يا رسول الله! لمَ تفعل بولديَّ كما تفعل الأيتام؟ لعله بلغك عن جعفر شيء؟ فغلبته العبرة وقال: رحم الله جعفراً! فصحت: وويلاه واسيواه؟ فقال لا تدعي بويلٍ ولا حربٍ؟ وكلما قلت فأنت صادقة، فصحت: و اجعفراه!"[3]. وعندما استقبل صلى الله عليه وسلم أسرة زيد بن حارثة، ورأى بنتاً له تبكي بكى لبكائها، فقال له سعد بن عبادة:" يا رسول الله ما هذا!؟ فقال صلى الله عليه وسلم هذا شوق الحبيب إلى حبيبه، إنما هي عبرات الصديق بفقد صديقه"[4]. ولهذه الزيارة دلالة واضحة تتمثل بتكريم الإسلام لشهدائه ورعايته لذويهم، وحرص الرسول صلى الله عليه وسلم على رعايتهم.

---

[1] ـ ابن حنبل:(أبو عبد الله أحمد بن محمد ت241هـ / 855م)، فضائل الصحابة، تحقيق وصي الله محمد عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1403هـ ـ 1983م، ط1، ج1، ص18 ـ الذهبي:(شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ت 748هـ / 1374م)، المغازي، تحقيق عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ص485

[2] ـ ابن سعد: الطبقات، ج2، ص98 ـ ابن كثير: البداية، ج3، ص283

[3] ـ اليعقوبي: تاريخ ، م2، ص65 ـ ابن الأثير: الكامل، ج2، ص114 ـ الذهبي: المغازي، ص488

[4] ـ طنطاوي: السرايا، ص124

نتيجة المعركة وأهميتها :

أظهرت المصادر والمراجع خلافاً كبيراً حول نتيجة المعركة أنصر للمسلمين هي أم هزيمة؟.

وقد ظهر هذا الخلاف في البداية بين سكان المدينة على الرغم من أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم لم ير فيها إخفاقا لمشروعه، ولكنه وجد فيها الحافز القوي للاستمرار في الإطار ذاته. فتكون بذلك غزوة ذات السلاسل إحدى النتائج المباشرة لمؤتة، وحاملة دوافعها بصورة أكثر وضوحاً وربما استمراراً عسكرياً لها[1]. واستمر الخلاف بين المؤرخين، فمنهم من عده هزيمة، ومنهم من عده نصراً، ومنهم من ذهب إلى القول إنّ هذه المعركة لم تكن هزيمة لأي طرف، فقد ذكر ابن اسحق أنّ كل فئة انحازت عن الأخرى من غير هزيمة[2].

بعضهم قال إنّ المسلمين انتصروا ورجعوا ظافرين، غير أنه ظفر الجولة ونصر الحملة الصادقة، لا ظفر الميدان، ونصر الموقعة الحاسمة[3]. وهي بالتأكيد لم تكن هزيمة، وما يؤكد ذلك قلة عدد الشهداء من المسلمين؛ فلو أنهم انهزموا لزاد العدد على هذا الرقم بكثير، كما أنها لم تكن نصر القتال إذ إنّ المسلمين تراجعوا ولم يكملوا القتال. ولكن تحليل المواقف يوضح أنها أقرب إلى النصر، فالنصر في هذه المعركة بالذات يأخذ أشكالاً أخرى بسبب ما تم فيها من أحداث، فالتكتيك الذي اتبعه القائد خالد بن الوليد في مواجهة هذا الجيش وهذه الظروف كان بحد ذاته نصراً على التكتيك البيزنطي الذي عجز عن تحقيق أية نتائج فعلية فيها على الرغم من تفوقهم العددي، فالانسحاب بحد ذاته أثبت تفوّق المسلمين في هذا المجال، وخير دليل على أن نتيجتها كانت نصراً وصف الرسول صلى الله عليه وسلم ما قام به خالد بن الوليد في الغزوة فتحاً[4].

وقد ذهب بعضهم للحديث عن النتائج غير المباشرة، إذ إنّ المسلمين لم يحصلوا بها على الثأر، لكنها أثّرت في سمعة المسلمين، إذ إنها ألقت العرب كلهم في الدهشة والحيرة، فقد كان الروم أكبر وأعظم قوة على وجه الأرض، وكانت العرب تظن أنّ مواجهتها أمر مستحيل، فلما كان لقاء هذا الجيش الصغير ثلاثة آلاف مقاتل ــ مع ذلك الجيش الضخم العرمرم الكبير ــ ثم الرجوع من الغزو من غير أن تلحق بهم خسارة تذكر، فسقط الوهم الذي كان يعتقده الروم بأن العرب لا يمتلكون الجرأة على مواجهتهم أو التصدي لهم وأزالت حاجز الخوف من نفوس

---

1 ـ بيضون: تاريخ، ص122

2 ـ ابن سيد الناس: عيون الأثر، ج2، ص155

3 ـ عرجون:(محمد الصادق)، خالد بن الوليد، الدار السعودية للنشر والتوزيع، 1401هـ ـ 1981م، ط1، ص71

4 ـ الشجاع: دراسات، ص187

المسلمين من قوة الروم، وأظهرت قوة المسلمين للدول المحيطة بالجزيرة العربية فزعزعت ثقة عرب الشام بحلفائهم الروم.

ولذلك فالقبائل اللدودة التي كانت لا تزال تثور على المسلمين، جنحت بعد هذه المعركة إلى الإسلام، فأسلمت بنو سليح وأشجع، وغطفان، وذبيان، وفزارة، وكانت هذه المعركة بداية اللقاء مع الروم[1]. وكان ذلك أول اشتباك جرى بين المسلمين وبين الغساسنة والروم، و أول تجربة حربية تجتازها الدولة العربية الإسلامية على مستوى دولي، كما أنها كانت تجربة دقيقة ومثيرة على المستويين السياسي والديني لدولة النبي الصاعدة، التي طرحت نفسها قوة جديدة، قادرة على حماية وجودها في وجه القوة التقليدية في مطلع القرن الأول الهجري السابع الميلادي، بل إنها رفعت المعنويات، وكانت البوابة الفعلية التي عبرت منها جيوش الفتح العربي الإسلامي المنظم إلى بلاد الشام.

على أن قريش عدت مؤتة ضعف لسلطان المسلمين، وبداية لسلسة من الهزائم، وعندئذ عزموا على إعادة الأمور إلى مثل ما كانت عليه قبل الحديبية، وذلك بنقض الصلح المذكور[2].

وللمعركة أهمية لدى المسلمين، فقد رفعت معنوياتهم وحطّت من معنويات الروم وحلفائهم، إذ لوحظ إصرار من قبل المسلمين على القتال على الرغم من كل الظروف، فتكوّن على المدى البعيد مقاتل سعى طوعاً إلى الشهادة، وشكّل رافداً جديداً لتراث المسلمين في هذا المجال، كما شكل أداة التعبير الفاعلة في حركة الفتوح والتطورات الجذرية الممتدة مابين مؤتة ومعارك الفتوح الكبرى في العصر الراشدي، وهي بذلك خرجت من الطابع الثأري المتداول، وعدت خطوة طليعية في التاريخ العسكري للمسلمين خارج النطاق الحجازي.

كما شكّلت حافزاً متجدداً لهذه السياسة وبداية لجولات أخرى مع الروم، وهذه الجولات ستتم في ظروف أخرى وتنتهي بسقوط دولة الروم على أيدي المسلمين في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومن هنا لم يكن هرقل ليغفل عن ذلك الأثر الذي تركته المعركة في نفوس العرب الموالين للإمبراطورية والراغبين في الاستقلال عن قيصر، ورؤيته لبداية ميلانهم باتجاه المسلمين، وإنّ هذا يشكل خطراً يتقدم بخطى حثيثة إلى حدوده خطوة بعد خطوة، وينذر بحروب لاحقة تهدده من جهة الجنوب، فرأى ضرورة القضاء على قوة المسلمين أنفسهم حتى لا يثيروا القلاقل والثورات في المناطق العربية المجاورة للروم.

---

[1] ـ المباركفوري:(صفي الدين)، الرحيق المختوم، المطبعة العالمية، 1422هـ ـ 2001م، ط1، ص136

[2] ـ سالم: التاريخ السياسي، ص145 ـ ص146

غزوة ذات السلاسل:

قلّت بعض القبائل التي كانت في شمال الجزيرة العربية من شأن المسلمين، وكان لابد إزاء هذه الحال أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم بغوثه إلى تلك القبائل لتأديبها حتى تعود للمسلمين هيبتهم، ففي أعقاب مؤتة سمع الرسول صلى الله عليه وسلم أن جمعاً من بليٍ و قضاعة والروم قد تجمّعوا ضد المسلمين يريدون الإغارة على أطراف مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم[1]، فشعر بأمس الحاجة إلى القيام بحكمة بالغة توقع الفرقة بينها وبين الروم، وتكون سبباً للائتلاف بينها وبين المسلمين، حتى لا تحتشد هذه الجموع مرة أخرى[2]. كما أنه لابد من الضغط اقتصادياً لتمهيد السبيل لفتح مكة وذلك بالحصول على موارد قريش وإمكاناتها وطاقاتها وزيادة الضغط عليها من أجل التسليم ومن هنا كان لابد من حرب استباقية.

لذلك وفي شهر جمادى الآخرة من سنة /8هـ / تشرين الأول /629م / دعا عمرو بن العاص وكلفه بقيادة الحملة الهجومية الدفاعية التأديبية التي أمر بإعدادها، فاستجاب عمرو بن العاص لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم وهذا دليل على إخلاصه وقوة إيمانه وحرصه على ملازمة الرسول صلى الله عليه وسلم[3].

وهنا لا بد من التساؤل الآتي: لماذا تمّ اختيار عمرو بن العاص دون غيره لقيادة هذه الحملة؟ ذلك لأن الرسول صلى الله عليه وسلم حاول أن يستفيد من قرابة عمرو بن العاص لهذه القبائل وأراد أن يستميلهم؛ إذ إنّ أم العاص بنت وائل كانت قضاعية[4]، بالإضافة إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم علم أن أخواله يطيعونه ولا يطيعون غيره للقرابة بينهم بالإضافة إلى أنه اشتهر بحسن سياسته وخبرته ودهائه وذكائه إذ كان من أدهى العرب، وكل هذا يفسر اعتماده على عمرو بن العاص. وفي ذلك إشارة إلى أن هذه الجموع لم تكن مجموعة للحرب وإنما كانت للدعوة واستمالة تلك القبائل. وما أكد ذلك العدد إذ إنها لم تكن أعداد جيش ذاهب لقتال، كما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد بنى الرجال وأنشأ الجيل الأول على يديه، ومنهم عمرو ابن العاص الذي جاءت صياغته كاملة وبلغ مرحلة القيادة، فأراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يسخّر هذه الطاقات في سبيل الله فكانت دعوته لعمرو بن العاص[5]، إذ عقد له لواء أبيض

---

[1] ـ الواقدي: المغازي، ج2، ص770 ـ ابن عساكر: التاريخ الكبير، م1، ص102 ـ ابن الأثير: الكامل، ج2، ص109

[2] ـ المباركفوري: الرحيق ، ص336، 337

[3] ـ البلاذري:(أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البغدادي ت 279هـ / 892م)، أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف، مصر، 1959م ج1، ص460

[4] ـ ابن حنبل: مسند، ج4، ص177ـ الطبري: تاريخ، ج2، ص315 ـ ابن عساكر: التاريخ الكبير، م1، ص103 ـ الذهبي: المغازي، ص514 ـ الطيب: موسوعة ، ج2، ص371

[5] ـ الغضبان:(منير محمد)، عمرو بن العاص الأمير المجاهد، مجلة جامعة أم القرى، مكة، 1421هـ ـ 2000م، ط1، ص154

وبعثه في ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار ومعهم ثلاثون فرساً، فسار الليل وكمن النهار[1]، واقتصاره على السير ليلاً حقق له سلامة جيشه إذ أخفى تحركاته وجعلها سرية.

فلمّا اقترب منهم علم أنّ لهم جمعاً كثيراً فنزل قريباً منهم في منطقة ذات السلاسل[2] وهي بأرض جذام[3]، وراء وادي القرى[4]، وكان الفصل شتاءً فجمع أصحابه الحطب ليشعلوه، فمنعهم من ذلك، حرصاً عليهم وعلى سلامتهم، وهذا الرأي أظهر طبيعة التربية الجديدة التي ظهر بها الجندي العربي، فعلى الرغم من كل التأويلات التي يمكن أن تظهر من رفض عمرو بن العاص لإشعال النار رغم شدة البرد وتوافر الحطب، إلا أنّ باقي القادة التزموا بأوامره ولم يخالفوها عملاً بالآية الكريمة:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا }[5]. فقد ثبت على رأيه وظهر الانضباط الكامل، وفي ذلك دلالة على خبرته القيادية وقدرته على مواجهة كل الظروف مهما زادت في صعوبتها. وبعث رافع بن مكيث الجهني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلب المدد، واختياره لم يكن عفوياً بل كان لأسباب، فرافع بن مكيث جهني وهذه ديار جذام وقريبة لديار جهينة وطريقهما واحد إلى المدينة، وبالتالي فإنه يعرف المنطقة جيداً، بالإضافة إلى خبرة رافع في الصحراء وكفاءته الذاتية، ولهذا السبب كانت سرعته فائقة في الذهاب والعودة بالمدد[6]. فأرسل له مائتي جندي بقيادة أبي عبيدة بن الجراح ومن بينهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فأمره أن يكونا جمعاً ولا يختلفا[7]، فأصبح العدد خمسمائة وهذا العدد يدل على أن عمرو لم يستطع أن يجتذب إلى جيشه أحداً من القبائل التي مر بها حتى أخواله[8].

وبوصول أبي عبيدة بن الجراح برزت مشكلة جديدة وهي لمن تكون القيادة فكان لكل واحد حجته ومسوغاته، إذ قال له عمرو بن العاص:" إنما جئت مدداً لي". وكأنه يقول له أنّ المدد إنما يكون تحت قيادة القائد الذي طلبه، فرد عليه أبو عبيدة وقال:" لا، ولكني على ما أنا عليه وأنت على ما أنت عليه". فرفض عمرو ذلك، وهنا برزت حكمة أبي عبيدة الذي قال:" يا عمرو إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي، لا تختلفا، وإنك إن عصيتني أطعتك". قال فإني الأمير

---

1 - الواقدي: المغازي، ج2، ص770 - ابن سعد: الطبقات، ج2، ص99 - عبد الهادي:(مهدي)، تطور العلم العربي من الفتح الإسلامي حتى مطلع القرن العشرين، عمان الأردن، 1986م، ط1، ص2

2 - الملحق، الخريطة رقم(1)

3 - الحموي: معجم، ج2، ص223

4 - ابن سعد: الطبقات، ج2، ص99

5 - سورة النساء، الآية(59)

6 - الغضبان: عمرو ، ص162

7 - الزهري: المغازي، ص150 - الواقدي: المغازي، ج2، ص770 - ابن عساكر: التاريخ الكبير، م1، ص103

8 - عباس: تاريخ، ص209

عليك، وأنت مدد لي، قال فدونك. فصلّى عمرو بالناس[1]، وبذلك أدرك أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه أن أي اختلاف بين المسلمين في سرية ذات السلاسل يؤدي إلى الأخفاق، وبالتالي انتصار العدو، لذلك سارع إلى قطع النزاع وعدّ نفسه جندياً تحت إمرة عمرو بن العاص امتثالاً لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم "لا تختلفا". قال تعالى:{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ }[2]. وبهذا التنازل من قبل أبي عبيدة تلقى درساً عظيماً في التربية من الرعيل الأول.

فسار جيش المسلين حتى وصل إلى أقصى بلاد بلى وعذرة وبلقين ولقي في آخر ذلك جمعاً ليس بالكثير، فقامت بينهم معركة استخدموا من خلالها النبل وأصيب ذراع عامر بن ربيعة بسهم يومها، وانتصر المسلمون في هذه المواجهة ولم يترك عمرو بن العاص جمعاً إلا وتبعه. وجلب الخيالة المؤن من النواحي التي انتشروا فيها[3]. وبهذا الإجراء أمّن الجيش كل مستلزماته من المؤن فيما حصل عليه من الشاة والنعم؛ مما كان له أكبر الأثر في زيادة قوة المسلمين وإضعاف المشركين.

وأرسل عمرو بن العاص عوف بن مالك الأشجعي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يخبره بما أنجزوه[4]، ووصل والرسول صلى الله عليه وسلم يصلي في بيته[5]. وممّا يُذكر عن عوف ابن مالك الأشجعي أنه مر على قومٍ بأيديهم جزور قد عجزوا عن عملها، فعملها عوف مقابل جزء منها، فأكل وأكل معه كل من أبي بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وسألاه بعد ذلك عن مصدر ذلك اللحم، فأعلمهم مصدره، فقاما يتقيآن[6]، وفي ذلك دلالة على الأثر العميق لتعاليم الدين الجديد في نفوس المسلمين، إذ ابتعدوا عن كل ما يقع فيه شبهة.

وعندما عاد عمرو بن العاص توجه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بسؤال عن أحب الناس إليه ظناً منه أن له مكانة لديه بعد أن عينه قائداً لجيش فيه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما. فكان جواب محمد صلى الله عليه وسلم عائشة ثم أبي بكر ..... وبذلك خالف توقعاته[7].

وبعد ذلك شكا الجند عمرو بن العاص إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بسبب عدم سماحه لهم بإشعال النار فرد عمرو بن العاص بأنه كان يخشى أن يرى عدوهم قلتهم فيتبعوهم[8]، فأيده الرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك. وبذلك نجحت هذه الغزوة في تحقيق أهدافها في تمزيق

---

1 ـ ابن هشام: السيرة ، ج2، ص623 ـ ابن عساكر: التاريخ الكبير، م1، ص103
2 ـ سورة الفتح، الآية(29)
3 ـ الواقدي: المغازي، ج2، ص771 ـ ابن عساكر: تاريخ، ج2، ص23
4 ـ ابن سعد: الطبقات، ج2، ص100 ـ ابن كثير: البداية، ج3، ص314
5 ـ ابن كثير: البداية، ج3، ص314
6 ـ الواقدي: المغازي، ج2، ص773
7 ـ الواقدي: المغازي، ج2، ص774 ـ ابن كثير: البداية، ج3، ص314ـ الذهبي: المغازي، ص514
8 ـ ابن عساكر: تاريخ، ج2، ص27 ـ الذهبي: المغازي، ص516

هذا التحالف وتفريق هذه الجموع فكان الهجوم خير وسيلة للدفاع، فحمى المدينة من هجوم كان شبه مؤكد، وجاء بمثابة إعلان بأن موازين القوى قد تغيرت، وصحّحت بنتائجها الإيجابية الوضع الذي كان سائداً في شبه الجزيرة، وقضت على كل أمل لدى قريش من محاولة استثمار ما عدّوه هزيمة في مؤتة، ممّا كان له أكبر الأثر في الانتصارات التي حققها المسلمون في داخل الحجاز على قريش، كما اكتسبت هذه الغزوة أهمية خاصة من أهمية جيشها فقد ضم جيش عمرو بن العاص خيرة الأنصار ومنهم سعد بن معاذ بن بشر وأسيد بن خضير(1)، وعدد من المهاجرين ومنهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وأبو عبيد بن الجراح، إذ إنّ هذا الجمع لم يجتمع إلا تحت راية الرسول صلى الله عليه وسلم في الغزوات التي كان يقودها، ولذلك دلالة واضحة تمثّلت بمدى أهمية الشخص الذي قدمه الرسول صلى الله عليه وسلم على هؤلاء القادة الكبار وعبقريته. كما ظهرت ثقة الرسول صلى الله عليه وسلم به على الرغم من وجود من هو أقدم منه في الإسلام ومن هو أكثر خبرة في هذا المجال، وهذا لا يعني أنّ موازين الرجال قد تغيّرت واختلت، وإنما كانت هذه الإجراءات بمثابة المدرسة الجديدة التي ضمت أقدم رجال المسلمين وأبرزهم ليعملوا على تخريج هذا الجيل المؤمن والواثق بعدالة رسالته الإسلامية وعالميتها.

---

[1] ـ الغضبان: عمرو بن العاص، ص160

غزوة تبوك(9هـ / 621م) :

حاولت بيزنطة بعد مؤتة أن تفرض الحصار الاقتصادي على الحجاز لأن محمداً صلى الله عليه وسلم الذي أراد أن يجعل المدينة مركزاً اقتصادياً وسياسياً وإدارياً لا يُستبعد أنه وجه المسلمين إلى خليج العقبة للاستيراد فقامت بيزنطة بإغلاقه، لذا قاد الرسول صلى الله عليه وسلم بعد مؤتة وذات السلاسل وفتح مكة المسلمين لكسر هذا الحصار[1]، وكذلك انتصر على تحالف تألف من بطون هوازن وثقيف وغيرها من القبائل في غزوة حنين والطائف، فانقلبت الموازين تماماً وأصبح الإسلام قوة يحسب حسابها، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وبذلك متن الرسول صلى الله عليه وسلم جبهته الداخلية، فعاد ووجّه عدة غزوات وصلت حتى حدود الشام قبل أن يقود بنفسه الغزوة الأخيرة التي عرفت بغزوة تبوك والتي كانت استكمالاً للغزوة التي سبقتها غزوة ذات السلاسل إلا أنها كانت أكبر عدداً وعدة؛ والسبب فيها ما نقله الساقطة إلى المدينة من أخبار عن الشام، ومضمونها أن الروم جمعت جموعاً كثيرة بالشام، وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة كاملة، وعسكروا مع لخم وجذام وغسان وعاملة في البلقاء[2].

وطبعاً لم يكن معروفاً مدى صدقهم، وغايتهم من نقل هذه الأخبار. وقد ذكرت أسباب عدة لهذه الغزوة إلا أنّ الزمن الذي تمّت فيه الغزوة يثبت أنّ تجمع الروم هو السبب الأقرب إلى الواقع.

حيث وجد الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه أمام خيارين لرد هذه الجموع؛ إما تركهم يداهمون الإسلام والمسلمين في عقر دارهم[3]، وبذلك يكون قد خسر المسلمون الكثير من المكاسب التي حقّقوها، أو مفاجئة الأعداء في مكان تجمعهم فتكون حرب وقائية. فأخذ بالخيار الثاني وذلك لعدة أسباب منها: إظهار قوة المسلمين وعزّتهم وحرص النبي صلى الله عليه وسلم على عدم اقترابهم من المسجد الحرام.

ويمكن إضافة سبب آخر تمثّل باستجابة طبيعية لفريضة الجهاد حيث يصبح الجهاد فريضة سادسة على كل مسلم قادر على حمل السلاح عند تعرض ديار الإسلام للخطر عملاً بالآية القرآنية الكريمة:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ }[4]. وقد رأى الرسول صلى الله عليه وسلم أن تحرك الروم في أرض العرب يعني انحسار الانتصار الذي أحرزه الرسول صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة

---

[1] - وهذا يؤكد أن من بعض الأسباب لغزوة مؤتة كما سلف ذكره الحصول على السلاح استعداداً لفتح مكة.

[2] - الواقدي: المغازي، ج3، ص989، 990 - ابن سعد: الطبقات، ج2، ص125 - ابن الأثير: الكامل، ج2، ص145 - الدياربكري: تاريخ الخميس، ج2، ص122

[3] - أبو خليل: في التاريخ، ص197

[4] - سورة التوبة، الآية(123)

وحنين والطائف وخيبر، مما كان له أثر في بث الرعب في قلوب العرب، وبالتالي تغيير لصورة القوة التي ظهر بها الجيش الإسلامي.

ولم يعتد الرسول صلى الله عليه وسلم الإفصاح عن وجهته إلا أنه في هذه الغزوة أعلن عنها[1]، وذلك لشدة الحر وبعد الطريق وقوة العدو[2]، فالزمان زمان حر وعسرة في الزاد والمال[3]، ففي الأيام التي يولي فيها الصيف وقبل أن يبدأ الخريف، ترتفع الحرارة بعد أن تكون الأرض قد اختزنت حرارة الشمس طوال شهور الصيف، فتصبح رمال الصحراء كقطع من الجمر، ومن هنا تزداد الحاجة إلى الماء، بالإضافة إلى أن الطريق الذي سيسلكونه في منطقة صحراوية قليلة الماء والنبات؛ ولهذا السبب قوبل الاستنفار بفتور من المنافقين وتثاقل من بعض الصحابة[4]، كما أن كثرة عدد الروم وخبرتهم وحداثة أسلحتهم تتطلب إعداداً خاصاً، ومن هنا لابد من الإعلان عن الوجهة ليتجهّز الناس بالعتاد والمؤن الكافية ولكي لا ينقص عليهم شيء، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يدل هذا الإعلان على أن الإسلام فرض قوته ووجوده في كل أنحاء الجزيرة ووصل إلى درجة كبيرة من الثقة بهذه القوة وعدم مبالاته بأعداء دعوته، بالإضافة إلى أن موقف القوة هذا يلقي الذعر في قلوب الأعداء. كما أنه لم يعد هناك مجال للكتمان في هذا الوقت، إذ لم يبق في جزيرة العرب قوة معادية لها خطرها تستدعي هذا الحشد الضخم سوى الروم ونصارى العرب الموالين لهم في منطقة تبوك و دومة الجندل والعقبة وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القبائل وإلى مكة يستنفرهم ويحضهم على القتال والجهاد[5]، وحضّ أهل الغنى على النفقة، فتسابق المسلمون في إنفاق المال وبذل الصدقات، وتبرع عثمان ابن عفان بألف دينار وألف بعير وسبعين فرساً [6]، وتبرع أبو بكر رضي الله عنه بماله كله أربعة آلاف درهم، وجاء عمر رضي الله عنه بنصف ماله، وحمل العباس بن عبد المطلب وطلحة بن عبيد الله وعبد الرحمن بن عوف مالاً وتبرعوا[7]، ويفسر لنا هذا طبيعة الحرب في الإسلام فهي ليست للاعتداء وإنما للدفاع عن الدين والبلاد.

أضف إلى ذلك أنّ إنفاق الصحابة هذا يظهر فلسفة رائعة في الغنى وتضحية لا مثيل لها في سبيل إعلاء كلمة الله، فالمال كله لله وينفق في سبيله[8].

---

[1] ـ الواقدي: المغازي، ج3، ص990 ـ البيهقي: دلائل، ج4، ص213 ـ ابن عبد البر: الدرر، ص238 ـ الذهبي: المغازي، ص627

[2] ـ البيهقي: دلائل، ج4، ص213 ـ ابن الأثير: الكامل، ج2، ص189 ـ ابن سيد الناس: عيون، ج2، ص215

[3] ـ ابن الأثير: الكامل، ج2، ص145 ـ الدياربكري: تاريخ الخميس، ج2، ص123

[4] ـ سالم: التاريخ،ص153

[5] ـ الواقدي: المغازي، ج3، ص990 ـ الدياربكري: تاريخ الخميس، ج2، ص123

[6] ـ ابن سيد الناس: عيون، ج2، ص216 ـ الدياربكري: تاريخ الخميس، ج2، ص123

[7] ـ الواقدي: المغازي، ج3، ص991 ـ ابن حنبل: مسند، ج4، ص177

[8] ـ أبو خليل: في التاريخ، ص199

وتجمّع لدى الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثون ألفاً، ولهذا العدد في تلك الظروف دلالته الواضحة والتي تمثّلت في استجابة المؤمنين لمتطلبات المرحلة ولو كانت الظروف لا تسمح بذلك، كما أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم طبّق لأول مرة مبدأ الحرب الشاملة إذ عبّأ كل قادر على حمل السلاح، وكانت الإبل اثني عشر ألفاً والخيل عشرة آلاف واستخلف على المدينة محمد ابن مسلمة ويقال سباع بن عرفطة، وخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب على أهله[1]. وكانت الغزوة في شهر رجب يوم الخميس في سنة (9هـ/630م)[2] وهي آخر غزواته، وقد تعددت أسماء هذه الغزوة فسميت بتبوك المنطقة الواقعة منتصف الطريق من المدينة إلى دمشق[3].

وسميت كذلك بالفاضحة لافتضاح أمر المنافقين فيها[4]، وكشفهم عن أساليبهم العدائية الماكرة وأحقادهم الدفينة ونفوسهم الخبيثة، وعرفت بغزوة العسرة لعسرة النفقة والماء والطعام[5]. فقد قال الله سبحانه وتعالى:{ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ }[6].

ولما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك تخلّف عدد من الرجال فقالوا: يا رسول الله، تخلف فلان، فيقول دعوه إن يكُ فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يكُ غير كذلك فقد أراحكم الله منه[7]. وكان الدليل في السير إلى تبوك علقمة بن الفغواء الخزاعي منطلقاً من ثنية الوداع ، وعندما وصلوا وادي القرى، لم يجد المسلمون أيّاً من الحشود التي أخبر بها الساقطة الأنباط، وهنا لابد من التساؤل، ما غاية الأنباط من تزييف الأخبار؟ وهل قصدوا ذلك؟ أم أنّ مصادر الأنباط لم تكن موثوقة إذ إنّهم سمعوا ولم يشاهدوا.

أم هل علم الروم أنّ الأنباط ينقلون الأخبار للمسلمين؟ فزيّفوها بغاية تقدير قوة المسلمين التي بدأت تظهر وتتطوّر بشكل سريع، وتقلق القوة المعاصرة؟. أم إن الروم انسحبوا لمّا رأوا ضخامة جيش المسلمين؟.

على الرغم من مكث الجيش النبوي لأيام في تبوك إلا أنّ القيادة البيزنطية في الشام لم تفكر مطلقاً بالدخول معه في قتال، وعلّل بعضهم سبب عدم مجيء الروم لمواجهة المسلمين بأن الروم

---

[1] ـ الواقدي: المغازي، ج3، ص996 ـ ابن سعد: الطبقات، ج4، ص125 ـ البلاذري: أنساب الأشراف: ج1، ص443 ـ البيهقي: دلائل، ج4، ص219 ـ الذهبي: المغازي، ص631

[2] ـ ابن العبري: تاريخ، ص162 ـ ابن العماد الحنبلي:(أبي الفلاح عبد الحي ت1089هـ / 1678م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، ج1، ص13

[3] ـ الملحق، الخريطة رقم(1)

[4] ـ الدياربكري: تاريخ الخميس، ج2، ص122

[5] ـ البيطار: الرسول ، ص12

[6] ـ سورة التوبة، الآية(117)

[7] ـ الذهبي: المغازي، ص631، 632

قد أدركوا أنّ وجهة المسلمين هي بلاد الشام، لذلك أرادوا استدراجهم إلى هناك لمواجهتهم بجيش يحقق الانتصار الأكيد، إلا أنّ المسلمين خالفوا التوقعات ولم يستمروا بالمسير[1]. وآثرت القبائل العربية المتنصرة السكون، أمّا حكام المدن المتواجدون في أطراف الشام فقد آثروا الصلح، فقد صالح يوحنة بن رؤبة صاحب آيلة[2] على الجزية ومقدارها ثلاثمائة دينار، وصالح أهل أذرح على مائة دينار في كل رجب، و صالح أهل جرباء وأهل مقنا على ربع ثمارهم[3]. ومن خلال هذه المعاهدات تمكّن الرسول صلى الله عليه وسلم من تأمين حدود الدولة الإسلامية من جهة الشمال وشلّ كل حركة لتلك القبائل وحررها من تبعيتها للروم.

ثم أرسل المصطفى صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلى أكيدر حاكم دومة الجندل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لخالد إنك ستجده يصيد البقر فوجده كذلك فعاد به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحقن دمه وصالحه على الجزية ثم أخلى سبيله[4]. وظهرت هنا نبوءة الرسول صلى الله عليه وسلم مرة أخرى والتي قادت إلى كشف الكثير من الأمور وحسم الكثير من الأحداث.

وشاور رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه في التقدم شمالاً وذلك لعدم مواجهتهم لأي عدو، فرد عمر قائلاً : إن كنت أُمِرْتَ بالمسير فسر! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" لو أمرت به ما استشرتكم به!". فقرّروا العودة إلى المدينة[5]. لأنّ التقدم إلى الشام كان يحمل في طياته خطورة على المسلمين؛ بسبب كثرة جموع الروم ولم تكن هناك خطورة في عدم التقدم حيث لم تظهر بوادر تشير إلى زحف الروم نحو الحجاز[6].

وفي طريق العودة همّ اثنا عشر رجلاً من المنافقين بقتل الرسول صلى الله عليه وسلم وذلك حينما مر ببطن الوادي في العقبة، فهجموا على الرسول وهم متلثمون، عند ذلك بعث الرسول صلى الله عليه وسلم حذيفة بن اليمان الذي كان يقود ناقة الرسول فضرب وجوه رواحلهم بمحجن كان معه، فأرعبهم الله، فأسرعوا في الفرار وأخفق مخططهم[7]، وعاد الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يحدث أي قتال إلا أن ما حققه فيها قد تعجز عنه المعارك نفسها، إذ كانت تطبيقاً رائعاً لإستراتيجية الهجوم غير المباشر التي طبقها الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه ربح

---

[1] ـ الكاتب:(عبد الحميد)، القدس، دار الشروق، القاهرة، 1415هـ ـ 1994م، ط1، ص33

[2] ـ آيلة: مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام وهي مدينة اليهود الذين حرّم الله عليهم صيد السمك يوم السبت (الحموي، معجم، ج1، ص992).

[3] ـ ابن الأثير: الكامل، ج2، ص191 ـ الكيلاني:(إبراهيم زيد)، المراسلات النبوية مع بعض القبائل العربية في جنوب بلاد الشام، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، الندوة الثانية، ص94

[4] ـ ابن سعد، الطبقات: ج4، ص126 ـ البلاذري: فتوح، ص85 ـ ابن عبد البر: الدرر، ص242 ـ ابن سيد الناس: عيون الأثر، ج2، ص220 ـ الدياربكري: تاريخ الخميس، ج2، ص128

[5] ـ الواقدي: المغازي، ج3، ص1019 ـ البيهقي: دلائل، ج4، ص256

[6] ـ سالم: المسلمون ، ص116

[7] ـ البيهقي: دلائل، ج4، ص256 ـ ابن كثير: البداية، ج5، ص24 ـ المباركفوري: الرحيق المختوم، ص373

المعركة بالمناورة لا بالقتال، وكانت بمثابة فن الانتصار من دون حرب بل وكانت تطبيقاً لحرب إعلامية لم يألفها المسلمون سالفاً، وحرباً وقائية في الوقت ذاته لحماية المسلمين من خطر كان يتهددهم، فكانت نتائجها على صعيدين؛ فعلى الصعيد الخارجي امتدت حدود سيادة الإسلام إلى شمال أذرح الواقعة على بعد عشرين كيلو متراً إلى الشمال الغربي من معان[1]، وأصبح للمسلمين حلفاء على حدودهم الشمالية وذلك بعد انسحاب الروم شمالاً بعد أن أيقنوا أنه لا فائدة من حلفاء الأمس، فقامت بينهم وبين المسلمين معاهدات فتوطد سلطان المسلمين فيها، مما كان يعني نهاية التواجد الرومي على الخط الشمالي للجزيرة العربية، الذي أصبح مركز انطلاق في حروب المسلمين القادمة مع الروم، بالإضافة إلى دراسة الأرض ومعرفة ميزاتها للتقدم و التحشد والهجوم فجمعوا المعلومات الكافية عن تنظيم وتشكيلات جيش الروم وتجهيزاته ونوايا ومعنويات أفراده ونقاط القوة والضعف لديه من خلال سكان تلك البلاد[2]، فكانت إيذاناً بفتح الشام وشكلت أول خطواته العملية، كما أنها أظهرت القوة التي سعى الروم للكشف عن مداها وحدودها، وتم إسقاط هيبة الروم وقوتهم التي ترسّخت لدى العرب، كما أنها كشفت عن ماهية العلاقة بين الروم والعرب القاطنين في بلاد الشام قبل الإسلام التي امتازت بالسوء، فكان لذلك أثره في الإصرار على فتح الشام.

أما على الصعيد الداخلي، فقد امتحن الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين امتحاناً شديداً لصدق الإيمان وإخلاص اليقين في وقت العسر، فكان منهم من يسرع بالصدقة ومنهم من لا يسرع، فميز بين الصادقين والمنافقين[3]، إذ إنّ الأمم لا تنهض إلا بتطهير صفوفها من المنافقين، فتخلّص جيش العسرة من أمثال هؤلاء الرجال وافتضح أمرهم، وكشف عن نواياهم، واستبقى فقط الصادقين في الإيمان والعهد ولو كانوا قليلو العدد إلا أنهم أقدر على اكتساب النصر:{ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ }[4]. فظهرت روعة التربية الإسلامية وتشوق الجيل الذي رباه محمد صلى الله عليه وسلم لتحمل المشاق والصعاب في سبيل الله[5]، وظهر أثر الإيمان في نفوس المؤمنين الذين سارعوا لتلبية النداء سواء في التبرع أم في الانضمام للجيش العربي الإسلامي، إذ إنّ الصادقين الفقراء جاؤوا رسول الله يبكون ويطلبون ما يحملهم عليه إخلاصاً لدين الله وحباً بالجهاد لنصرة دين الله ونشر دعوته على قدر استطاعتهم، فما أعظم هذه التربية .. وما مصير أمة احتوت على هكذا نموذجاً من

---

1 - عباس: تاريخ، ص215

2 - الجبوري:(نهاد عباس شهاب)، تدابير الأمن العسكري في صدر الإسلام، بدون مكان وتاريخ ورقم الطباعة، ص70

3 - عباس: تاريخ، ص216

4 - سورة البقرة، الآية(249)

5 - أبو خليل: في التاريخ الإسلامي، ص206

الرجال..؟ فكانت تجربة كبيرة لمستقبل التعبئة النفسية والاستعداد العسكري لحروب الفتح المقبلة[1].

كما أنها بسطت نفوذ المسلمين وقوتهم على جزيرة العرب، فقد تبين للناس أنه ليس لأي قوة القدرة على العيش بين العرب سوى قوة الإسلام، التي كان شعارها تحرير الإنسان بعكس القوة التي عاصرتها، فتوحّدت الجزيرة تحت قيادة الرسول صلى الله عليه وسلم، وتمّ القضاء على بقايا أمل كان يتحرك في قلوب بقايا المنافقين، الذين عقدوا آمالهم على الروم فاستكانوا بعد هذه الغزوة واستسلموا للأمر الواقع، وبلغ التوافد إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بعد هذه الغزوة درجة كبيرة، وانتهى تردد المتخلّفين من القبائل العربية عن الالتحاق بالدين الجديد، وعليه فإن تبوك تعني نهاية حالة الحرب مع العرب وطهارة أرض العرب من حكم غير المسلمين لتبدأ على جهات خارجية، وارتفعت المعنويات لدى المسلمين، كما أنّها كانت تدريبية واختباراً بكل معنى الكلمة، فلم يقتصر التدريب فيها على القتال وإنما كذلك على السير الطويل وتحمّل المشاق.

وأخيراً تميّزت هذه الغزوة عن غيرها من الغزوات بأن ذكرها في القرآن شمل أحداثها بالتفصيل، بل كانت سورة بأكملها تخصّ هذه الغزوة وهي سورة التوبة، إذ ظهر فيها الحث على الجهاد قال تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }[2]. كما كشف القرآن الكريم في هذه الغزوة بعض الحقائق التي تخص المنافقين قال تعالى:{ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ }[3]. قال تعالى:{ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ }[4].

وبهذه الغزوة انتهت الغزوات النبوية والسرايا التي إما كانت بقيادة الرسول صلى الله عليه وسلم أو بتكليف منه وحققت الأهداف التي سعى إلى تحقيقها، فقد حمى دولة الإسلام من القبائل العربية التي عاشت ضمنها، وبذلك متّن جبهته الداخلية قبل أن يبدأ بنشاطه الخارجي، و حماها من الدول والإمبراطوريات المحيطة التي كثيراً ما حاولت القضاء عليها.

---

[1] - حمارنة: دور جذام، ص158

[2] - سورة التوبة، الآية(38،39)

[3] - سورة التوبة، الآية(42)

[4] - سورة التوبة، الآية(47)

ومن خلال مقارنة تلك الغزوات مع بعضها بعضاً يظهر لنا التزايد المطرد لقوة المسلمين في كل النواحي، وكانت كل غزوة بمثابة التمهيد بل القاعدة التي تستند إليها الغزوة التي تليها ذات العدد والعدة الأكبر والأضخم، كما أنّ هذه الغزوات أفرزت مدرسة نبوية لتخريج القيادات التي استطاعت فيما بعد الانتصار على الروم والفرس وغيرهم.

الفصل الثالث

الفتوحات زمن الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

- سرية أسامة بن زيد(11هـ /632م).
- تجهيز الجيوش لفتح جنوب بلاد الشام.
- فتح بصرى الشام(13هـ / 634م).
- معركة أجنادين(13هـ / 634م).

سرية أسامة بن زيد ربيع الآخر(11هـ /632م)

أقام الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة بعد حجة الوداع بقية شهر ذي الحجة والمحرم وصفر، وأعلن عن نيته إرسال جيش بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة، باتجاه بلاد الشام إلى منطقة أبني، وأمر الناس بالتهيؤ لغزو الروم البيزنطيين في تلك المنطقة[1].

واتفقت المصادر جميعها على تاريخ إرسال السرية ولكنها اختلفت في الوجهة، هل هي إلى المنطقة القريبة من مؤتة؟، أم إلى أيل الزيت؟. و اختلفت التفسيرات والمناقشات حول الأسباب، فمنهم من قال سببها الثأر لمقتل زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة وشهداء مؤتة[2]، إلا أنّ استشهاد هؤلاء القادة ليس بالجريمة الفردية التي يعاقب عليها القاتل وحده، وإنما هي مسألة الجيش كله، وهيبة الأمة التي أرسلت ذلك الجيش، فإن لم يتمكن هذا الجيش من تحقيق غايته فقد بطل الغرض كله من القتال[3].

ومنهم من رأى أنّ استكشاف الغاية من وراء هذه الغزوة أمراً غير بسيط بل و من غير الممكن [4]. ويُفهم من وصية النبي صلى الله عليه وسلم السرعة في السير ذلك أنه أمر بهجوم مباغت على أهل المنطقة بعد استطلاع جيد وتحديد للهدف كي يسهل تحقيقه بأسرع ما يمكن حتى لا يتكاثر أعداؤهم عليهم[5]. بالإضافة إلى أنها وقعت بين حروب الردة وفتوح الشام مما زاد الأمر غموضاً[6].

ولكن يستدل من عمل الرسول صلى الله عليه وسلم هذا وأعماله الأخرى فيما يخص الشام أنه إنما يسعى لإتمام المخطط الذي رسمه، ألا وهو فتح الشام والتأسيس للفتوحات اللاحقة. هذا من جهة ومن جهة ثانية شكّلت هذه الغزوة نوعاً من أنواع الحرب النفسية أي منع الروم من التفكير في مهاجمة المسلمين[7]. كما أنها سعت إلى تأديب القبائل العربية القاطنة في أطراف الشام التي اعتادت التآمر على المسلمين، ولإظهار قوتها التي كرست بأكملها لتحقيق الغاية المرجوة التي أصبحت العنوان البارز لكل تحرك ونشاط، وهي نشر الدين الإسلامي.

وبُدأ تجهيز الجيش وضم كبار الصحابة ومنهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص وأبو الأعور سعيد بن زيد وقتادة بن النعمان وسلمة بن أسلم بن حريش[8]، واحتج رجال من المهاجرين ومنهم عياش بن أبي ربيعة على تأمير أسامة

---

1 ـ الواقدي: المغازي، ج3، ص1117
2 ـ الواقدي: المغازي، ج3، ص1118 ـ ابن هشام: السيرة، ق2، ص606 ـ ابن سعد: الطبقات، ج2، ص145
3 ـ العقاد: العبقريات، ص316
4 ـ التحريق: أي تخريب أرض العدو
5 ـ دسوقي: القبائل، ص100
6 ـ عباس: تاريخ، ص219
7 ـ الشامي: الخلفاء، ص39
8 ـ ابن سعد: الطبقات، ج2، ص145 ـ ابن سيد الناس: عيون، ج2، ص352

ابن زيد على كبار الصحابة والأنصار، فردّ الرسول صلى الله عليه وسلم وقال:" لأن قالوا في إمارته لقد قالوا في إمارة أبيه من قبله ولئن كان أبوه لخليقاً لها وإنه لها لخليق فا نفذوا بعث أسامة"[1]. فحكمة الرسول صلى الله عليه وسلم أقنعت من كان يتكلم في إمرة أسامة بن زيد. فالرسول صلى الله عليه وسلم أظهر ثقته بهذا الشاب الصغير في السن، ولذلك دلالته الواضحة على أن الإسلام أكدّ أن لكل امرئ دوره في مسيرة الدعوة مهما كبر في سنه أو صغر وأن الكفاءة لا تتعلق بالسن، ولا يمكن أن يمثل صغر السن عقبة أمام الإنجاز العسكري.

جهز الرسول صلى الله عليه وسلم الجيش يوم الخميس وزوده ببعض الوصايا، وكاد يخرج إلا أنه حدث ما لم يكن في الحسبان فقد مرض الرسول صلى الله عليه وسلم، فأشارت عليه أم أيمن أن يؤخّر إرسال الجيش حتى يتماثل للشفاء ولكنه رفض، فجاء أفراد الجيش ليودّعوه، ونزل أسامة بن زيد يوم الأحد ليقابل الرسول صلى الله عليه وسلم، والرسول لا يتكلم، فرفع يده إلى السماء ثم وضعها على أسامة بن زيد، وهو بذلك كان يدعو له، وفي يوم الاثنين أصبح الرسول صلى الله عليه وسلم وقد تحسنت أحواله، ولم يعلم أحد أنها صحوة الموت واستأذنه أبو بكر الصديق للحاق بجيش أسامة بن زيد، وهكذا ظل الرسول صلى الله عليه وسلم مولياً الشام اهتمامه حتى آخر رمق في حياته لأهميتها بالنسبة إلى دار الإسلام وللدولة الإسلامية الناشئة وهي أول منافذه إلى العالم الخارجي[2].

وبينما يستعد الجيش للانطلاق أتى رسول أم أيمن إلى أسامة بن زيد يحمل خبر وفاة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، فعاد أسامة بن زيد إلى المدينة ومعه بقية القادة والصحابة وذلك يوم الاثنين لاثنتي عشرة خلت من ربيع الأول عام (11هـ / 632م)، وغرز بريدة بن الحصيب الأسلمي اللواء على باب الرسول صلى الله عليه وسلم[3].

وقد أنكر بعضهم مشاركة أبي بكر الصديق في جيش أسامة بن زيد متخذين إمامته للصلاة حجة:" كيف يكون في الجيش وهو إمام المسلمين بإذن الرسول من رب العالمين ولو فرض أنه كان قد انتدب معهم فقد استثناه الشارع من بينهم بالنص عليه للإمامة في الصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام"[4]. ولكن ما الرأي فيما ذكره ابن هشام أن من كبّر للصلاة هو عمر بن الخطاب[5]، أيمكن أن نجعل من ذلك دليلاً على عدم مشاركة عمر بن الخطاب في جيش أسامة ابن زيد؟! بالطبع لا، لأنّ الصلاة كانت في وقت الفجر والانطلاق كان بعد صلاة الفجر من يوم

---

[1] ـ الواقدي: المغازي، ج3، ص1119 ـ ابن هشام: السيرة ، ق2، ص650 ـ ابن سعد: الطبقات، ج2، ص145 ـ الذهبي: المغازي، ص714

[2] ـ ابن سعد: الطبقات، ج2، ص145 ـ الذهبي: المغازي، ص713 ـ دسوقي: القبائل، ص101

[3] ـ الواقدي: المغازي، ج3، ص1120 ـ ابن سعد: الطبقات، ج2، ص145

[4] ـ ابن كثير: السيرة، ج4، ص441

[5] ـ ابن هشام: السيرة، ق2، ص653

الاثنين هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان إعداد الجيش قبل مرض الرسول صلى الله عليه وسلم، أي أنه لم يكن هناك نقاش حول إمامة المسلمين في الصلاة في أثناء مرض الرسول صلى الله عليه وسلم[1].

المهم بعد انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى واستلام أبي بكر الصديق رضي الله عنه الخلافة حدث ما لم يكن بالحسبان، فقد ارتدّت بعض القبائل العربية فحاربها أبو بكر الصديق وفي الوقت ذاته طلب من أسامة بن زيد أن يتجّهز لمتابعة المهمة التي أوكلت إليه من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ إنّ وفاته لم تمنع الجيش من متابعة مهمته بل استمر في تنفيذها، فالدعوة لم يكن ارتباطها بشخص النبي صلى الله عليه وسلم فقط، بل ارتبطت بكل الأمة، وسيتم نشرها كما خطّط لها الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد هدف أبو بكر الصديق من هذا الموقف تنفيذ أوامر الرسول صلى الله عليه وسلم التي استوعبها دون غيره، أمّا الهدف الآخر فتمثّل بخشيته من أن يسيء الروم الظن بالدولة الإسلامية بعد انتصاراتهم على الفرس، فيقتحمون حدودها ويجوسون أرضها، ومن هنا كان حرصه على إنفاذه[2]؛ ليكون ذلك دليلاً مادياً على أن الإسلام مازال قوياً، وأنّ حالة المسلمين الحربية بعد وفاة نبيهم صلى الله عليه وسلم لا تقل عن حالتهم قبل وفاته، وأنهم لم يتزعزعوا من هول المصاب، بل هم على استعداد أن يؤدّبوا كل متمرد على تعاليم الإسلام[3].

كانت نتيجة النقاش والحوار بين أبي بكر والصحابة أن التزم الجميع بأوامره وإطاعة أولي الأمر، وقد تم ذلك من دون أن يحدث أي شقاق أو أي خلاف أو أي تنافر في صفوف المسلمين، وخرج الصديق لوداع الجيش بعد أن استأذن أسامة بن زيد باستبقاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه عنده، وهل هناك أكبر من هكذا تواضع في أن يستأذن الخليفة والقائد الأعلى من أحد القادة لديه في استبقاء أحد الأفراد؟. وأن يسير إلى جانب أحد قادته ماشياً وذلك القائد يمتطي خيله وذلك عندما خرج ليشيّعه، وقد أوصى أبو بكر الصديق رضي الله عنه ابن زيد بما أوصاه الرسول صلى الله عليه وسلم[4]. وبهذا نجد أن الخليفة أبو بكر الصديق اقتدى بالرسول صلى الله عليه وسلم في كل تصرفاته، وكان ذلك حلقة ربطت بين عهد النبوة وعهد الخلفاء الراشدين.

فكانت الانطلاقة في نهاية شهر ربيع الآخر سنة (11هـ / 632م)، وشعارهم "يا منصور أمت"[5].

---

[1] ـ الشامي:(محمد بن يوسف الصالحي الشافعي ت 942هـ / 1535م)، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ج6، ص248

[2] ـ تأليف لجنة من أساتذة جامعة الأزهر، دراسات في السيرة النبوية وعصر الخلفاء الراشدين، ط1، 1419هـ ، 1999م، ص239

[3] ـ طنطاوي: السرايا، ص151

[4] ـ اليعقوبي: البلدان، ص155

[5] ـ ابن سعد: الطبقات، ص147

فوصل إلى بلاد جهينة[1] الذين بقوا على الإسلام، ومن وادي القرى أرسل حريث العذري ليجمع الأخبار، فأخبره أن الظرف ملائم للهجوم عليهم، وبلغ هرقل خبر هذا التحرك وهو بحمص فدعا بطارقته[2] مخاطباً إياهم أنه قد حذّرهم، فأرسل رابطة أقامت في البلقاء وبقيت حتى قدّمت البعوث إلى الشام في خلافة الصديق[3]. وما أن وصل أسامة حتى بدأ القتال وسبى وحرق منازلهم ونخلهم، وقتل قاتل أبيه، فحققت الغزوة أهدافها، وعند المساء أمر الناس بالعودة إلى المدينة، وفي طريق عودته اعترضه أهل كثكث، فهزمهم وأسر منهم، وكان أسامة بن زيد قد أرسل بشيراً من وادي القرى إلى المدينة، وعندما عاد وسمع المسلمون بقدومهم خرجوا وعلى رأسهم أبو بكر لاستقبالهم، فوصلوا ودخلوا يتقدمهم بريدة يحمل اللواء، من ثم دخل المسجد وصلى ركعتين وتوجه إلى بيته[4]، ولم يخسر المسلمون أحداً من رجالهم في هذه الرحلة المباركة، وعادوا سالمين[5]، وعاد كل واحد من الجند إلى بيته ليأخذ قسطاً من الراحة. فلماذا هذه السرعة في العودة؟.ما يفسر عودة أسامة بن زيد بسرعة إلى الحجاز هو نجدة أبي بكر في معاركه ضد المرتدين من القبائل العربية[6]. حيث أعلن الخليفة التعبئة العامة لمحاربة الذين أعلنوا العصيان على حكم المدينة[7].

نجح الجيش في تحقيق النصر، وصدقت نظرة الرسول صلى الله عليه وسلم في أسامة بن زيد على أنه من كبار القادة، وتركت هذه السرية آثارها الواضحة إذ تراجع الكثير من المرتدين الذين كان رأيهم أنه لو لم يكن لهؤلاء قوة لما أرسلوا هذا الجيش[8]، بل إنهم قالوا أكثر من ذلك:" لولا أن لهؤلاء قوة، ما خرج مثل هؤلاء من عندهم ولكن ندعهم حتى يلقوا الروم". وما أن تمّ اللقاء بين الجيشين حتى ظهرت بوادر النصر لصالح المسلمين، بعد أن تكبد الروم الخسائر الفادحة في العدد والعدة مقارنة بخسائر المسلمين، وكانت النتيجة الأهم لهذه المعركة عودة القبائل التي كانت ارتدت وأعلنت العصيان إلى الإسلام وعودة الهدوء والسكون إلى أجواء الدولة العربية الإسلامية بعد أن خابت آمالهم في القضاء على قوة المسلمين في هذه المواجهة[9].

---

1 ـ بلاد جهينة: وهي من الحجاز في جهة خيبر.(الحموي: معجم، ج4، ص22)
2 ـ البطريق: هو القائد من قادة الروم وتحت يده عشرة آلاف رجل. الهاشمي:(عبد المنعم)، الخلافة الراشدة، دار ابن حزم، بيروت، 1423هـ - 2002م، ط1، ص85
3 ـ الواقدي: المغازي، ج3، ص1122، 1123، 1124
4 ـ ابن عساكر: التاريخ الكبير، م1، ص124 - ابن سيد الناس: عيون، ج2، ص352
5 ـ الهاشمي: الخلافة، ص34
6 ـ عاقل:(نبيه)، تاريخ عصر الرسول والخلفاء الراشدين، مطبعة أبي العلاء، دمشق، 1395هـ - 1975م، ص200
7 ـ بخيت:(عبد الحميد)، عصر الخلفاء الراشدين، دار المعارف، مصر، 1965، ط2، ص67
8 ـ الشامي: الخلفاء، ج1، ص29
9 ـ السيوطي:(جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ت911هـ / 1505م)، تاريخ الخلفاء، تحقيق ابراهيم صالح، دار البشائر، دمشق، 1417هـ - 1997م، ط1، ج1، ص29

كما وقد دب الخوف في قلوب القبائل فلم تتجرأ على مهاجمة المدينة، وكان ذلك منة عظيمة من الله وحسن رأي ونفاذ بصيرة من الخليفة رضي الله عنه. أضف إلى ذلك فقد زادت هذه السرية من هيبة الدولة الإسلامية، إذ إنّ مجرد كلام هرقل والإجراء الذي اتخذه دلالة على أن هناك تغيراً في موازين القوة بدأ بالظهور، مما كان له أكبر الأثر في ارتفاع المعنويات، ومهدت لبداية مرحلة جديدة من مراحل الدعوة في خارج حدود الجزيرة، وعلى الرغم من صغرها فقد شكلت فاتحة الفتوح الكبرى التي بدأت بعد ذلك بقليل، كما أنها كانت حرباً استباقية ووقائية حمت الدولة الإسلامية من أخطار كثيرة، اعتمدت على الانطلاقة المباغتة والسرعة القياسية مع الاعتماد على المُوثَّق من الأخبار لحسم المعركة وعدم استخدام غير المؤتمن في النقل، والسمة التي ظهرت في غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم أنها كانت نتيجة لفعل يقوم به الخصم، كتجميع الجموع أو تجبيش الجيوش أو تهيئة النفوس للغزو، أو التخطيط العقلي للإغارة.

تجهيز الجيوش لفتح جنوب بلاد الشام:

ما كاد أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقضي على المرتدين حتى تجهّز لفتح الشام ولاشك أن هناك مجموعة من الأسباب دفعت الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه لاختيار تلك اللحظة للإعداد والتجهيز لفتح الشام. إذ إنّ الدولة في تلك اللحظة ما زالت لديها القوة التي تجمعت للقضاء على حركة الردة مع العلم أن هذه القوة ليست نظامية، وإنما تجمّعت بعد استنفار الخليفة ودعوته فإذا ما توزّعت تلك القوات وتفرّقت فإنها ستحتاج إلى جهد كبير لإعادة تجميعها فكان لابد من استغلال تلك الفرصة.

أما السبب الآخر فتمثل بالآثار التي تركتها سرية أسامة بن زيد، إذ إنّ الروم لن يتركوا هذا الأمر يمر من دون انتقام فكان لابد من مفاجأتهم قبل أن ينفّذوا ذلك[1].

أما السبب الثالث فكان بسبب الانتصارات التي حقّقها الجيش الإسلامي بقيادة خالد بن الوليد في العراق[2]. مع العلم أن فتوح الشام كانت قبل العراق، بالإضافة إلى السبب الرئيس الذي تمثّل بنشر الرسالة الإسلامية والتي جاءت للناس كافة، وبشكل عام جاء هذا القرار ليشكّل مرحلة أخرى من مراحل تنفيذ الخطة التي وضعها الرسول صلى الله عليه وسلم لفتح الشام ونشر الدعوة الإسلامية خارج حدود الجزيرة.

وبناء على ذلك جمع الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه المجلس الاستشاري لديه، فدعا عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وطلحة بن عبيد الله التميمي والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وأبي عبيدة بن الجراح رضوان الله عليهم ووجوه المهاجرين والأنصار[3]. وعرض عليهم الأمر، عملاً بالآية الكريمة:{ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ }[4]. حيث شجعهم على الجهاد، وطلب إليهم أن يضعوا الخطة المناسبة لتحقيق الغاية المرجوة، فكان رأي عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يتم إرسال القوات بالتتابع، أما عبد الرحمن بن عوف فقد رأى ضرورة عدم الاستهانة بقوة الروم ورأى أن الأمر يتم بإرسال غارات استطلاعية لمعرفة مدى قوة الروم، مع الاستمرار بإرسال القوات لتحقيق التوازن وذلك من خلال استنفار قبائل عرب الجزيرة واليمن، ومن ثم يكون الهجوم العام بعد أن تتوفر له كل أسباب النجاح[5].

---

1 - حسن : تاريخ، ج1، ص224

2 - عبد الحميد:(صبحي) ، معارك العرب الحاسمة، بيت الحكمة، بغداد، 2003م، ط1، ص39

3 - الأزدي: فتوح الشام، ص2 - ابن عساكر: التاريخ الكبير، م1، ص126 - الدواداري:(أبي بكر بن عبد الله بن أيبك ت 736هـ /1335م)، كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق محمد السعيد جمال الدين، القاهرة، 1402هـ - 1981م، ج3، ص162

4 - سورة الشورى، الآية(38)

5 - الأزدي: فتوح الشام، ص2- 3 - العسلي: فن، ص9

أما بقية الصحابة فقد أعلنوا عن تأييدهم لأي رأي وأي خطة يطرحها الخليفة أبو بكر الصديق، وبعد أن أدلى كبار الصحابة بآرائهم وأجمعوا على البدء بعملية الفتح، نُقل النقاش إلى بقية الناس. فكانت النتيجة تأييد الجميع للخليفة أبي بكر الصديق في خطته[1]، والالتزام بكل أمر يأمر به الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

إذن نوقشت الخطط بين أصحاب الرأي والخبرة وتم تحديدها وذلك من خلال المجلس المصغر الذي ضم كبار الصحابة، ولم يتم القيام بأي إجراء إلا بعد الاستفتاء العام الذي أكد الالتزام بكل ما يراه الخليفة ومستشاروه.

والمفيد ذكره أنه بعد الاتفاق بين الخليفة والصحابة على الدعوة إلى التعبئة واستنفار القوى، حيث قام الخليفة في الناس يحثّهم على ذلك قائلاً:" إن الله قد أنعم عليكم بالإسلام وأكرمكم بالجهاد وفضلكم بهذا الدين على كل دين فتجهّزوا عباد الله إلى غزو الروم بالشام..."[2]. إذ إنّ الخليفة أبا بكر الصديق رضي الله عنه بعد أن أمن الإسلام في عقر داره بدأ بالعمل من أجل تأمين الإسلام في حدوده، ودفع خطر هجوم الأعداء عليه[3].

وفي أثناء خطاب أبي بكر الصديق رضي الله عنه صمت الجميع وقام عمر بن الخطاب وقال:" يا معشر المسلمين مالكم لا تجيبون خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد دعاكم لما يحييكم أما انه لو كان عرضاً قريباً أو سفراً قاصداً لابتدرتموه"[4]. فانبرى خالد بن سعيد بن العاص لتحمل المسؤولية، فكلفه أبو بكر الصديق بقيادة أول جيش لغزو الروم، فعقد اللواء في(2 ربيع الآخر 12هـــ / 16 حزيران 633م). إلا أنه عزل بعد نصيحة عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب رضوان الله عليهم وذلك بسبب ترتيبات وخطط الفتح التي اقتضت ذلك، لا كما ادعى بعضهم بحجة تأخّره في مبايعة أبي بكر بالخلافة، وجعله على رأس قوة احتياطية في تيماء فقط[5].

وبدأ الجيش بالتجمع في المعسكرات، و في أثناء ذلك خرج الخليفة أبو بكر الصديق وتساءل فيما إذا كانت هذه القوة كافية، فرد عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأنها لا تكفي، فاستشارهم أبو بكر الصديق فكان الرأي بضرورة مراسلة القبائل ودعوتهم إلى الجهاد، فبعث أنس بن مالك إلى اليمن[6] وكتب كذلك إلى أهل الطائف ومكة[1].

---

[1] ـ وتر: الريادة، ص149

[2] ـ الأزدي: فتوح الشام، ص11 ـ ابن عساكر: التاريخ الكبير، م1، ص127 ـ الكلاعي:(أبو الربيع سليمان بن موسى ت 634هـ ـ 1237م)، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي الرسول والثلاثة خلفاء، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي، عالم الكتب، بيروت، 1417هـ، ط1، ج3، ص108

[3] ـ لجنة من أساتذة جامعة الزهر: دراسات، ص241

[4] ـ ابن عساكر: التاريخ الكبير، م1، ص128

[5] ـ الأزدي: فتوح الشام، ص6 ـ الطبري: تاريخ، ج3، ص219 ـ الذهبي: تاريخ، ص81

[6] ـ الملحق، الكتاب رقم 1

فأقبلت قبائل اليمن ومعهم الذراري والأموال والنساء يتلو بعضهم بعضاً قبيلة إثر قبيلة وقوم إثر قوم، وأولها حمير ثم طيء ثم الأزد وتلتها عبس وبنو كنانة، وعندما رآهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه:" يا أبا الحسن أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا أقبلت حمير ومعها نساؤها تحمل أولادها فأبشر بنصر الله على أهل الشرك أجمعين". فاجتمع أكابرهم عند الصديق وطلبوا إليه أن يستعجل في إرسالهم[2]. و لعل مجيء القبائل بهذا الشكل يبين أنها إنما جاءت للاستقرار والاستيطان، وكان لكل قبيلة رايتها التي تعرف بها وشعارها الذي يجتمعون عليه[3]، وهنا لابد من تساؤل: هل كان هناك مشاركة من قبل القبائل التي ارتدت عن الإسلام في عملية الفتح؟. وكيف ستكون مشاركتها؟. ومتى ستكون هذه المشاركة؟. ومن سيحمل لواءها؟.

بدأ الخليفة أبو بكر الصديق بعقد الألوية وذلك يوم الخميس المستهل من صفر(13هـ 634م)[4]. وأذّن بلال في الناس أن انفروا أيها الناس إلى جهاد الروم[5]. وكان عقد الألوية في أوقات مختلفة وبجبهات متعددة[6]، وهنا لابد من تساؤل: ما الحكمة من توزيع القوات وقادتها في جهات مختلفة من بلاد الشام؟. والإجابة عن هذا السؤال تأخذ إلى أكثر من اتجاه، منها أن الخليفة أبا بكر الصديق أدرك أن المنطقة الجنوبية من الشام ليست بها حامية للروم، وأن تفرّق الجيوش كفيل بمواجهة ما هنالك من حاميات متحركة متفرقة وتدميرها، وإذا تم جمع جيش من قبل الروم فإنه يصبح تجميع الجيوش الإسلامية أمراً ضرورياً[7].

أما الأمر الآخر الذي دفع الخليفة أبا بكر الصديق رضي الله عنه لاتباع هذا الأسلوب فهو طبيعة الأراضي الشامية واتساعها. إذ فرضت على الجيوش الإسلامية التجزئة والانتشار، فبرزت هنا حكمة أبي بكر الصديق الذي قسم أمراءه على مناطق الشام ولم يكن التقسيم إدارياً وإنما كان تقسيماً بيئياً لقادة مسرح العمليات العسكرية، وبذلك طبّق مصطلح المروحة العسكرية أي الحركة الدائمة والدوران ضمن مناطق مسؤوليات هؤلاء الأمراء[8].

ويمكن إضافة سبب آخر إلى ذلك تمثل بطبيعة توزُّع قوات الروم، إذ إنّ مركز قوة الروم لم يكن في مكان واحد ومحدد وإنما كانت عبارة عن حاميات منتشرة في مناطق مختلفة مما فرض

---

[1] ـ الواقدي:(محمد بن عمر)، فتوح الشام، دار صادر، بيروت، ج1، ص11 ـ الأزدي: فتوح الشام، ص8 ـ ابن عساكر: التاريخ الكبير، م1، ص129 ـ افتيشيوس: (المكنى بسعيد ابن بطريق ت 328هـ /939م)، التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، 1909م ، ص9

[2] ـ الواقدي: فتوح الشام، ج1، ص12، 13 ـ الأزدي: فتوح الشام، ص10- الدواداري: كنز، ج3، ص166

[3] ـ دسوقي: القبائل، ص136

[4] ـ البلاذري: فتوح، ص133

[5] ـ ابن عساكر: التاريخ الكبير، م1، ص128

[6] ـ الملحق، الخريطة رقم(2)

[7] ـ عباس: تاريخ، ص188

[8] ـ صالح: العسكرية، ص78،79

على القيادة في الدولة الإسلامية اتباع هذا الأسلوب من التكتيك العسكري، كما أن أي جيش يعبر من مكان غير متوقع يبعده عن التعرض لأي مقاومة، أو ما يسمى الكمين، فمن المؤكّد إذا مر جيش وتكرر مرور جيش آخر سيتعرض للهجوم، وبالتالي تحقّق من توزيع أبي بكر الصديق لقواته بهذه الصورة ما هدف إليه قادة جيوش المسلمين من تشتيت صفوف الروم وتوزيع قواها، فيشكّل كل جيش بذلك مدداً للجيش الآخر مما يسهل تصعيد القتال في المكان المحدد، بالإضافة إلى أنه يزيد من سهولة التموين للجيوش الإسلامية، إلا أنّ هذا التوزيع للجيوش أدى إلى توزيع العمل والسرعة في تنفيذه. كما أنها دلت على وجود خطة لمتابعة الفتوحات، فقد تابعت بعض الجيوش التي أرسلت إلى الشام الفتوحات في مناطق أخرى مثل مصر وأرمينية وآسية الصغرى وغيرها من المناطق[1].

فكان أول لواء عقده هو لواء يزيد بن أبي سفيان وذلك في(23 رجب12هـ /3 تشرين الأول 633م) ودعا إليه زمعة بن الأسود بن عامر بن لؤي، وكان عددهم من ثلاث إلى أربعة آلاف مقاتل، وخرج معه ذو الكلاع الحميري، ووصل بعد الإمداد إلى (7500) مقاتل، وانطلق بهم إلى تبوك ومنها إلى البلقاء في الأردن. أما اللواء الثاني فقد عقد لشرحبيل بن حسنة، وكان ذلك بعد أربعة أيام من بعث يزيد، أي (27 رجب 12هـ / 7 تشرين الأول633م) ووجهه إلى الأردن بعد أن أوصاه الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه. وكان عددهم ما بين ثلاث إلى أربعة آلاف مقاتل، ووصلوا بعد الإمداد إلى (7500) مقاتل تقريباً، وعقد اللواء الثالث لأبي عبيدة بن الجراح وانطلق إلى الشام ومعه معاذ بن جبل وسعيد بن العاص. فمر بوادي القرى ثم إلى الحجر وإلى ذات المنار ثم إلى زيزاء، وكانوا قد انطلقوا في(7 شعبان 12هـ / 17 تشرين الأول633م)، ووصلت أعدادهم بعد تتابع الإمدادات إلى (7500) تقريباً، كما أنه عقد اللواء الرابع بقيادة عمرو بن العاص، وأمر أن يقصد فلسطين إلى آيلة وعدد قواته (7000) مقاتل[2].

وهناك خلاف حول تحرك كل من عمرو بن العاص وأبي عبيدة بن الجراح، أعمرو بن العاص تحرك أولاً، أم أبو عبيدة بن الجراح، إلا أنه يمكن القول إن وصية أبي بكر لعمرو بن العاص أن يكون مدداً لأبي عبيدة إذا احتاج ذلك مما يؤكّد أنّ تحرك ابن العاص كان بعد أبي عبيدة بن الجراح. ثم أرسل هاشم بن عتبة إلى أبي عبيدة وسعيد بن عامر بن حذيم ومعه بلال إلى يزيد بن أبي سفيان وحمزة بن مالك الهمذاني إلى أبي عبيدة بن الجراح وكذلك أبو الأعور السلمي، أما معن بن زيد بن الخنس السلمي فقد أُتبع بيزيد بن أبي سفيان[3]. وعندما توجّهت

---

[1] ـ زكار:(سهيل)، القدس في التاريخ، منشورات القيادة الشعبية الإسلامية العالمية، 1370هـ -2002م،ط1، ج3، ص17

[2] ـ الطبري: تاريخ، ج3، ص287، 289

[3] ـ الأزدي: فتوح الشام، ص40

جيوش الفتح إلى بلاد الشام، ركّز أبو بكر على أهمية الاستطلاع وجمع المعلومات عن العدو في الإستراتيجية العسكرية، إذ أوصى عمرو بن العاص، أن يقدم الطلائع ويبث العيون وأن يتواصل مع جيوش الفتح الأخرى، وفي مقدمتهم أبو عبيدة بن الجراح[1].

تحركت الجيوش باتجاه الشام ووقعت اشتباكات متفرقة مع الروم البيزنطيين وكانت في مناطق مختلفة من المناطق التي توزعت فيها قوات المسلمين، إذ ذُكر سالفاً أن الخليفة أبا بكر رضي الله عنه قد طلب إلى خالد بن سعيد أن يبقى في تيماء شمال الحجاز دون أي قتال مكتفياً بدعوة من حوله بالانضمام إليه ومقاتلة من يقاتله، والقصد من حشد هذا الجيش في هذا المكان على الطريق إلى الشام أن يكون احتياطياً يمد القوات المحاربة في جهات أخرى عند الضرورة ومن ثم يراقب تحركات الروم، فاجتمعت أقوام كثيرة معه، وبلغ خبر هذا الجيش قوات الروم التي قررت مواجهة خالد بن سعيد، فأخبر خالد بن سعيد الخليفة أبا بكر بتلك الأحداث، عند ذلك جاءته الأوامر بأن يُقدم ولا يُحجم، ووصلت قوات الروم وبدأت المعركة فهزمهم وزحف خلفهم حتى وصل إلى مرج الصفر إلا أن ذلك كان مكيدة من باهان الذي تظاهر بالتقهقر لاستدراج خالد بن سعيد إلى منطقة بعيدة، وبالفعل نجح باهان في مخططه وهزم خالد بن سعيد. وأوقعوا به هزيمة ساحقة وقتلوا معظم جنده، و في أثناء ذلك استنجد بأبي بكر الصديق فأمده بعكرمة بن أبي جهل، فاستبدلوا وسمي ذلك الجيش بجيش البدال[2].

واختلفت المصادر في الحديث عن الشخص الذي قتل بعد هذه المعركة، فمنها من ذكر أن الذي استشهد هو خالد بن سعيد بن العاص[3]. ومصادر أخرى أوردت أنه قد يكون هو أو ابن له[4]. إلا أن الأحداث التي سيتم الحديث عنها في الصفحات اللاحقة ستظهر وجود خالد بن سعيد في بعض المعارك مما يثبت أنه لم يكن قد قتل في تلك المعركة، لذا تغلب الرواية الأخرى التي تقول إنّ الذي استشهد هو شخص آخر غير خالد بن سعيد الذي فر إلى ذي المروة، ومن ثم عاد إلى الشام وانضم إلى جيوش الفتح واستشهد في أجنادين[5]، وبقدوم عكرمة بن أبي جهل المخزومي تمت حماية جيش المسلمين من مطاردة الروم[6]، وهنا يذكر بعضهم أن هذه الهزيمة

---

1 - خريسات والنابودة: صاحب، ص71

2 - الطبري: تاريخ، ج3، ص219، 220

3 - التميمي:(الحافظ أبي حاتم محمد بن أحمد ت 354هـ / 965م)، السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، صححه الحافظ السيد عزيز بك، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1407هـ - 1987م، ط1، ص450 - ابن حبيش:(عبد الرحمن محمد بن عبد الله ت 584هـ / 1188م)، غزوات ابن حبيش، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، 1412هـ ، 1992م، ط1، ج1، ص78

4 - الطبري: تاريخ، ج3، ص234 - ابن كثير: البداية: ج7، ص7 - الدياربكري: تاريخ الخميس، ج2، ص228

5 - شندب:(محمد حسين) ، تاريخ الخلفاء الراشدين، المؤسسة الجامعية للدراسات، 1423هـ - 2003م، ط1، ص53

6 - خطاب:(محمود شيت)، قادة فتح الشام ومصر، بيروت، 1385هـ - 1965م، ط1، ص90

هي السبب في إرسال تلك الجيوش الأربعة إلى الشام خشية من أن يكون لهذه الهزيمة أثر في نفوس العرب[1]. وهذا يناقض الحقيقة التي تتمثل بالتخطيط المسبق لإرسال هذه الجيوش.

سارت جيوش المسلمين نحو بلاد الشام، و أول فتح تم على أيديهم هو فتح يزيد لتبوك، وقد انفرد بهذه الرواية الواقدي[2].

ثم تابع يزيد زحفه باتجاه الشمال فوصل إلى العربة، وهناك اشتبك مع ستة قواد من الروم وتمّ له النصر عليهم، ثم انسحبوا ولحق بهم أبو أمامة الباهلي وانتصر عليهم وقتل أحد بطارقتهم[3]، وقد أجمع على ذلك عدد من المؤرخين[4]، بينما ذكر البلاذري أن المعركة الأولى بدأت في الداثن ثم انتقلت إلى العربة[5]، مع العلم أن الداثن هي بالقرب من غزة مركز قائد فلسطين سرجيوس التي كان الهروب باتجاهها، ممّا يظهر أن البداية كانت في العربة ثم استكملت في الداثن. وبينما كانت هذه الاشتباكات دائرة من قبل لواء يزيد بن أبي سفيان وطبعاً هذا أثّر في سرعة التقدم باتجاه الهدف الذي يسعى إليه وهو دمشق، تابع بقية القادة زحفهم، إذ مر أبو عبيدة بن الجراح بوادي القرى ثم الحجر حتى وصل إلى مآب، وهنا انتصر أبو عبيدة على الروم فصالح أهلها، وكان أول صلح بالشام[6]، أما جيش شرحبيل فقد تابع زحفه وهو الجيش الوحيد الذي لم يلقَ مقاومة تذكر، واستمر بزحفه باتجاه بصرى، وأما جيش عمرو بن العاص الذي توجه إلى إيليا فقد بلغه قبل وصوله إلى أرض فلسطين وذلك عن طريق عدي بن عامر أن الروم قد جهزوا جيوشهم وتحركوا نحوه. وكما اعتاد قادة المسلمين فقد عُقد مجلسٌ حربيٌ تناقشوا فيه مجريات الأحداث بكل جوانبها وكيفية التصرف فيها، فكان القرار بالمواجهة. وعلى إثرها عقد عمرو بن العاص رايته وأعطاها لعبد الله بن عمر بن الخطاب على رأس ألف فارس، فاصطدمت بقوات أرسلها روبيس قائد الروم مؤلفة من عشرة آلاف فارس، لكنّ النصر كان حليف المسلمين، وتمّ أسر عدد من جيش الروم، وبعد استجوابهم عرف عمرو بن العاص حجم قوات الروم وأهدافها[7]. وبالتأكيد كان لهذه المعركة أثر واضح على جيش عمرو بن العاص إذ إنه أتاح لهم فرصة تنظيم الجيش وترتيبه[8]، وفي صباح اليوم التالي ظهر جيش

---

[1] - الصعيدي:(عبد المتعال)، السياسة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين، دار الثقافة العربية للطباعة، ص100 - دراسات في السيرة، ص240

[2] - الواقدي: فتوح الشام، ج1، ص15

[3] - الطبري: تاريخ، ج3، ص234

[4] - ابن حبيش: غزوات، ج1، ص174 - ابن كثير: البداية، ج7، ص7 - الدياربكري: تاريخ الخميس،ج2، ص228

[5] - البلاذري: فتوح، ص134 - الطبري: تاريخ، ج3، ص234

[6] - الأزدي: فتوح الشام، ص29 - الطبري: تاريخ، ج3، ص234 - ابن حبيش: غزوات، ج1، ص160

[7] - الواقدي: فتوح الشام، ج1، ص22

[8] - وتر: الريادة، ص172

الروم الذي يقوده روبيس وبدأت المعركة، واستمر ضغط الجيش العربي حتى انهزم الجيش الرومي.

وكان ممن استشهد في هذه المواجهة سعيد بن خالد رضي الله عنه[1]، ويرجع انتصار العرب المسلمين في هذه المعركة إلى إيمانهم بالنصر وعقيدتهم التي كانوا يقاتلون من أجلها، مما كان له أثره في رفع معنوياتهم، بالإضافة إلى الخفة والسرعة في ميدان المعركة[2].

فكتب عمرو بن العاص إلى أبي عبيدة بن الجراح يعلمه بالنصر وبمن استشهد. وكان إلى جانب أبي عبيدة آنذاك خالد بن سعيد، فاستأذن أبا عبيدة وتوجه إلى عمرو بن العاص، وبعد وصوله إلى هناك أصرّ على الخروج للأخذ بالثأر، فسمح له عمرو بن العاص ومعه ثلاثمائة فارس فانتصر على قوة من الأنباط[3]. ثم تابع فاصطدم بقوة رومية قوامها ستمائة مقاتل فانتصر عليهم ثم عاد إلى عمرو بن العاص بعد أن نقل له خبر تجمع الروم في أجنادين[4] قرب الخليل حالياً، وبذلك أصابت الجيوش الإسلامية الأربعة التي توجّهت إلى بلاد الشام بعض النجاح، فتقدم بعضها إلى دمشق، وبعضها إلى حمص وتوغل بعضها الآخر في فلسطين، وبلغت أخبار هذا التقدم في جنوب بلاد الشام الإمبراطور البيزنطي وهو بالقدس[5]. فانسحب الإمبراطور من القدس إلى حمص واستعد للمواجهة، وعمد إلى مقاتلة جيوش المسلمين كل على حدة، وأراد إشغال بعضهم عن بعض لكثرة جنده، فأرسل أخوه تذارق مع تسعين ألفاً باتجاه عمرو بن العاص، ونزل في ثنية جلق في أعلى فلسطين[6]. وبعث جرجة بن توذرا نحو يزيد بن أبي سفيان، وبعث القيقار[7] بن نسطوس في ستين ألفاً إلى أبي عبيدة بن الجراح، وبعث الدراقص نحو شرحبيل، وما يثبت الفرض الأخير أنه تدارس قادة جيوش المسلمين الموقف الجديد والتفوق العددي فقال عمرو بن العاص:" إن الرأي الاجتماع وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة، وإذا نحن تفرقنا لم يبق الرجل منا في عدد يفرق فيه لأحد ممن استقبلنا ....."[8]. وراسل كل من أبي عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان الخليفة أبا بكر الصديق يستشيرانه، فأشار إليهم بما أشار عمرو بن العاص بضرورة التجمع[9].

---

[1] ـ الواقدي: فتوح الشام، ج1، ص172

[2] ـ وتر: الريادة، ص172

[3] ـ الأنباط: هم النبط الذين كانوا يأتون بالتجارة إلى الحجاز، وكانوا عيون للروم على العرب(حمارنة، الناس، ص9)

[4] ـ الواقدي: فتوح الشام، ج1، ص24،25

[5] ـ ابن الأثير: الكامل، ج2، ص251 ـ الكتبي:(محمد بن شاكر بن أحمد ت 764هـ / 1362م)، عيون التواريخ، تحقيق حسام الدين القدسي، مكتبة النهضة المصرية، ص55

[6] ـ الطبري: تاريخ، ج3، ص251

[7] ـ ذكره الطبري بلفظين القبقلار والفيقار

[8] ـ ابن الأثير: الكامل، ج2، ص278

[9] ـ الأزدي: فتوح الشام،ص30، 31 ـ ابن الأثير: الكامل، ج2، ص251

ويبدو أن تقدير الإمبراطور البيزنطي لخطورة الزحف العربي كان دون المستوى؛ ولعل مرد ذلك أن الأخبار التي وصلته تحدثت عن حركة قبائل مهاجرة، ولم تصف زحف جيوش، وكانت السلطات البيزنطية معتادة على مثل هذه التحركات، وكانت تعتمد على القبائل العربية الموالية في معالجتها، والذي حدث الآن تحرك المشاعر العربية لدى القبائل الشامية بشكل غير متوقع لدى البيزنطيين، حيث كان بين عرب الشام من حمي للقربى. فكان ظهور العرب أحب إليه، وتعاونت عناصر شامية كثيرة مع الفاتحين في الاستطلاع وفي نقل البريد بين جيوش المسلمين[1]. وبعد أمد قصير شعر الإمبراطور هرقل بخطورة الموقف فأخذ يجيش الجيوش ويستعد لمنازلة عظمى، وعرف أبو عبيدة بذلك فكتب إلى أبي بكر يخبره بخطورة الوضع المستجد، فأقدم الخليفة أبو بكر الصديق على ما كان في وسعه أن يحقق الهدف المطلوب وبعد تقدير الخليفة للموقف بعث إلى خالد بن الوليد[2]. وأمره بالتحرك نحو الشام[3]، وقال:" والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد"[4].

فخالد بن الوليد كان قد حطّم من عهد قريب الفرس في عدة معارك دموية[5]، وكان قد حمى الجيش المسلم في غزوة مؤتة عندما خطط لانسحابه فالخليفة بنظرته الثاقبة أراد أن يستفيد من عبقرية خالد القيادية ومن خبرة الجيش الذي غدا من خيرة جيوش الدولة الإسلامية خبرة وتدريباً؛ والهدف من ذلك مفاجأة القوات البيزنطية وضربها من الخلف، والأهم من ذلك تحييد القبائل العربية الموالية للروم في البادية ومناطق دمشق و حوران بإنزال ضربات شديدة بها. وربما رأى أن فتح العراق يكفيها سعد بن أبي وقاص، أما فتح الشام فإنها تحتاج إلى قائد مثل خالد بن الوليد، وفي أثناء ذلك كان على خالد بن الوليد معالجة أمرين؛ الأمر الأول هو سرعة الانتقال بقواته من العراق إلى مسرح عمليات الشام، أمّا الأمر الثاني فتمثّل في بعد المسافة وعدم معرفته مواقع القوات الإسلامية على الجبهة الجديدة بشكل دقيق، ولذلك بدأ بدراسة أفضل الطرق المؤدية إلى بلاد الشام وأقصرها مسافة للوصول إليها في الوقت المناسب التزاما بأوامر الخليفة.

والطرق المعروفة بالنسبة إلى الجميع هما طريقان، الطريق الأولى تمر عبر دومة الجندل وهي المستخدمة من القوافل التجارية المتجهة إلى الشام، وهي سهلة ومأهولة وتتوفر فيها المياه، إلا أنها بعيدة المسافة وتحتاج إلى وقت طويل وهذا ما يتعارض مع أوامر الخليفة له. أما

---

1 - ابن حبيش: غزوات، ج1، ص169 - 170 - 180 - زكار: القدس، ج3، ص18- 19

2 - الزهري: المغازي، ص151 - البلاذري: فتوح، ص134 - ابن أعثم الكوفي: الفتوح، ج1، ص133 - الشجاع: دراسات، ص352

3 - الملحق، الكتاب رقم2

4 - زكار: القدس، ج3، ص19

5 - أكرم:(أ)، سيف الله خالد بن الوليد، ترجمة العميد الركن صبحي الجابي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1402هـ - 1982م، ط4، ص350

الطريق الثانية فتقع في المنطقة الشمالية وتمتد على نهر الفرات، وهذا الطريق أكثر ملاءمة من حيث سهولة التنقل عليه وتتوفر فيه المياه، إلا أن سيئاتها كذلك حالت دون الاستفادة منها، فالحاميات البيزنطية منتشرة عليها مما يجعل المواجهة معها أمراً لابد منه، وذلك بالطبع سيؤدي إلى تأخر وصوله من جهة، وفقدانه لعنصر المفاجأة والأمن من جهة أخرى. بالإضافة إلى أنها لا تؤدي مباشرة إلى مواقع القوات الإسلامية الموجودة في المنطقة الجنوبية من مسرح العمليات، لذلك تم استبعاد هذه الطرق، وبدأت المشاورات في اختيار الطريق التي تمكنهم من الخروج من وراء جموع الروم من دون الاصطدام معهم، وتمكنه من تقديم الغوث والنجدات لقوات المسلمين بأسرع وقت ممكن، فأشار عليه رافع بن عميرة الطائي بطريق يحقق غايته ولكن هذه الطريق محفوفة بالمخاطر وهي قليلة المياه فيما بين قراقر وسوى[1].

إلا أن القائد خالد بن الوليد كان مصراً على إيجاد الطريق المناسبة الذي يحقق مبتغاه، ولذلك عندما تم طرح طريق الحيرة ــ عين التمر ــ قراقر ــ سوى ــ تدمر ــ بصرى[2]. تم اختياره على الرغم من كل المخاطر التي تحيط به، فهذا الطريق تتوافر في جزء منه المياه، إلا أن الجزء الواقع بين قراقر و سوى طويلة وتخلو من المياه وتحتاج إلى خمسة أيام لاجتيازها، كما أجمعت أغلب المصادر[3].

وقبل أن يتم الدخول في نقاش حول كيفية معالجة خالد بن الوليد لهذه المشكلة لابد من محاولة إظهار العدد الحقيقي الذي رافق خالد بن الوليد، حيث لم تذكر المصادر عدداً ثابتاً بين (800) أو (600) أو (500)[4]. ومنهم من ذكر أنّ العدد (900) أو(6000)[5]، ومقارنة منطقية يمكن أن توضح عدد الجيش الذي رافق القائد خالد بن الوليد، فالكتاب الذي وصل من أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى خالد بن الوليد ورد فيه أن يأخذ نصف الجيش ويتوجه إلى الشام. وكامل هذا الجيش هو ثمانية عشر ألفاً. فالعدد يكون (9000) أو(10000) تقريباً هذا من جهة[6]. ومن جهة أخرى العدد الإجمالي لقوى المسلمين وصل تقريباً إلى (46)ألف[7]. ويمكن حساب ذلك من تقسيم الجيش حسب القادة وصولاً إلى العدد الحقيقي لقوات خالد بن الوليد، فعدد أفراد كل جيش من الجيوش الأربعة كما ذكر سالفاً وصل تقريباً إلى (7500) مقاتل فسيصل العدد تقريباً إلى (32) ألف مقاتل، حيث استمرت الإمدادات بالتوافد وبالتالي لن يكون جيش خالد ابن الوليد أقل

---

1 ـ الواقدي: فتوح الشام، ج1، ص26
2 ـ الملحق، الخريطة رقم(3)
3 ـ الواقدي: فتوح الشام، ج1، ص26 ـ البلاذري: فتوح، ص135 ـ الطبري: تاريخ، ج3، ص242، 232
4 ـ الطبري: تاريخ، ج3، ص242 ـ ابن حبيش:غزوات، ج1، ص190
5 ـ ابن الأثير: الكامل، ج2، ص279
6 ـ عوض الله:(الشيخ الأمين)، الخلفاء الراشدون، مكتبة الفلاح، الكويت، 1410هـ ـ 1990م، ط3، ص60
7 ـ الطبري: تاريخ، ج3، ص32

من (9000) مقاتل، وقد اختلف البلاذري مع الطبري فيما يخص العدد فقد ذكر أن العدد الإجمالي لقوات المسلمين قبيل معركة اليرموك (24) ألف، بينما ذكر الطبري أن العدد (46) ألف. والرقم (24) ألف بعيد عن الواقع، إذ إنه لو جُمعت قوات الجيوش الأربعة فقط لتجاوزت هذا العدد بشكل كبير.

وبدأ الاستعداد للتوجه إلى الشام، فالمسافة طويلة ولابد من طريقة تحافظ على اتجاه حركة القوات في أرضٍ تخلو من أية معالم يمكن الاسترشاد بها، ولذلك كانت الوسيلة الوحيدة في هذا الأمر الاعتماد على خبرة بعض الرجال في استخدام النجم ليلاً، إذ طلب إليه محرز بن حريش أن يجعل من نجم الصبح على جبينه الأيمن[1].

وبدأ القائد خالد بن الوليد مسيره الخطر وذلك في(شهر ربيع الأخر عام13هـ / حزيران 634م)، فسار من الحيرة ومعه تسعة آلاف رجل، ودليله رافع بن عميرة الطائي، فعبر عين التمر والمصيخ إلى قراقر حيث عمل على التزود بالمياه هو وكل جنده، وبدأ الاستعداد للعبور من قراقر إلى سوى، وهي المنطقة الخالية تماماً من المياه، وهنا انساقت كل المصادر للقول إن خالد بن الوليد وخلال استعداده لعبور تلك المسافة التي تحتاج إلى خمس ليال قام بملء بطون الإبل بعد أن عطشها لمساعدته في التغلب على هذه المشكلة[2]. والمستغرب أن هناك الكثير من الباحثين ما زالوا يأخذون بهذه الرواية التي لا تصمد أمام المنطق العلمي.

والسؤال الذي يطرح نفسه، هل من الممكن أن يكفي ما بجوف العشرين أو حتى الثلاثين أو الخمسين من الإبل لسقاية الآلاف من الخيول والمقاتلين لكل هذه المسافة؟. لاسيما أن الخيل الواحدة تحتاج في اليوم الواحد/40/لتر ماء، أضف لذلك وأمام معطيات العلم الحديثة إن ما تشربه الإبل من مياه تختزنها لفترات طويلة، وما يفسر ذلك وجود أنزيم البومين بنسبة أكبر مما توجد عند بقية الكائنات، وهذا الأنزيم يزيد في مقاومة الجمل للعطش، كما أنّ الجمل يمتلك قدرة على إنتاج الماء ذاتياً من خلال عدة طرق، منها ما يكون عن طريق حرق الشحوم والمواد الكربوهيدرائية، وينتج عن ذلك الماء والطاقة وغاز ثاني أكسيد الكربون، الذي يتخلص منه الجسم في عملية التنفس، ومن حكمة خلق الله في الإبل أن جعل احتياطي الدهون في الإبل كبير للغاية، إذ يبلغ /120/ كغ. لذلك يمكن للجمل أن يقضي حوالي شهر ونصف بدون ماء يشربه. وهناك طريقة أخرى لإنتاج الماء تتمثل بقدرة الجمل على تجرع محاليل الأملاح المركزة وذلك

---

[1] ـ الدياربكري: تاريخ الخميس، ج2، ص230

[2] ـ الواقدي: فتوح الشام، ج1، ص26 ـ الأزدي: فتوح الشام، ص69 ـ البلاذري: فتوح، ص135 ـ الطبري: تاريخ، ج3، ص234 - ابن الأعثم الكوفي: الفتوح، ج1، ص136- 135 ـ ابن الأثير: الكامل، ج8، ص280 ـ ابن عساكر: التاريخ الكبير، م1، ص137 - الدواداري: كنز، ج3، ص167

لاستعداد خاص في كليته لإخراج تلك الأملاح في بول شديد التركيز بعد أن تستعيد معظم ما فيه من ماء لترده إلى الدم[1].

وطبعاً المجال هنا ليس استعراضاً لأسباب تحمل الإبل للعطش، وإنما توضيح أمر مهم وهو أن هذا الماء المنتج إنما يختلط بما يشربه الجمل ويكون ذلك في كرشة الجمل، فمن هنا لن يكون هذا الماء صالحاً للشرب بسبب نسبة الدهون أو بقاياها داخله، فكيف للخيل أن تشربها وهي مخلوطة باللبن كما ذكرت المصادر؟. وما عرف عن الخيل العربي أنها ذات نفس أبية لا تشرب الماء إلا نقياً وعذباً زلالاً، فكيف يمكن الأخذ بهذه الرواية والعلم يرفضها رفضاً قاطعاً.

ولكن مشكلة الماء كانت موجودة بالفعل، فالماء الذي تزود به الجيش لم يكفِ إلا لثلاثة أيام فقط نتيجة لحرارة الصحراء الشديدة، وهي شمس حزيران. فكان لابد من المتابعة ليومين من دون ماء، فاستمروا في المسير وبدأت وطأة العطش تشتد ويشتد معها الإيمان والإخلاص للإسلام، وأنها ستفرج بمشيئة الله، وفي صبيحة اليوم الخامس بدأت المرحلة الأخيرة من هذا المسير والذي سيصل في نهايتها الجيش إلى بئر الماء، والوحيد الذي يعرف مكانها هو رافع بن عميرة الطائي الذي رمدت عيناه، فأيقن الجميع أن الهلاك سيكون مصيرهم، فطلب رافع بن عميرة الطائي من الرجال البحث عن عين الماء بعد أن وصفها لهم، فبحثوا حتى وجدوها فتزود الجميع بالمياه[2].

والخلاف كبير في المناطق التي مر بها في هذا الطريق، فمنهم من قال إن طريقه كانت من عين التمر إلى الأنبار إلى قراقر وسوى إلى أرك ومنها إلى تدمر إلى القريتين وحوارين وقصم وثنية العقاب ومرج راهط ومن ثم حوران[3]، ومنهم من جعلها من الأنبار إلى طريق المفازة ويعني قراقر وسوى ومنها إلى تدمر فحوران[4]. ومنهم من جعل الانطلاق من السماوة إلى قراقر وسوى إلى أركة فحوران و بصرى[5]. والطريق التي يغلب أنهم سلكوها هي طريق الحيرة فعين التمر منها إلى قراقر وسوى إلى أرك فتدمر إلى بصرى. المهم أن المصادر التاريخية والدراسات الحديثة ركّزت حول تحديد الطريق التي سلكها خالد بن الوليد وكيفية حله لمشكلة الماء وأهملت ما أنجزه على هذه الطريق بضرب التجمعات القبلية في البادية للحيلولة بينها وبين تقديم العون للبيزنطيين، فقد أنزل أول الضربات الموجعة بقبائل تغلب والنمر[6]، ثم أغار على تجمعات قبائل بهراء وغسان وكلب وانتسف معسكراتهم، وهكذا حتى وصل إلى

[1] - Http:// Forum. Unvibiskra. Net.21 /5 /2009.10p.m
[2] - الواقدي: فتوح الشام، ج1، ص16
[3] - الطبري: تاريخ، ج3، ص232 - ابن الأثير: الكامل، ج8، ص281
[4] - اليعقوبي: البلدان، ج1، ص133
[5] - الواقدي: فتوح الشام، ج1، ص26
[6] - البلاذري: فتوح، ص135 - ابن الأعثم الكوفي: الفتوح، ج1، ص135

تدمر[1]، وعندما مر بتدمر تحصّنوا منه فطوقهم ولكنه وجد أنّ الأمر سيطول فتركهم، فما لبثوا أن لحقوا به وصالحوه[2]. فهل لهذا أثر في الحصول على الماء من مضارب القبائل؟

المهم بعد تدمر اجتاح خالد بن الوليد مناطق البادية مابين تدمر وريف دمشق وصولاً إلى مرج عذراء، ثم أخذ طريقه نحو الجابية ـــ قرب نوى في حوران ـــ حيث كان أبو عبيدة معسكراً، وبذلك أكمل إنزال الضربات بالقبائل وفاجأ حامية دمشق، وظهر خلف الجيش البيزنطي الذي توجه إلى أجنادين، فإذا بعمرو بن العاص معسكراً هناك. وكان جيش شرحبيل قرب بصرى.

كانت هذه الحركة مثار جدال ونقاش إذ إنها لم تحقق النصر بحد بذاته، ولكنها وضعت المسلمين في الموقف الذي يستطيعون من خلاله انتزاع النصر، فكانت تطبيقاً عملياً لإستراتيجية جديدة وهي الاقتراب غير المباشر من الهدف هذا من جهة، ومن جهة أخرى كانت تصفية لتواجد الروم في كل منطقة مر بها حرصاً على عدم مفاجئتهم بأية قوى ثانية من الخلف، كما أن هذه الحركة أثارت دهشة الكثيرين إذ إنه قطع تلك المسافة بوقت قياسي، فسار مسيرة اليومين بيوم واحد، ومن المؤرّخين من جعله يصل إلى بصرى ويفتحها بعد حصار شرحبيل بن حسنة لها ولومه لتوجهه إلى بصرى وحيداً على الرغم من أنها تشكّل مركز قوة يحتاج إلى عدد أكبر من الجنود[3]. ومنهم من جعل من بصرى المكان الذي تجمّعت فيه كل الجيوش[4].

وقع بعض المؤرخين المحدثين في أخطاء في أثناء تحديد بعض المناطق على هذه الطريق، فمنهم من رأى أن القائد خالد بن الوليد فتح نوى ـــ وهي منطقة تقع في جهة الغرب بالنسبة إلى منطقة حوران ـــ بعد قراقر وقبل تدمر[5]. وهذا ضربٌ من الخيال الذي ابتعد فيه الكاتب كثيراً عن الواقع فالمسافة بين نوى وتدمر مسافة طويلة وتحتاج إلى أيام من المسير. بالإضافة إلى أنها لم تذكر في أي مصدر من المصادر سواء الواقدي أو الأزدي أو البلاذري وغيرهم.

وفي تلك اللحظات التي كان فيها القائد خالد بن الوليد يسير فيها باتجاه الشام، كانت باقي القوة تسير في خطة جديدة للتراجع جنوباً[6].

وبوصول خالد بن الوليد إلى الشام وتراجع باقي القوات إلى جهة الجنوب انتهت مرحلة تعدد القيادات، التي كان يتم العمل فيها بشكل منفرد دون أي تنسيق، وبدأت مرحلة جديدة هي مرحلة القيادة الموحدة التي رسمت فيها الخطط بشكل دقيق وواضح مع الالتزام برأي وقيادة واحدة.

---

1 ـ البلاذري: فتوح، ص136 ـ الطبري: تاريخ، ج3، ص232 ـ ابن حبيش: غزوات، ج1، ص191

2 ـ الأزدي: فتوح الشام، ص77

3 ـ الواقدي: فتوح الشام، ج1، ص26

4 ـ الطبري: تاريخ، ج3، ص232 ـ التميمي: السيرة، ص450ـ ابن عساكر: التاريخ الكبير، م1، ص134

5 ـ علي:(أحمد إسماعيل) ، تاريخ بلاد الشام منذ ما قبل الميلاد وحتى نهاية العصر الأموي، دمشق، 1984م، ط1، ص498

6 ـ العقاد: العبقريات، ص871

فتح بصرى(13هـ / 634م):

اختلفت المصادر حول القائد الذي كان معسكراً في بصرى في أثناء وصول خالد بن الوليد، فمنها ما أكد كلام الواقدي في أنّ خالداً وصل بصرى وعليها فقط شرحبيل[1]. بينما ذكرت مصادر أخرى أن خالداً بن الوليد نزل على قناة بصرى[2]، ومن ثم قدم أبو عبيدة وصاحباه إليها[3]. وعني بصاحبيه كلاً من يزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص، وذكرت مصادر أخرى أن خالداً بن الوليد نزل على قناة بصرى وعليها أبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان[4]. بينما انفرد البلاذري برأي آخر وفحواه أن يزيد بن أبي سفيان كان المتقلد لأمر الحرب ويعلل ذلك بأن ولاية الشام وإمرتها كانت إليه لأنها من دمشق[5]. ومنها ما ذكر أن خالد بن الوليد فتح بصرى في زمن الخليفة عمر بن الخطاب[6] ولكن سير الأحداث يرجح رأي الواقدي بأن شرحبيل بن حسنة فقط هو الذي كان على بصرى.

وفي تلك الأثناء تم عزل روماس وتعيين الديرجان قائداً لجيش الروم، وبدأت الاستعدادات للمعركة الفاصلة ، فصفَّ خالد بن الوليد قواته ونظمها، وطلب الديرجان مبارزة خالد بن الوليد، فخرج إليه عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، فكانت الغلبة لعبد الرحمن وهرب الديرجان، عند ذلك بدأت المعركة، وانسحبوا إلى داخل المدينة، فحاصرها المسلمون وسيطروا عليها[7]. فطلبوا الصلح وبالفعل تم ذلك فأمّنهم خالد بن الوليد على دمائهم وأموالهم وأولادهم على أن يؤدوا الجزية [8].

وكتب خالد بن الوليد كتاباً إلى أبي عبيدة بن الجراح يبشّره بالنصر[9]. فكانت بصرى أول مدينة تفتح في الشام في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه[10].

وبعث خالد بن الوليد بأخماس ما غنم إلى أبي يكر الصديق[11]. وحامل تلك الغنائم هو بلال ابن الحارث المزني[12]، وتوجه خالد بن الوليد بعد ذلك نحو دمشق، فوصل إلى الثنية وركز

---

1 ـ الواقدي: فتوح الشام: ج1، ص28 ـ الأزدي: فتوح الشام، ج1، ص81 ـ ابن حبيش: غزوات، ج1، ص193

2 ـ الملحق، الخريطة رقم(4)

3 ـ الذهبي: تاريخ، ص35

4 الطبري: تاريخ، ج3، ص243 ـ التميمي: السيرة، ص450ـ ابن عساكر: التاريخ الكبير، م1، ص134

5 ـ البلاذري: فتوح، ص137

6 ـ السرياني:(مار ميخائيل)، تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير، ترجمة مار غريغوريوس صليبا شمعون، دار ماردين ، حلب، 1996م، ط1، ج2، ص312

7 ـ الواقدي: فتوح الشام، ج1، ص30،31 ـ ابن حبيش: غزوات، ج1، ص193، ورد باسم الدرنجار في موضع آخر عند ابن حبيش

8 ـ البلاذري: فتوح، ص137

9 ـ الواقدي: فتوح الشام، ج1، ص32

10 ـ ابن عساكر: التاريخ الكبير، م1، ص134 ـ القلقشندي:(أبي العباس أحمد بن علي ت821هـ ـ 1418م)، مآثر الأنافة في معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، بيروت، 1964م، ط1، ج1، ص85

11 ـ ابن الأثير: الكامل، ج2، ص281

12 ـ كنعان:(محمد بن أحمد)، الخلافة الراشدة، مؤسسة المعارف، بيروت، 1417هـ ـ 1997م، ط1، ص92

رايته العقاب (الحرب في العربية) هناك، فسميت ثنية العقاب، ثم توجّه إلى دير خالد وانتظر قدوم المسلمين[1]، بينما ذكر ابن حبيش أنه توجه من بصرى إلى مرج راهط وصالح أهلها[2]، أما الطبري فقد ذكر أن خالد بن الوليد وباقي القادة ساروا إلى فلسطين حيث عمرو بن العاص مقيماً في العربات في غور فلسطين للتوجه إلى أجنادين[3]. وهذا غير صحيح والمهم في الأمر أنّه عندما علم هرقل أن خالداً بن الوليد قد توجه إلى دمشق كلف كلوس بن حنا على رأس خمسة آلاف فارس، فسار من إنطاكية حتى وصل إلى حمص ومنها إلى بعلبك وبعدها إلى دمشق[4].

والتوجه إلى بصرى لم يكن بمحض الصدفة، أو أن خط السير هو الذي فرض ذلك، وإنما ترتيبات القائد خالد بن الوليد هي التي دفعته إلى ذلك. فقد كان هذا التوجه بمثابة تصفية لتواجد حصون الروم جنوب دمشق، فلا يمكن العمل على محاصرة دمشق من دون تأمين لظهر القوات الإسلامية من أي هجوم مباغت من الخلف، فمن هنا كان فتح بصرى من أولى الأعمال الواجب القيام بها، ولذلك حرص أبو عبيدة بن الجراح على هذا الأمر، بالإضافة إلى أن هذه المعركة أدت إلى إسلام روماس ـــ حاكم بصرى سالفاًـــ وزوجته، و أسهم هذا الأمر في التأكيد مرة أخرى على أن الهدف الأساسي من الفتوح إنما هو نشر الإسلام، أضف إلى ذلك أن مشاعر المنطقة وعواطفها باتت مع الفتح الإسلامي لأن أصداء تسامح الإسلام والمعاملة التي عومل بها سكان البلاد كان له أكبر الأثر في دخول الإسلام، خاصة وأنّ الروم كانوا قد مارسوا الإضطهادات الدينية في المنطقة ليس على من يخالفهم في الدين، وإنما على من يخالفهم بالمذهب أيضاً.

---

1 ـ الواقدي: فتوح الشام، ج1، ص32 - الأزدي: فتوح الشام، ص83

2 ـ ابن حبيش: غزوات، ج1، ص193

3 ـ الطبري: تاريخ، ج3، ص243

4 ـ الواقدي: فتوح الشام، ج1، ص32،33

معركة أجنادين (جمادى الأولى 13هـ / 634م):

بعد فتح بصرى توجه خالد بن الوليد وأبو عبيدة بن الجراح إلى دمشق لمحاصرتها ، وبقي شرحبيل مرابطاً في بصرى، وهذا التوجه شكل خاتمة لمرحلة سالفة اقتصرت فيها سيطرة المسلمين على المناطق الشرقية شبه الصحراوية، وبداية لمرحلة جديدة يتم فيها التوسع في المناطق الغربية المأهولة بالسكان، إذ إنهم أغاروا على الغوطة وغيرها، وبدؤوا بحصار دمشق، وفي ذلك الوقت كان وردان صاحب حمص قد توجه ليعزل شرحبيل بن حسنة وهو في بصرى عن بقية المسلمين[1]. كما انطلقت قوى أخرى من الروم إلى أجنادين يقودها تذارق لمواجهة القوات الإسلامية من الخلف[2]. وكل هذه التحركات كانت على مرأى من عيون المسلمين وأرصادهم الذين توزعت قواتهم في مناطق مختلفة، فاكتشف المسلمون خطة الروم التي تهدف إلى القضاء على كل جيش على حدا ثم الانتقال إلى الجيش الآخر وهكذا[3].

وأمام هذا الوضع بدأت المشاورات بين خالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح لمواجهة هذا الوضع الجديد، وخاصة بعد توجه وردان الذي أخفق في اللحاق بشرحبيل إلى أجنادين[4]، وكان الرأي بأن تتم مراسلة القادة من أجل الاجتماع في أجنادين لمواجهة القوى الرومية، ويبدو أن موضع المعركة في منطقة أجنادين فرضها تجمّع قوات الروم فيها، لذلك كانت الوجهة إليها. فكتب خالد بن الوليد إلى جميع القادة يطلب إليهم التحرك للحشد في منطقة أجنادين[5]، حيث سيتم في تلك المنطقة خوض أشرس المعارك مع الروم، وقد انفرد الواقدي في رواية تمثلت بالحوار الذي دار بين أبي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد فيمن يكون في مقدمة الجيش المتوجه إلى أجنادين، فقد ذُكر أن أبا عبيدة رفض أن يكون في مقدمة الجيش، ولم يدرك أهمية التحسبات التي توقعها خالد بن الوليد وهي غدر أهل دمشق بعد مغادرة الجيش، وقد فرضت مجريات الأمور ما توقعه خالد بن الوليد من قيام أهل دمشق باللحاق بجيش المسلمين المتوجه إلى أجنادين[6].

وإذا صحّت هذه الرواية فإنه يظهر شاهد آخر على التمايز بين قيادة أبي عبيدة بن الجراح وعبقرية خالد بن الوليد الذي صحت توقعاته، إذ إنه أدرك وفهم مخططات الروم وتوقع هذا

---

[1] - الواقدي: فتوح الشام، ج1، ص39 - ابن حبيش: غزوات، ج1، ص195 - الدياربكري: تاريخ الخميس، ج2، ص233 - الكلاعي: الاكتفاء، ج3، ص149

[2] - شندب: تاريخ، ص55

[3] - الجبوري: تدابير، ص72

[4] - الملحق، الخريطة رقم(4)

[5] - الأزدي: فتوح الشام، ص87- ابن الأعثم الكوفي: الفتوح، ج1، ص143 - التميمي: السيرة، ص451

[6] - الواقدي: فتوح الشام، ج1، ص45 - ابن حبيش: غزوات، ج1، ص197

الهجوم. فما أن تحركت القوات حتى خرج أهل دمشق في أثر المسلمين، فرجع إليهم خالد بن الوليد وانتصر عليهم وهزم قائدهم بولص[1].

وكان قد وصل رسول خالد إلى شرحبيل بن حسنة وليس بينه وبين الجيش الذي سار إليه من حمص إلا مسيرة يوم واحد وشرحبيل لا يشعر به[2]. فتوجه شرحبيل بن حسنة إلى أجنادين من طريق أخرى غير الطريق التي سلكها وردان، وأقبل يزيد بن أبي سفيان والتقى بأبي عبيدة وخالدٍ ثم ساروا إلى أجنادين، ولم يتجاوز عدد المسلمين الثلاثين ألفاً[3]. بينما كان عدد الروم مائة ألف كان معظمهم ممن أرسله هرقل، وتجمع بقيتهم من المناطق المحيطة[4]. إن مسألة عدد الجيوش يتم الوقوف عندها دائماً في أي معركة، فالأرقام على الأغلب غير صحيحة ولكن في أقل تقدير كانت أعداد الروم ضعف أعداد المسلمين.

وبدأ خالد بن الوليد صبيحة يوم السبت بتنظيم قواته فوزّع القادة وحدد مهامهم[5]، ثم دعا النسوة وأوصاهن بأن يكن مدافعات بأشد ما يمكن، وطلب إلى قواته أن يكونوا مهاجمين لا مدافعين، وألا ينهزموا إذا اشتد القتال و لا ينسحبوا إلا لقتال لأنّ الهزيمة تجلب غضب الله. كما طلب إليهم ألا يهاجموا إلا بأمر منه[6]. لذلك كلما مر رجل من المسلمين رفعن أولادهن إليه وقلن له: قاتلوا دون أولادكم ونسائكم[7]. ووجه خالد الدعوة إلى الروم بدخول الإسلام أو دفع الجزية فرفضوا. وقد انفرد الواقدي برواية مفادها أن ضرار بنِ الأزور أرسل في مهمة استطلاعية أسر من خلالها، إلا أنه فك أسره فيما بعد، ومن الذين شاركوا بفك أسره أخته خولة بنت الأزور التي أسرت لاحقاً وفك أسرها[8]، وهنا يظهر دور المرأة ومشاركتها في معارك الفتح بشكل كبير وأن الإسلام عزز دورها وشجعها على الإدلاء بدلوها في كل مجالات الحياة.

واختلفت المصادر في اسم قائد الروم فمنها من ذكر أن القبقلار[9] أو تذارق[10]. ولكن أغلبها ذكرت أن وردان هو القائد[11].

---

[1] ـ الواقدي: فتوح الشام، ج1، ص45 ـ الأزدي: فتوح الشام، ص88 ـ ابن الأعثم الكوفي: الفتوح: ج1،ص144، 145 ـ ابن حبيش: غزوات، ج1، ص197 الدياربكري: تاريخ الخميس، ج2، ص233 ـ الكلاعي: الاكتفاء، ج3، ص153

[2] ـ الأزدي: فتوح الشام، ص88 ـ ابن حبيش: غزوات، ج1، ص197 ـ الدياربكري: تاريخ الخميس، ج2، ص197 ـ عرجون: خالد ابن الوليد، ص265

[3] ـ ماجد: التاريخ السياسي، ص178

[4] ـ البلاذري: فتوح، ص138

[5] ـ ابن حبيش: غزوات، ج1، ص198 ـ الدياربكري: تاريخ الخميس، ج2، ص234

[6] ـ علي: تاريخ، ص137

[7] ـ الكلاعي: الاكتفاء،ج3، ص152

[8] ـ الواقدي: فتوح الشام، ج1، ص47

[9] ـ وقد ذكره الطبري في موضع آخر الفيقار وورد عند ابن الأثير القيقار

[10] ـ الطبري: تاريخ، ج3، ص243

[11] ـ الواقدي: فتوح الشام، ج1، ص52 ـ ابن حبيش: غزوات، ج1، ص198 ـ الكلاعي: الاكتفاء، ج3، ص149

وبدأت الاستعدادات من كلا الطرفين وأخذت الحرب كل الأشكال فلم تقتصر على القتال، بل وصلت إلى الحيل ونصب الكمائن، ومن أبرز المكائد مكيدة وردان التي نصب من خلالها كميناً ليوقع بخالد بن الوليد، إلا أن خالداً اكتشف تلك المكيدة من خلال الرسول الذي أرسله وردان فكانت هذه الحيلة هي الوسيلة التي أنهت حياة وردان، الذي أراد التظاهر بأنه يريد التفاوض مع خالد بن الوليد بشكل منفرد، في الوقت الذي يكون مع وردان عشرة جنود ليقتلوا خالد بن الوليد[1]، وهذا الأمر زاد من تدهور الروح المعنوية لدى الروم في الوقت الذي ارتفعت فيه الروح المعنوية لدى المسلمين. وفي تلك الأثناء أوشكت المعركة على البدء، إلا أن خالداً بن الوليد رأى تأجيلها إلى صلاة الظهر وهي الساعة التي كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحبذ القتال فيها، واستغلّ الروم ذلك فزادوا من هجماتهم على جيش المسلمين من دون أن يكون لهم أية ردة فعل إلى أن حان الوقت فبدأت المعركة، التي قاتل فيها جيش المسلمين بأسلوب جديد ومتطور، زالت معه الفوارق وتلاشت الامتيازات التي امتلكها الروم من كثرة في العدد والعدة والخبرة واستمرت لوقت طويل[2]. وبعد أن شعر خالد بن الوليد بأن قوات الطرفين قد أنهكت، كعادته فاجأ العدو بقواته الاحتياطية التي كانت بقيادة يزيد بن أبي سفيان، والتي تمكنت من اختراق قوات العدو في أكثر من مكان وقتلت قائدهم الجديد القبقلار[3].

وبموت قائدهم ضعفت مقاومة الروم، ثم انهارت تماماً، وهربوا إلى حمص وإيليا وقيسارية. وأرسل خالد بن الوليد خيالته لمطاردة فلولهم في جميع الاتجاهات[4]. و في الوقت نفسه كتب خالد إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه يخبره بالنصر ويصور له مدى أهميته[5].

واختلفت المصادر اختلافاً واضحاً في تاريخ هذه المعركة، فمنها ما ذكر أن تاريخها كان في (6 جمادى الأولى13هـ / 634م)[6]. ومنها ما ذكر أن تاريخ المواجهة كان يوم السبت في (28جمادى الأولى 13هـ / 634م)[7]. ومنهم من جعل من المعركة التي قامت في ذلك التاريخ معركة اليرموك[8]. ومهما يكن فإن ذلك لا يغير من الواقع التاريخي شيئاً، والذي يثبت تمزق شمل القوات الرومية وتحقق النصر المؤزر للمسلمين بعد أن خاضوا معركة عنيفة مهدت الطريق أمام القوات الإسلامية لفتح بلاد الشام، إذ إنها أول موقعة عظيمة بين عرب الحجاز

---

1 - الواقدي: فتوح الشام، ج1، ص52

2 - الأزدي: فتوح الشام، ص91

3 - علي: تاريخ، ص140(وهو ذات الشخص الذي ذكره الطبري بالفيقار وذكره ابن الأثير بالقيقار)

4 - الدياربكري: تاريخ الخميس، ج2، ص234

5 - ابن حبيش: غزوات، ج1، ص200

6 - الواقدي: فتوح الشام ، ج1، ص59

7 - التميمي: السيرة، ص452 - ابن الأثير: الكامل، ج2، ص287 - ابن حبيش: غزوات، ج1، ص201 - الدياربكري: تاريخ الخميس، ج2، ص235 - الكلاعي: الاكتفاء، ج3، ص153

8 - الطبري: تاريخ، ج3، ص223 - ابن كثير: البداية، ج7، ص7 - حسن: التاريخ السياسي، ج1، ص225 - الخضري بك:(محمد)، تاريخ الأمم الإسلامية، ج1، دار الفكر، بيروت، ط1، 1994م، ص140

والبيزنطيين منذ أن ظهر الإسلام وعملت المدينة على تسخير هذا النصر في حث المسلمين على الجهاد والسعي لتحقيق فتوح أخرى[1]، وكان هرقل في حمص عندما وصله نبأ هزيمة قواته في أجنادين، والكارثة التي حلت به وبقواته وإدراكه هي أن القوات الإسلامية لن تكتفي بما حققته حتى الآن. كل هذه الأمور لم تكن بمستوى المفاجأة التي أحدثها ظهور خالد بن الوليد في بلاد الشام في ذلك الوقت[2].مما دفع هرقل إلى نقل مقر قيادته من حمص إلى أنطاكية[3].

وظهر دور المرأة واضحاً في هذه المعركة، فقد أسهمت في التحريض على القتال[4]. بل إنها شاركت في القتال[5]، ولهذه المعركة أهمية كبيرة إذ كانت بمثابة التمهيد لمعركة اليرموك، ونتيجتها مؤثرة في كلا الطرفين، فقرار خالد بن الوليد بالحركة إلى أجنادين كان قراراً صائباً. فوجود جيش كبير للروم في أجنادين كان من الممكن أن يقوم بمناورة يستطيع من خلالها تثبيت قوات المسلمين في المناطق التي احتلتها، لذلك كان من الضروري التخلص من هذا التهديد الذي بات يشكل خطراً كبيراً على قوات المسلمين، فكانت هزيمة غير متوقعة، وظنوا أنها محنة عابرة ستمر من دون أي تأثير هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان تأثير هذا النصر كبيراً بالنسبة إلى المسلمين فقد رفع من معنوياتهم وزاد من ثقة الجنود بأنفسهم ومن ثقتهم بقادتهم، وأكد على مهارة القادة المسلمين في وضع الخطط وتنفيذها بشكل يفوق قدرة القادة البيزنطيين في ذلك. والنتيجة الأهم من ذلك أنها زادت من إقبال المسلمين على الجهاد، إذ بدؤوا بالتوجه إلى الشام والمشاركة بالجهاد من دون أي تردد، ولكن على الرغم من أهمية هذا الانتصار إلا أنه لم يحسم الوضع العسكري في بلاد الشام، فالنفوذ البيزنطي ما زال قوياً في الوسط والشمال[6].

وانفرد ابن حبيش بذكر معركة أخرى في أجنادين وذلك في أثناء توجه الجيوش إلى حمص بعد فتح دمشق وفحل وقائد جيش المسلمين عمرو بن العاص[7].

وهنا لابد من سؤال فقد اختلفت المصادر في ترتيب معارك الفتوح هل أجنادين قبل اليرموك؟. أم اليرموك قبل أجنادين؟.

---

1 - ماجد: التاريخ السياسي ص179
2 - صالح: العسكرية، ص99
3 - سالم: التاريخ السياسي، ص218
4 - عرجون: خالد بن الوليد، ص265
5 - وتر: الريادة، ص159
6 - بيضون: من دولة عمر، ص63
7 - ابن حبيش: غزوات، ج1، ص313، 314

المهم أنه نظف المسلمون جل أجزاء فلسطين من العدو، وباتت الطريق مفتوحة نحو دمشق، ومع هذا كان لابد من إكمال عزل هذه المدينة تماماً، ولذلك خاض المسلمون بعد أجنادين عدة معارك ستتم في عهد الخليفة عمر بن الخطاب؟.

الفصل الرابع:

الفتوحات زمن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

- معارك وادي الأردن فحل وسواها (13هـ / 634م)
- فتح دمشق والتوغل حتى حمص(14هـ / 636م)
- الانسحاب إلى اليرموك
- مرحلة المعركة الفاصلة(اليرموك 15هـ / 636م)
- اجتماع الجابية وفتح بيت المقدس(17هـ / 638م)
- فتح باقي المناطق(17هـ / 638م)
- طاعون عمواس (18هـ ـ 639م)

معارك وادي الأردن(فحل[1] وسواها) (13هـ / 634م):

اختلفت المصادر في المعركة التي قامت بعد أجنادين، إذ ذكر أنّ جيش المسلمين سار إلى فحل في الأردن[2]، وذلك بتوجيه من الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي تسلم الخلافة بعد وفاة الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه في (22 جمادى الآخر 13هـ / 634م) وهو ابن ثلاث وستين سنة، فطلب إليهم أن يبدؤوا بدمشق، على أن يكون إشغال أهل فحل بالخيول، وإذا تأخّر ذلك توجهوا إلى فحل وبالفعل تم لهم ذلك[3].

ويبدو أن تأخّر فتح دمشق لم يكن السبب الوحيد في معركة فحل، إذ كانت من دواعي استمرار الفتح الإسلامي أن يقوم المسلمون بتصفية الوجود البيزنطي من جنوب بلاد الشام، ولكون فحل تمثّل حصناً عسكرياً بيزنطياً فكان لابد من ملاحقتهم لتأمين التواصل بينهم وبين قيادتهم في المدينة، ليتمكنوا من حصار دمشق، وقد حدثت المعركة في ذي القعدة(13هـ / 634م). بحسب ما ورد في أغلب المصادر[4]، واختلفت فيما إذا كانت فحل قبل فتح دمشق أم بعدها ، فذكرت مصادر عديدة أنّ فحلاً كانت بعد فتح دمشق[5]. بينما ذكرت مصادر أخرى أن فحل كانت قبل فتح دمشق[6].

واختلفت المصادر فيمن كان على الناس يوم فحل أيضاً، فذكر بعضها أنّ أبو عبيدة كان قائد الجيش[7]، بينما ذكرت أغلب المصادر أنّ القائد هو خالد بن الوليد، وأبو عبيدة بن الجراح على الميمنة وعمرو بن العاص على الميسرة وعلى الخيل ضرار بن الأزور وعلى الرجال عياض بن غنم[8]. والمهم في الأمر هو أنّ القادة خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وأبا عبيدة بن الجراح توجهوا لملاقاة جيش كان قد أرسله هرقل إلى الشام[9]، وبالتحديد إلى منطقة فحل

---

[1] ـ فحل منطقة سهلية واسعة تتوفر فيها عناصر المعيشة من بقايا آبار مياه وبعض مجاري نهر اليرموك، والدليل على ذلك اللون الأخضر الذي يغطي أرضها صيفاً إلى الآن (الملحق الشكل رقم 1)، تحيط بها سلاسل جبلية غربية وشرقية وهي مأهولة بالسكان حالياً (الملحق الشكل رقم 2)، وتجري فيها بعض التنقيبات الأثرية التي ربما ستكشف في المستقبل بعض الحقائق التاريخية التي تفيد الدراسة. وتم اللقاء ببعض المنقبين الآثاريين في أحد المواقع المحاذية للقلعة وكل ما اكتشفوه إلى الآن كنيسة مؤلفة من طابقين طابق علوي لم يبق منه سوى بعض الأعمدة والجدران وطابق سفلي تحت الأرض. دراسة ميدانية

[2] ـ الملحق، الخريطة رقم(4)

2- الطبري: تاريخ، ج3، ص260 - ابن الأثير: الكامل، ج1، ص295

[4] ـ البلاذري: فتوح، ص139 - الطبري: تاريخ، ج3، ص257 - ابن عساكر: تاريخ، ج2، ص99

[5] ـ اليعقوبي: تاريخ، م2، ص140،141 - ابن كثير: البداية، ج7، ص30

[6] ـ الطبري: تاريخ، ج3، ص257

[7] ـ البلاذري: فتوح، ص139 - اليعقوبي: تاريخ، م2، ص141 - ابن الأعثم الكوفي: الفتوح، ج1، ص189

[8] ـ الطبري: تاريخ، ج3، ص157 - التميمي: السيرة، ص460 - ابن عساكر: تاريخ، ج2، ص105 - ابن حبيش: غزوات، ج1، ص218 - ابن كثير: البداية، ج7، ص31 - الكلاعي: الاكتفاء، ج3، ص172

[9] ـ البلاذري: فتوح، ص140 - ماجد: التاريخ السياسي، ص83

الحصينة وذلك لضرب قوات المسلمين المنتشرة في بلاد الشام من جهة، وقطع طرق مواصلات المسلمين مع الجزيرة العربية من جهة أخرى[1].

أضف إلى ذلك استخدام الروم للمياه المتوفرة في المنطقة بغزارة كسلاح استعمل في الوقت المناسب لكن استثماره لم يكن مناسباً، حيث فتح الروم المياه على الجيوش المسلمة للحيلولة دون تقدمهم فنجحوا بذلك، وقد بلغ عدد جيش الروم المائة ألف[2]. تسلل أكثرهم من حمص، وانضمت إليهم القوى التي هُزِمَتْ في المعارك السالفة كما التحقت بهم العناصر المعادية للمسلمين[3]. و كان قائد جيش الروم آنذاك سقلار بن مخراق، وأمام هذا الوضع الجديد وقف المسلمون حائرين في أمرهم، فقرروا مراسلة الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه لاستشارته[4]، مع البقاء في حالة استنفار تام تحسباً لأي هجوم مباغت.

وقد انفرد أحد المؤرخين الحديثين بذكر رواية مفادها أن خالداً بن الوليد قرر العمل على سحب الروم من موقعهم الحصين معتمداً في ذلك على عبقريته العسكرية التي لم تخذله في أية معركة، وبالفعل نجح في ذلك من خلال توجيه ضربة لفرسان الروم[5]، بينما ذكرت مصادر أخرى أنّ الجيش الإسلامي أيقن بأنه لن يستطيع عبور المياه لمهاجمة حصن الروم.

وفي أثناء ذلك قرر قائد الروم البدء بالهجوم، وذلك في وقت الفجر ظناً منهم بأنهم سيفاجئونهم[6]. وبذلك جازف بموقعه المتميز بحماية طبيعية من المستنقعات المائية، وذلك أملاً منه في رفع المعنويات الهابطة لدى جيشه، فكانت المفاجأة عكسية تماماً؛ فالمسلمون كانوا مستعدين لتلك اللحظة كل الاستعداد، فبدأت المعركة التي استعمل فيها خالد بن الوليد عبقريته العسكرية فتمكن من فصل فرسانهم عن المشاة وضربهم من الميمنة والميسرة حتى قتل قائدهم سقلار[7].

أظهر المسلمون خلال هذه المعركة عنادهم وتصميمهم لانتزاع النصر واستمر القتال طيلة النهار، وظهر التحول لصالح المسلمين بعد مقتل سقلار، فبدأ فرسان المسلمين يقتلون خصومهم في الوحل والماء[8].

---

[1] ـ أبو قدورة:(شاهر سليمان)، الحروب العربية والإسلامية، عمان، 1993، ج1، ط1، ص145

[2] ـ ابن الأعثم الكوفي: الفتوح، ج1، ص175 ـ ابن حبيش: غزوات، ج1، ص213

[3] ـ العسلي: فن، ص130

[4] ـ الطبري: تاريخ، ج3، ص263 ـ ابن حبيش: غزوات، ج1، ص218

[5] ـ صالح: العسكرية، ص104

[6] ـ ابن كثير: البداية، ج7، ص31

[7] ـ شندب: تاريخ الخلفاء، ص69

[8] ـ العسلي: فن، ص131

كان للانتصار في فحل دور كبير في نجاح الفتوحات اللاحقة، إذ تمت السيطرة على القلاع التي كانت للروم وأصبحت بمثابة موقع إسلامي أمامي لحماية ظهر الجيش الإسلامي المحاصر لدمشق من أي خطر يتهدده من جهة فلسطين، بعد أن كانت خطراً يهدد المسلمين[1].

وبعد فحل صالح شرحبيل بن حسنة وعمرو بن العاص أهل بيسان بعد حصارها وذلك في ذي الحجة (13هـ / 635م) كونها أقرب المناطق لفحل، وقد لجأ إليها عدد من جنود الروم الفارين من فحل، فكان لابد من اللحاق بهم والقضاء على مقاومة الروم في تلك المنطقة للمضي قدماً في إخضاع بلاد الشام للإسلام، كما أنّ شرحبيل بن حسنة افتتح الأردن عنوة في التاريخ ذاته وكذلك صالحه أهل طبرية على أنصاف منازلهم وكنائسهم، وتتابع فتح مدن الأردن من دون مقاومة تُذكر، ففتحت سوسية وأفيق وجرش وبيت راس وقدس والجولان[2].

وبذلك يكون المسلمون قد هزموا الروم وقتلوا منهم الآلاف وفر الباقي إلى مناطق مختلفة في الشام. وتحول السلاح الجديد من يد الروم إلى سلاح استخدم ضدهم، وكان بمثابة المصيدة التي نصبوها فوقعوا بها مما أسهم في إبادتهم.

وبعث أبو عبيدة بخمس الغنائم إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه[3]، حيث مركز الدولة الجديدة، وقد عُرفت هذه المعركة بأسماء أخرى غير فحل منها يوم بيسان، ومنها ذات الردغة أي ذات الوحل[4].

لقد منح النصرُ في فحل العربَ السيطرة شبه الكاملة على فلسطين ووادي الأردن، أي جل الأجزاء الجنوبية لبلاد الشام، وهي الأجزاء المتصلة مباشرة بشبه جزيرة العرب، وهكذا بات بالإمكان جلب الإمدادات وحماية ظهر القوات العربية حتى تتفرغ لبقية مشروع فتح بلاد الشام، وفي الوقت ذاته عُزلت مصر عن بلاد الشام وبات من الصعب وصول نجدات بيزنطية من هناك، أو إرسالها إليها براً، وفي هذا برهان أكيد على وجود خطط إستراتيجية واضحة لمتابعة فتح شمال بلاد الشام ومصر، ويبدو أنّ هذا الوضع وفّر للدعوة الإسلامية مناخاً حسناً وفي الوقت ذاته جعل مشاعر المنطقة التي كانت مأخوذة بالنوازع القبلية في مواقفها الأولى من الحركة الإسلامية باتجاه التطلعات الإسلامية وأغراضها، وتركتها وسط تيار الإسلام المتوثب نحو بلاد الشام، وقد عملت رابطة القربى على تعجيل الاستعداد النفسي لعرب الشام في قبول شعارات المسلمين والمشاركة في طرد البيزنطيين.

---

[1] ـ الملحق، الشكل رقم 3

[2] ـ البلاذري: فتوح، ص140، 141 ـ الطبري: تاريخ، ج3، ص264- 265 ـ ابن حبيش: غزوات، ج1، ص219- 220

[3] ـ ابن الأعثم الكوفي: الفتوح، ج1، ص194

[4] ـ الطبري: تاريخ، ج3، ص257

وغدت دمشق هي الوجهة، لماذا دمشق مع أن قنسرين والقدس وأنطاكيا كانت آنذاك الأهم؟ هل هذا تطلع استراتيجي مستقبلي؟. أصبح فتح دمشق هو الأولوية بعد تأمين ظهور المسلمين من جهة الجنوب التي أصبحت تقريباً خالية من أية حامية أو قوة رومية يمكن أن تستخدم فيما بعد لفك الحصار عن دمشق، كما تم إبقاء قوة عسكرية في فحل لضمان الحماية ومنع تقدم أية قوات رومية نحو دمشق(1). كما أصبح بالإمكان الحصول على الإمدادات من شبه الجزيرة.

اجتمعت أسباب مختلفة لهذا النصر منها ما يتعلق بالإمكانات الكثيرة التي توافرت لدى قيادة جيش المسلمين من عبقرية وحنكة وفهم دقيق للوقائع، بعكس قيادة الروم التي رأت الأمور والوقائع بجهل تام، أضف إلى ذلك فقد دارت الدائرة عليهم وجنوا ما عملته يداهم.

أضف إلى ذلك أن إيقاظ الفكر لم يكن محصوراً في عرب الشام فحسب بل برز في ظلال الظروف المستجدة بالجيش من كان عوناً للمسلمين، ولعل أقرب ما يعبر عن الحالة التي حركت أهل الشام عرباً وغير عرب من الحركة الإسلامية من جهة، وبيزنطية من جهة أخرى أن العرب المتنصرة عادوا بعد أن صاروا مع الروم فانضموا إلى العرب المسلمين وأخذتهم الحمية وأصبحوا عيوناً على الروم، أضف إلى ذلك أن أهل الذمة لما رأوا وفاء المسلمين وحسن سيرتهم صاروا أشد على الروم من المسلمين، وبعث أهل كل مدينة صالحت المسلمين رجالاً منهم يتجسّسون على الروم ويقدمون أخبارهم للمسلمين(2).

---

1 - وتر: الريادة، ص160

2 - الشريف:(عبد الله بن حسين)، موقف يهود الشام من الفتح الإسلامي، مجلة جامعة أم القرى، م16، العدد 28، 2003م، ج1، ص506

فتح دمشق والتوغل حتى حمص(14هـ / 636م):

بعد نصر فحل بات من الممكن التوجه إلى دمشق مباشرة[1]، وفي طريقهم إلى دمشق واجه المسلمون جيشاً رومياً متمركزاً في منطقة مرج الصفر[2]، وهدف هذه القوة إنما محاولة إعاقة تقدم الجيش الإسلامي في أحسن الأحوال؛ وذلك لكسب الوقت من أجل زيادة تحصين دمشق وتموينها[3].

وسار خالد بن الوليد إلى تلك القوة بعد أن عبّأ جيشه، وحدثت معركة بينهما بعد أن بدأت بمبارزات فردية، أسر من خلالها بعض قادة الروم، مما أدى إلى انهيار معنويات مقاتليهم، وشُبهت هذه المعركة بمعركة أجنادين، وتمت فيها هزيمة الروم، ففر من بقي حياً منهم إلى دمشق ومنهم إلى حمص[4]، وكانت هذه المعركة في أول محرم سنة(14هـ / 635م)[5]. ومنها ما ذكر أنها كانت في (18 جمادى الآخرة) من العام نفسه [6].

واختلفت أيضاً في توقيتها فمنها ما ذكر أنها حدثت في أثناء حصار دمشق[7]. ومنها ما ذكر أنها كانت في أثناء التوجه إلى دمشق وقبل حصارها[8]، ويغلب أن يكون هذا الرأي هو الصحيح؛ فكل المصادر أجمعت على مسألة هرب قسم من الروم إلى دمشق، فكيف الهرب إليها وهي محاصرة وعليها يزيد بن أبي سفيان هذا أمر، والأمر الآخر الذي يؤكد ذلك هو المخطط الذي سار عليه القادة المسلمون لإكمال عزل دمشق تماماً.

وقد توجب على العرب السيطرة على البقاع والتوسع وصولاً حتى بيروت ثغر دمشق لأن الذي يصل دمشق بحمص يمر عبر البقاع إلى بعلبك. وتوضيح ذلك إن السيطرة على البقاع كان أمراً مهماً لكن ليس حاسماً بالنسبة إلى تطويق دمشق، فالطريق التي وصلت بين دمشق والبقاع كانت تمر عبر خانق الربوة وجبل قاسيون، وهذه الطريق لم تكن مفيدة من الناحية العسكرية وعليه كانت الطريق العسكرية تذهب إلى جنوب دمشق ربما حتى ما بعد مرج الصفر، ثم تنطلق شمالاً ويظهر مجدداً أهمية معركة مرج الصفر وفحل، وتابع العرب المسلمون زحفهم باتجاه دمشق، وسيطروا على المناطق المحيطة بدمشق من الغوطة وغيرها، فذكر بعضهم أن السيطرة على تلك المناطق كان عنوة[9]، ومنهم من ذكر أن تلك المناطق كانت خاوية على عروشها بعد

---

1 ـ الملحق، الخريطة رقم(4)

2 ـ مرج الصفر: وهي منطقة بالقرب من منطقة الكسوة حيث يمر نهر الأعوج. (وتر: الريادة، ص160)

3 ـ سعيد: حروب، ص141 ـ عباس: تاريخ، ص238

4 ـ الأزدي: فتوح الشام، ص95، 96 ـ البلاذري: فتوح، ص143 ـ ابن حبيش: غزوات، ج1، ص203، 204

5 ـ البلاذري: فتوح، ص143

6 ـ ابن حبيش: غزوات، ج1، ص204

7 ـ الأزدي: فتوح الشام، ص95 ـ الدياربكري: تاريخ الخميس، ج2، ص235

8 ـ البلاذري: فتوح، ص143 ـ اليعقوبي: تاريخ، م2، ص139

9 ـ البلاذري: فتوح، ص145

فرار القوم إلى دمشق ليحتموا بأسوارها فسكنها المسلمون[1]، وكان ذلك عوناً لهم في محاصرة دمشق.

وبدأت الآن مرحلة جديدة ألا وهي مرحلة حصار دمشق، وكان الخلاف كبير بين المؤرخين في تاريخ الحصار وترتيبه مع باقي المعارك فمنهم من ذكر أن هذا الحصار كان بعد اليرموك[2]. التي انهزمت فيه قوات الروم، فكيف لقوات منهزمة أن تعاود الصمود أمام القوات الملاحقة لها. وتجارب المعارك تؤكد أنه لا يمكن لأي جيش مهزوم بمعنويات منهارة وتلاحقه قوات المنتصرين بمعنويات مرتفعة أن تفكر بتكرار التجربة.

وجعل بعضهم حصار دمشق قبل اليرموك في شهر رجب سنة(14هـ / 635م)[3]. ومنهم من قال إنها كانت في سنة(14هـ / 635م) من دون أن يحدد الشهر[4]، وسبب الخلاف في تحديد تاريخ حصار دمشق هو تكرار الحصار لأكثر من مرة فقد حوصرت من قبل أبي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد قبل معركة أجنادين إلا أنه لم يتم فتحها، والدليل على أنه حصل فتح دمشق قبل اليرموك لأن المسلمين عندما قرروا الانسحاب إلى اليرموك أعادوا الأموال التي أخذوها من المدن التي صالحتهم بما في ذلك حمص ودمشق، باعتبار شرط الأمان الذي أعطاه المسلمون لأهالي المدن المفتوحة قد انتفى برحيل المسلمين عنهم، أضف إلى ذلك أن المسلمين لما انسحبوا من حمص ودمشق إلى اليرموك عادت دمشق في حل من شروط الصلح والأمان وبعد انتصار المسلمين في اليرموك أعادوا فتح دمشق على شروط الصلح السالفة.

والمرجح أن فتحها تم في (14هـ / 636م)، أيام الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي قام بعزل خالد بن الوليد عن القيادة العامة لجيوش جبهة الشام، وتعيين أبي عبيدة بن الجراح، في الوقت الذي كان فيه خالد بن الوليد يدير فيها رحى القتال بمهارة وبسالة يستحقان الإعجاب والتقدير، فلم يغضب، ولم يتمرد وقبل بأمر العزل من دون أي تذمر، ولم يكن لهذا أي تأثير في عزيمته، أو أي تغيير في إخلاصه لدينه بل ظل يقود الجيش ويمده بآرائه، ويرفده ببلائه على الرغم من عزله عن القيادة.

واختلفت المصادر في ذكر أسباب العزل وتعددت الروايات، فمنها ما ذكر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما زال ساخطاً عليه لوقعته بابن نويرة[5]، ومنها ما ذكر أن سبب العزل تمثل بمحاولات خالد الاستقلالية بعد سكه للنقود في فلسطين وعليها اسمه[6]، ومنها ما ذكر

---

[1] ـ الوكيل:(محمد السيد)، جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين، دار المجتمع، 1416هـ - 1995م، ط5، ص175

[2] ـ ابن الأثير: الكامل، ج2، ص293 ـ ابن كثير: البداية، ج7، ص24

[3] ـ البلاذري: فتوح، ص145 ـ اليعقوبي: تاريخ، م2، ص140 ـ الطبري: تاريخ، ج3، ص258 ـ التميمي: السيرة، ص463، 464

[4] ـ الأزدي: فتوح الشام، ص106 ـ الذهبي: تاريخ، ص123

[5] ـ الطبري: تاريخ، ج2، ص623 ـ ابن الأثير: الكامل، ج2، ص293

[6] ـ زيود:(محمد)، تاريخ العرب والإسلام، جامعة دمشق، 1994- 1995م، ص208

رواية مفادها أن الخليفة عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد رضي الله عنهما تصارعا وهما غلامان فكسر خالد ابن الوليد ساق عمر، فما زال بينهما البغض حتى تولى عمر فعزله[1]، ولكن هل يعقل أن يظل أثر لعبة بين طفلين قبل الإسلام ويتحول إلى دافعٍ لانتقام فردي قد يؤثر في مستقبل كل الأمة، وما عرف عن طبائع المسلمين عكس ذلك ومناقض له، فهم بعيدون كل البعد عن الحقد والضغينة، ومنها ما ذكر من أن سبب العزل تمثل بغضب الخليفة عمر بن الخطاب من خالد بن الوليد بعد سماعه أنه قد تدلك بالخمرة وقد حرّمها الله[2]. ومضمون المراسلات بينهما يبين أن الخليفة عمر إنما أظهر أثر ذلك ونهاه عن العودة إليه، إن صح الخبر فلا يمكن عد ذلك هو سبب العزل مادام الحرص على خالد والخوف عليه هو العنوان ومهما يكن من أمر فإن هذا العزل لم يكن له أي تأثير في مجريات الأحداث وفي علاقة القادة مع بعضهم، وعلى نفسيات الجنود ومدى التزامهم بأوامر خالد بن الوليد، لأن العزل كان مجرد عمل تكتيكي حيث ظل سيف الله هو الأول بين أمراء جيوش العرب في بلاد الشام، وصاحب الكلمة النافذة والرأي الراجح في الحروب، أضف إلى ذلك أن هذا العزل إنما هو مظهر من مظاهر عبقرية عمر الإدارية والسياسية، فهو اختار للقيادة في الظرف الجديد شخصاً يمكن أن تلتف حوله قلوب المقاتلة، ولا يؤدي وجوده إلى تفرق الكلمة لأنه استعان ببعض قبائل الردة إلى جانب القبائل اليمانية وأبرزهم قيس بن المكشوح المرادي. وأن هذا الأمر يستدعي إبعاد خالد بن الوليد عن القيادة وتسليمها لأبي عبيدة، ألم يكن خالد بن الوليد هو بطل حروب الردة؟. والمفيد ذكره أنّ تقبّل خالد لهذا الأمر دليل على تفهمه العميق للأسباب التي دعت الخليفة لاتخاذ القرار، وعلى إخلاصه للمهمة العسكرية والدينية التي اضطلع بها قائداً أول الأمر ومقاتلاً فيما بعد، ويبدو أن أبا عبيدة كان لديه من الحكمة والتفهم للأسباب التي دعت إلى هذا التغيير، وأوكل إلى خالد القيادة العسكرية الفعلية بكل ما تحتاج إليه من تقنية وعلم لا يتوافران إلا لخالد دون سواه، وهذا الدور المزدوج لكل من أبي عبيدة وخالد سبب الحيرة والتناقض في الروايات[3]؛ ومن هنا أظهر خالد بن الوليد بطولة ليس في مصارعة الأعداء فقط بل أخلاقية أيضاً تجلت في تقبل الأوامر ورفض الفتنة، فكان النجاح في الامتحان بامتياز، كما نجح في ميدان مؤتة والعراق وبلاد الشام. إذ إنّ العزل كان في وقت علت فيه الانتصارات وسادت النجاحات في كل الميادين بفضل عبقرية هذه القيادة ولم يكن في وقت هزائم ليكون تقبل العزل شيء لابد منه؛ إذاً كان العزل

---

1 - ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج16، ص267

2 - ابن الأثير: الكامل، ج2، ص375

3 - عاقل: تاريخ، ص254، 255

لأسباب تتعلق بجيش المسلمين وبناء على اجتهاد سديد من الخليفة عمر بن الخطاب وليس لأسباب شخصية كما ادعى أعداء الأمة.

وكانت دمشق مدينة محصنة متينة الأسوار، تحيط بها البساتين من كل جانب، ومن أهم أبوابها باب شرقي من الشرق ومن الغرب باب الجابية، ومن الشمال باب توما ومن الجنوب باب الصغير، وهي ماثلة حتى الآن بالأسماء ذاتها. وتأخذ المدينة شكل البيضة، وبعدها بين الرأسين لا يتجاوز(1500م)، وبعدها من البطنين لا يتجاوز(1000م)، أما السور فهو مبني من الحجارة البيضاء المربعة الكبيرة والقاسية، ويحيط بالسور خندق مملوء بمياه بردى ويتراوح عرضه من (10 ــ 15قدم)[1]، ولم تملك دمشق وقتها قلعة داخلية لكن أبوابها متينة صنعت من الأخشاب السميكة وغطيت بصفائح من الحديد.

وأصبح أمام قوات المسلمين بذلك، سور وخندق مملوء بالماء، وأبواب متينة مصنوعة من الخشب السميك التي إذا أغلقت صَعُبَ فتحها، أضف إلى ذلك أنه لم يمتلك العرب آنذاك الأسلحة ولا الخبرة باستخدامها، لذلك لم يكن أمام المسلمين سوى إحكام ومطاولة الحصار من جميع الجهات، حتى تستسلم المدينة، أو يتم تسلق أسوارها، وتمركز كبار القادة عند الأبواب، فكان أبو عبيدة على باب الجابية، وخالد بن الوليد على الباب الشرقي، وعمرو بن العاص على باب الفراديس، وتُرك باب توما لشرحبيل بن حسنة، ويزيد بن أبي سفيان على باب الصغير[2]، مع بقاء قوة مع ضرار بن الأزور بمثابة حامية متحركة[3] بين الأبواب لضمان القيام بالنجدة المناسبة عند الحاجة إلى ذلك. ويفيد هذا أنّ تمركز خالد بن الوليد وأبي عبيدة كان قبالة بعضهما على طرفي الشارع المستقيم لمدينة دمشق(سوق مدحت باشا وامتداداته حالياً)، أضف إلى ذلك فقد اتخذ المسلمون فرقاً احتياطية تعمل على قطع الطرق عن دمشق، فعسكر أبو الدرداء عند برزة على طريق بعلبك ليتصدى لأي هجوم آتٍ من الشمال، وأقام ذو الكلاع الحميري بين دمشق وحمص عند ثنية العقاب ليقطع الطريق، وعسكر علقمة بن حكيم ومسروق العبسي كي يتصديا لأي هجوم آتٍ من جهة فلسطين، وجعلت مسلحة عند ميسلون للتصدي لأي زحف يأتي من جهة الغرب، وقد كان لهذا الإحكام أثره في أهل البلد.

واشتد الحصار على المدينة وطال، وباءت بالإخفاق كل المحاولات لخرق الصفوف العربية ولم تصل أي نجدات بيزنطية، فعقد المحاصرون الآمال على الشتاء، ذلك لأنهم ظنوا أنّ المسلمين لا يستطيعوا أن يصمدوا أمام الحصار وخاصة أيام الشتاء، إلا أن المسلمين أصحاب

---

[1] - وتر: الريادة، ص162

[2] - البلاذري: فتوح، ص146 - اليعقوبي: تاريخ، م2، ص140 - ابن حبيش: غزوات، ج1، ص209 - الملحق، الشكل رقم 4

[3] - وتر: الريادة، ص166

الإيمان القوي والصبر الكبير صمدوا، وذلك من خلال التناوب على المرابطة، مع استمرار الاستطلاع لاختيار فجوة يمكنهم من خلالها الدخول إلى دمشق[1].

وأخذت المؤن تتقص داخل دمشق، كما شرع سكان أحواز دمشق في تقديم المساعدات والإرشادات إلى العرب، وبدأت بعض شخصيات دمشق المعروفة بالاتصال بالعرب كأسقف المدينة ومنصور بن سرجون صاحب المال وعامل دمشق من قبل الروم وطلبوا إلى خالد بن الوليد أن يعطي الأمان لأهل دمشق جميعاً مقابل فتح أبوابها للعرب فأجابه خالد بن الوليد إلى ما سأل وكتب له أماناً تضمن:"بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من خالد بن الوليد لأهل دمشق، إني قد أمنتهم على دمائهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم ولا يسكن شيء من دورهم. لهم في ذلك عهد الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم والخلفاء والمؤمنين، ولا يُعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية". شهد عليه أبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة و قضاعى بن عامر.

ولقد كتب أبو عبيدة بن الجراح لهم كتاباً اشترط فيه عليهم حين دخلها:" على أن تترك كنائسهم وبيعهم على أن لا يحدثوا بناء بيعة ولا كنيسة، على أن عليهم إرشاد الضال وبناء القناطر على الأنهار من أموالهم، وأن يضيفوا من مر بهم من المسلمين ثلاثة أيام، وعلى ألا يشتموا مسلماً ولا يضربوه ولا يرفعوا في نادي أهل الإسلام صليباً، ولا يخرجوا خنزيراً من منازلهم إلى أفنية المسلمين، وأن يوقدوا النيران للغزاة في سبيل الله، ولا يدلوا للمسلمين على عورة، ولا يضربوا نواقيسهم قبل أذان المسلمين ولا في أوقات صلاتهم، ولا يخرجوا الرايات في أيام عيدهم، ولا يسلبوا السلاح يوم عيدهم، ولا يتخذوه في بيوتهم. فإن فعلوا من ذلك شيئاً عوقبوا وأخذ منهم"[2].

وإذا قورنت معنويات الجيوش فقد كانت مرتفعة لدى المسلمين إلى أعلى درجة، بعكس معنويات الروم تماماً الذين فقدوا كل أمل بالصمود، وقد اختلفت الروايات حول كيفية الدخول، بل إنها اختلفت كذلك حول اسم القائد الذي دخلها صلحاً واسم القائد الذي دخلها عنوة، كما أنها اختلفت فيما إذا كان الدخول بالقوة أم بالصلح أم بالاثنين معاً.

إذ ذكرت مصادر أن خالداً استغل انشغال الجيش بالاحتفال بمناسبة قدوم مولود جديد لبطرق دمشق، أو كان لديهم عيد فشرب الجنود الخمر وانشغلوا، فاستغل ذلك خالد بن الوليد، واستعان بأناس من أهل المدينة قدّموا إليهم السلالم والحبل فصعدوا الأسوار وفتحوا الباب قسراً، ولكن فريقاً آخر من الجيش المحاصر استقبل مفاوضين فيهم الأسقف ومنصور بن سرجون، وطلبوا

---

1 ـ الطبري: تاريخ، ج3، ص260،261

2 ـ الحيدر آبادي: مجموعة الوثائق السياسية، ص264- 265

إلى المسلمين الأمان وبخاصة حين أيقنوا أن المدينة دخلت عنوة من جانب آخر، ودخلها خالد بن الوليد عنوة بينما دخل بقية القادة صلحاً[1].

بينما ذكرت رواية أخرى أن دخول خالد بن الوليد صلحاً مع الأسقف منصور الذي فتح له الباب الشرقي، بينما كان الدخول عنوة من قبل أبي عبيدة بن الجراح وبقية القادة[2]. وذكر البلاذري رواية أخرى للدخول إذ قال أن الروم أخرجوا ميتاً لهم من باب الجابية فتدافع المسلمون إليهم فدخلوا المدينة بالقوة، بقيادة أبي عبيدة بن الجراح وبقية القادة، بينما كان دخول خالد بن الوليد صلحاً[3]. واكتفى مؤرخون آخرون بذكر الأسماء فقالوا إن الذي دخل عنوة هو خالد بن الوليد والذي دخل صلحاً هو أبو عبيدة بن الجراح[4]، ومنهم من ذكر أن المسلمين جاؤوا إلى دمشق وأعطوا الأمان لأهلها دون ذكر لأسماء[5].

وقد حاول بعض المؤرخين استغلال ذلك لتزوير الأحداث والقول إن تلك الرواية التي تضمنت أن دخول دمشق تم صلحاً وعنوة إنما ذكرت لتسويغ أعمال الأمويين في اقتسام الكاتدرائية والاستيلاء على شطرها[6]، فكيفما كانت طريقة الدخول، فقد تم ذلك من جهتين، الأولى من باب شرقي والثانية باب الجابية، والملفت للانتباه أن هناك طريق يربط بين هذين البابين بشكل مستقيم مما يعني أن الدخول من أحد البابين سيؤدي حتماً إلى فتح الباب الآخر. وبالتالي كان المسلمون مدركين أهمية هذين البابين لذلك كان التركيز عليهما من قبل خالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح. ومما لا شك فيه أن تحركات جيش المسلمين إنما جاءت تطبيقاً لمبادئ مذهب عسكري جديد وقواعد ومبادئ كانوا قد اتبعوها شملت الاستطلاع واختيار الفرص المناسبة والمباغتة وإبداعات كل قائد في مكانه.

ومهما يكن من أمر فقد باتت الآن دمشق مفتوحة وهي من أكثر المناطق أهمية من النواحي الإستراتيجية والسياسية والاقتصادية والجغرافية فيها[7]. بعد أن فر عدد كبير من سكان دمشق إلى هرقل في إنطاكية، فحل في بيوت هؤلاء أفراد الجيش الإسلامي، ولذلك وأمام هذا الوضع الجديد خشي القائد أبو عبيدة بن الجراح أن يميل قادة جيش المسلمين وأفراده إلى حياة الدعة والنعيم متناسين باقي القوات التي ترابط بين الشام وحمص، ولذلك كان لابد من وضع حد من خلال الاستمرار بتوجيه القوات، فوجه عمرو بن العاص إلى الأردن وفلسطين، فرأى عمرو بن

---

1 - ابن كثير: البداية، ج7، ص25- الذهبي: تاريخ، ص125

2- البلاذري: فتوح، ص146 - افتيشيوس: التاريخ المجموع، ص15

3 - البلاذري: فتوح، ص147

4 - الأزدي: فتوح الشام، ص104 - اليعقوبي: تاريخ، م2، ص140 - علي: تاريخ، ص43

5 - السرياني: تاريخ، ص315

6 - حتي: تاريخ سورية، ص11

7 - أبو قدورة: الحروب، ص160

العاص تجمع الروم له في تلك المناطق، فأخبر أبا عبيدة بن الجراح بذلك، الذي أرسل له شرحبيل بن حسنة.

وقرر أبو عبيدة في ذلك الوقت التوجه إلى حمص، إلا أنه أجل ذلك بعد أن أرسل خالد بن الوليد لمواجهة جيش رومي في بعلبك[1]. ففتح خالد بن الوليد بعلبك بعد أن هزمهم في أثناء تحصنهم في المدينة إلى أن انتهى الأمر صلحاً، وقد ظهر من كتاب الصلح أن سكان بعلبك تكونوا من أربع عناصر رئيسية وهم الروم والفرس والعرب والنصارى من أهل بعلبك والسكان الأصليون[2].

وتوجه بعد ذلك أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد إلى حمص[3] في اثني عشر ألفاً وذلك بعد أن فرغ من دمشق، وحاصروا حمص في وقت بارد، وحاول أهل حمص إعادة الأخذ بأخطاء سكان دمشق الذين اعتمدوا على أمل أن يثني البرد إرادة المسلمين ويقلل من عزائمهم. وفي أثناء ذلك دعا أحد شيوخ حمص سكانها لمصالحة المسلمين إلا أنهم رفضوا، ولكن شدة الحصار أجبرتهم على طلب الصلح فصالحهم المسلمون على سبعين ألف دينار عاجلة وعلى كل محتلم في كل سنة أربعة دنانير[4]. وكان ذلك في سنة(14هـ / 636م)، وقد انفرد الواقدي برواية مفادها أن قادة المسلمين تظاهروا بالتراجع مما شجع هربيس على الخروج خلفهم، فأوقعوا به ودخلوا المدينة بعد ذلك[5].

كما انفرد ابن الأثير برواية مجيء المدد إلى حمص من قبل أهل الجزيرة ولم يعودوا إلا بعد أن أرسل لهم سعد بن أبي وقاص قوات من العراق أجبرتهم على التراجع، وتوجه أبو عبيدة بن الجراح بعد فتح حمص إلى حماه وشيزر ومعرة وحمص واللاذقية فصالحته كل تلك المناطق، كما فتح عبادة بن الصامت أنطرسوس، كما فتحوا سلمية وقنسرين[6]. وهذا خارج نطاق البحث،

وأمام كل هذه الأوضاع كلما سمع هرقل بنصر للمسلمين ابتعد عن الموطن الذي فتحوه، وظل يفر من بلد إلى آخر وينتقل من مكان إلى مكان طالباً النجاة، ومنتظراً الفرج.

وبهذا النصر الذي أسهم به كل جندي على قدر إمكاناته، وكل قائد على سعة إبداعاته وحنكته، أصبح الآن اللقاء القادم هو اللقاء الفصل وهو المحدد لمصير بلاد الشام، بل والمنطقة العربية بأكملها؛ فبنجاح تلك المعركة سيكون القرار بمتابعة الفتوح في باقي المناطق العربية،

---

1 ـ الأزدي: فتوح الشام، ج1، ص107،108،109

2 ـ تدمري:(عبد السلام)، لبنان من الفتح الإسلامي حتى سقوط الدولة الأموية، طرابلس، ط1، 1410هـ ـ 1990م، ص30

3 ـ الملحق، الخريطة رقم(4)

4 ـ الأزدي: فتوح الشام، ج1، ص146 ـ البلاذري: فتوح، ص255 ـ ابن الأعثم الكوفي: الفتوح، ج1، ص216

5 ـ الواقدي: فتوح الشام، ج1، ص124

6 ـ ابن الأثير: الكامل، ج2، ص343- ابن حبيش: غزوات، ج1، ص225

ولو قدر الله وكانت الهزيمة لبدأت حركة معاكسة يتم من خلالها عودة النفوذ والسيطرة الرومية على المنطقة، وانكماش السيطرة العربية الإسلامية.

الانسحاب إلى اليرموك:

بعد أن تمكن المسلمون من فتح حمص توجه عدد من بطارقتها إلى هرقل وهو في إنطاكية ليعلموه بما جرى[1]. وفي الوقت ذاته وصل وفد من أهل إيلياء وقيسارية يعلموه أنهم متمسكين بطاعته ويطلبون منه المدد، فأبدى هرقل استغرابه لانتصارات المسلمين على الرغم من قلة عددهم أمام أعداد الروم، مما أفقده صوابه ودفعه إلى التفكير في معركة فاصلة، فأعلن الاستنفار والتعبئة العامة وطالب بإرسال الجيوش من كل الجهات، فاجتمعت لديه جيوش من رومية والقسطنطينية وأهل دينه من أرمينية و عمورية ومن الروسية والصقالبة والإفرنج وكل مناطق الإمبراطورية البيزنطية، وسلم هرقل قيادة هذه الجيوش إلى باهان الذي خرج على رأس ثلاثمائة ألف رجل[2]، بينما ذكر مصدر آخر أن باهان سلم قيادة مائة ألف ودعا هرقل وزيراً له يدعى الديرجان وسلمه قيادة مائة ألف أخرى، ثم دعا وزيراً آخر يدعى قناطر وكلفه بقيادة مائة ألف رجل، وجعل من باهان أميراً على جميع الجنود[3]، ولكن كان الخلاف كبيراً على ترتيب معارك الفتوح في بلاد الشام، فذكرت مصادر ومراجع تاريخية أن اليرموك كانت من أولى المعارك الكبرى في الشام.

وكان إرسال هرقل الجيوش إلى بلاد الشام قبل مجيء خالد بن الوليد إليها، إذ تذكر المصادر أنه أرسل تذارق باتجاه شرحبيل بن حسنة، والفيقار[4] باتجاه أبي عبيدة[5]، إلا أن هذه الأحداث ذكرت في مراحل الفتح الأولى، فمثل هذا التجمع هو الذي سيحسم كل الأمور ولن يحتاج إلى معارك أخرى صغيرة بناءً على ذلك الرأي. وإلى جانب تلك الجيوش التي استنفرت لدى هرقل جيش من نصارى العرب بقيادة جبلة بن الأيهم[6]، وما من شك أن تجميع هرقل هذا العدد من الجيش يشير إلى إدراكه لأمور كثيرة، منها مدى قوة العرب الذين لم تهزمهم كثرة الروم في كل المعارك السالفة، فكان لابد من تجهيز جيش يفوق بعدته كل قوة ممكن مواجهتها، وتحطم أعداده كل عزيمة تقابلها، ومنها إدراك هرقل لحساسية الموقف ومدى أهمية هذه المعركة، لأنها ستكون الحاسمة إما لوجود العرب المسلمين في بلاد الشام أو الحاسمة لوجودهم هم.

---

[1] ـ ابن الأعثم الكوفي: الفتوح، ج1، ص218

[2] ـ الأزدي: فتوح الشام، ج1، ص152 ـ ابن الأعثم الكوفي: الفتوح، ج1، ص220 ـ القلقشندي: صبح الأعشى، ج4، ص422، 423، 463

[3] ـ ابن الأعثم الكوفي: الفتوح، ج1، ص222

[4] ـ وقد ذكره الطبري في موضع آخر بالقبقلار وابن الأثير بالقيقار

[5] ـ الطبري: تاريخ، ج3، ص222 ـ دحلان:(أحمد زيني)، الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية، المطبعة التجارية الكبرى، 1354هـ ، ج1، ص37، 38 ـ علي: تاريخ، ص116 ـ عبد الحميد: معارك، ص49

[6] ـ عباس: تاريخ، ص244 ـ ماجد: التاريخ السياسي، ص183

لذلك إن كان النصر لصالحهم فبالتأكيد لن يتوقف على حدود الشام، بل سيسعى لمهاجمة العرب المسلمين في عقر دارهم في المدينة ومكة، وإن كان النصر للعرب المسلمين فسيؤدي إلى القضاء على وجودهم بشكل كامل في بلاد الشام وفي المنطقة العربية بشكل كامل.

أمام هذا الوضع شعر قادة العرب المسلمين بحساسية الموقف، فعقد أبو عبيدة بن الجراح اجتماعاً لحظة سماعه الخبر، بدأ فيه استشارة المسلمين لمواجهة هذا الوضع الجديد، فكان رأي يزيد بن أبي سفيان أن يعسكروا على أبواب حمص والطلب إلى باقي القادة التوجه إليه، أما شرحبيل بن حسنة فأبدى عدم ثقته بأهل حمص، بينما رأى ميسرة بن مسروق ضرورة التراجع بعيداً عن المدن إلى بلاد تشبه بلاد العرب المسلمين والطلب إلى أمير المؤمنين إرسال المدد، فتم الاتفاق على الانسحاب من حمص إلى دمشق بعد أن أمر برد الجزية إلى أهل حمص قبل الانسحاب منها مما كان له أكبر الأثر في نفوس أهل تلك المدن التي رأت سمو أخلاق المسلمين ومدى التزامهم بتعاليم دينهم السمحة وصدق معاملتهم، مما دفع أهل حمص إلى إعلان ولائهم للمسلمين، وفي الوقت ذاته أرسل كتاباً إلى الخليفة عمر بن الخطاب أعلمه فيه بكل الأحداث وطلب إليه المدد[1].

وطبعاً الانسحاب لم يكن جبناً أو عجزاً عن المواجهة بل كان له أسباب، فقد يكون عبارة عن مخطط يتم فيه استدراج الجيش الرومي لمكان أنسب لقتالهم، فالعرب اعتادوا على القتال في مناطق خالية، أو قد تكون محاولة لامتصاص الحماس الذي كان لدى الجيش الرومي، بالإضافة إلى عدم رغبة أبي عبيدة بن الجراح في مقاتلتهم قبل وصول باقي القادة ووصول المدد المرسل من جهة الخلافة، كما أنهم سعوا لمعالجة إمكانية تغلب الروم عليهم وذلك من خلال تأمين مكان يمكنه من الانسحاب بسهولة إذا ما كانت الغلبة للروم.

وفي أثناء ذلك وصلت إمدادات الخليفة، إذ أرسل عامر بن حذيم في ثلاثة آلاف فارس واجتمعت بقوات المسلمين في دمشق[2]. وعقد أبو عبيدة بن الجراح مجلساً آخر في دمشق استشار فيه أصحابه، فكان رأي يزيد بن أبي سفيان أن ينزلوا في منطقة الجابية[3]، أما شرحبيل بن حسنة فرأى ضرورة التراجع إلى الحدود لاستقبال المدد الآخر الذي أرسله الخليفة عمر بن الخطاب، وأما معاذ بن جبل فرأى ضرورة عدم التراجع. وفي تلك الأثناء كان عمرو بن العاص يهدد مدينة إيلياء كي تعطي ولاءها للمسلمين وليمنعهم من التحرك ضدهم[4].

---

[1] ـ الأزدي: فتوح الشام، ج1، ص153، 154، 155، 156 - ابن الأعثم الكوفي: الفتوح، ج1، 223، 224، 225
[2] ـ ابن الأعثم الكوفي: الفتوح، ج1، ص228
[3] ـ الملحق، الخريطة رقم(4)
[4] ـ الأزدي: فتوح الشام، ج1، ص161، 164

ووصل مدد الخليفة المؤلف من ثلاثة آلاف مقاتل يقودهم سويد بن الصامت الأنصاري، فصار عددهم ثلاث وأر بعين ألف مقاتل، واجتمع قادة المسلمين في الجابية، وذلك للاقتراب أكثر فأكثر من شبه الجزيرة وبالتالي وصول المدد بصورة أسهل، وفي تلك الأثناء بدأ زحف الروم الكبير بقيادة باهان، ووصلوا إلى حمص، وأنّب باهان أهلها لتسليمهم المدينة للمسلمين[1]، وتابع باهان زحفه جنوباً لأن هرقل أوصاه أن ينزلوا في مكان واسع وضيق المهرب[2].

بدأ الآن التفكير بمسرح العمليات العسكرية الذي سيكون له آثار حاسمة في الكثير من نشاطات قطعات الجيش وتنظيمها وسرعة عملها، ومستوى الدعم؛ فكل طرف سعى لاستدراج الطرف الآخر المناسب له، فالصحراء مناسبة للعرب المسلمين بعكس الروم الذين لم يعتادوا على القتال في هكذا مناطق.

وقراءة متأنية للمعارك التي خاضها المسلمون تظهر لنا أن الروم حاولوا دائماً سحب جيوش المسلمين ليقاتلوهم في مناطق بعيدة عن شبه الجزيرة، وذلك ليحولوا دون وصول الإمدادات وليفوتوا عليهم المقدرة على الانسحاب. وقد أدرك قادة المسلمين هذه المخاطر لذلك حاولوا أن يتجنبوها بل على العكس تماماً بدؤوا باتباع خطة تجعلهم المحددين لأرض المعركة، وبالفعل هذا ما قد تم إذ إن الروم بدؤوا ينفذون ما خطط له المسلمون، وبدأت الكفة ترجح لصالح المسلمين وكان ذلك بمثابة انتصار أولي للفكر والإستراتيجية العسكرية الإسلامية، وفي أثناء زحف الجيش الرومي لم يتركوا مكاناً مروا فيه إلا وأفسدوا به[3]. ومن هنا زاد من مكانة العرب المسلمين لديهم وأكد أكثر على إمكانية ولائهم لهم.

كان نزول جيش المسلمين في منطقة اليرموك[4]، بينما نزل الجيش الرومي في الواقوصة أو الياقوصة على ضفة اليرموك[5]، واختيار العرب المسلمين منطقة كهذه كان له مسوغاته فجهتها الغربية والشمالية صعبة المسالك، أما الجهة الشرقية فهي واسعة وتصلح للمناورة وتتصل بالجزيرة العربية مما يؤمّن المدد، كما أنها تمتاز بكثرة المياه التي يحتاجها الجيش، و سدود المياه الكثيرة المقامة حالياً في تلك المنطقة تؤكد ذلك، كما أن اختيار الروم لتلك المنطقة بالذات كان له مسوغاته أيضاً، فقد كانت محاطة بثلاثة أودية عملاً بطلب هرقل لأنه المكان الوحيد الذي لا يسمح لجيشه بالهرب، مما يدل على انعدام الثقة لدى هرقل بقواته، الأمر الذي كان له أثر كبير في الأحداث، فبهذا التمركز وضع حداً لمناورات جيشه وسهّل على المسلمين تطويقهم.

---

1 ـ ابن الأعثم الكوفي: الفتوح، ج1، ص234، 229

2 ـ الطبري: تاريخ، ج3، ص223

3 ـ الأزدي: فتوح الشام، ج1، ص175

4 ـ الملحق، الخريطة رقم(4)

5 ـ الطبري: تاريخ، ج3، ص223

وبالفعل هذا ما سيستغله خالد بن الوليد الذي سيقوم بإغلاق الفجوة الوحيدة أمام هذه القوة في المنطقة الواقعة بين وادي الرقاد ووادي العلان، فهم اختاروا تلك المنطقة لكي يحولوا دون هرب الجنود، وهنا لابد من تساؤل؛ كيف لم يعملوا على تأمين منفذهم الوحيد وحمايته ؟ أهي الثقة المطلقة بالنصر المعول على ضخامة أعدادهم مقارنة بأعداد المسلمين، مما جعلهم يبتعدون عن حمايته، أم الإرباك الذي خلقه وفرضه تخطيط القادة المسلمين هو ما حال دون تفكيرهم بهذا الأمر؟.

أما النسوة فتم تحصينهن بالتل القريب من اليرموك(1) أي خلف قوات المسلمين تماماً(2).

وقبل الحديث عن مجريات المعركة كان لابد من تقديم صورة جغرافية لتلك المنطقة، فسهل اليرموك مكان المعركة محاط من طرفه الغربي بوادي الرقاد بحافتين شديدتي الانحدار[3]، والمكان الوحيد الذي يمكن عبور الوادي منه هو منطقة كفر الماء حالياً، أما الجهة الجنوبية فيقع فيها وادي اليرموك الذي يبدأ من جلين(4) حتى يلتقي بوادي الرقاد ويستمر باتجاه الغرب حتى يلتقي بنهر الأردن جنوب بحيرة طبريا، أما الجهة الشمالية فهي منطقة مفتوحة يشرف عليها تل الجموع حالياً وتل الجابية، أما الجهة الشرقية فيمتد فيها وادي العلان الذي يأخذ جهة الجنوب الغربي ليلتقي بنهر اليرموك، وكان ميدان المعركة الحاسمة في الجزء الغربي والأوسط من سهل اليرموك، وهو سهل منبسط ينحدر تدريجياً من الشمال إلى الجنوب(5).

وقد حصر الروم أنفسهم بين ثلاثة أودية وهذا ما أشار إليه عمرو بن العاص الذي رأى أن الروم قد حصرت نفسها بل وسارت إلى الهلاك. إذ قال:" أبشروا حصرت الروم وقلّ ما جاء محصور بخير"(6).

وفي أثناء تمركز القوات كلاً في مكانه سعى باهان لمفاوضة العرب المسلمين من أجل تجنب القتال فكان له محاولتان، الأولى عن طريق رومي وقد أخفقت(7)، والثانية حاول أن يستعمل فيها الحيلة وذلك تجنباً لإراقة الدماء وخشية الصدام مع العرب المتحمسين، فأشار جرجير أن يكون الرسول عربي، إذ إن العرب يميلون إلى بعضهم بعضاً فاختاروا جبلة بن الأيهم الغساني، لكي يظهر مدى عظمة جيش الروم ليخفض من معنويات المسلمين وليظهر الحرص عليهم إلا أنه

---

[1] ـ هذا التل يعرف حالياً بتل الجموع إلى الشرق من منطقة المعلقة في الجولان الخريطة (4)، والروايات المحلية تقول أن سبب هذه التسمية تعود لتجميع نساء المسلمين عليه(دراسة ميدانية لموقع التل)

[2] ـ ابن الأعثم الكوفي: الفتوح، ج1، ص254

[3] ـ الملحق، الشكل رقم 5

[4] ـ جلين: منطقة تقع في الجهة الجنوبية من محافظة درعا حالياً

[5] ـ دراسة ميدانية لموقع المعركة

[6] ـ ابن الأثير: الكامل، ج1، ص278

[7] ـ دسوقي: القبائل، ص145، 146

أخفق في ذلك[1]، بدأت الاستعدادات لخوض المعركة الفاصلة، وهي المعركة التي عُقدت عليها الآمال من قبل الطرفين، وأعدوا لها العدة واتخذوا من أجلها كل الاستعدادات.

[1] ـ ابن الأعثم الكوفي: الفتوح، ج1، ص426

مرحلة المعركة الفاصلة(اليرموك15هـ / 636م):

اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ معركة اليرموك كما اختلفوا في باقي معارك الشام، فذكر عدد منهم أنها كانت في رجب سنة(15هـ / 636م)[1]، ومنهم من حددها باليوم والشهر والسنة وذكر أنها كانت في يوم الاثنين (5 رجب 15هـ / 636م)[2]، ومنهم من ذكر أنها كانت في جمادى الآخرة(13هـ / 634م)[3]، ومنهم من ذكر أن اليرموك كانت قبل فتح دمشق[4]، كما سلف ذكره.

والسبب في هذا الاختلاف على تاريخ كل معارك الشام هو كثرتها ووقوعها في الوقت ذاته. إلا أنّ تسلسل المعارك والأحداث التي ذكرت سالفاً تظهر أن معركة اليرموك كانت تقريباً آخر المعارك وذلك في (12 رجب 15هـ / 20 آب 636م) وهذا ما أكده الطبري[5].

ولم يقتصر الخلاف على التاريخ بل اختلفوا على تحديد خطة الجيوش أيضاً؛ هل كانت خطة دفاعية، أم كانت خطة هجومية؟. ولكن يمكن إظهار الحقيقة من خلال استعراض صورة كل جيش وتنظيمه؛ فالجيش البيزنطي تألف من أقوام مختلفة من الأرمن والعرب والروم والصقالبة والإفرنج وغيرهم، بعكس الجيش الإسلامي الذي امتاز بالتجانس فقد كانوا جميعاً من القبائل العربية[6].

وتكوّن الجيش البيزنطي من المشاة والرماة والفرسان وصفّهم باهان عشرين صفاً، لا يرى طرفهم وجعل على الميمنة ابن قناطر ومعه جرجير في أهل أرمينية وعلى الميسرة الدرنجار وجعل للرماة دور مهم في القتال[7]، أما جيش المسلمين فبعد أن حصّن أبو عبيدة النساء بالتل، قسم خالد بن الوليد الجيش إلى ميمنة وميسرة وقلباً وجناحين، وجعل العسكر ثلاثة صفوف؛ صفّ فيه الرماة وصف فيه أصحاب السيوف، وصف فيه الرماة والخيل[8]، وعبّأ خالد بن الوليد الجيش تعبئة لم تعبأها العرب من قبل؛ فقسمها إلى ستة وثلاثين كردوساً[9]، أو إلى أربعين؛ فقسّم القلب إلى كراديس وعليها أبو عبيدة بن الجراح، وكذلك الميمنة إلى كراديس وعليها عمرو بن

---

1 ـ الواقدي: فتوح الشام، ج1، ص187 - البلاذري: فتوح، ص161 - اليعقوبي: تاريخ، م2، ص141 - التميمي: السيرة، ص465 - الذهبي: تاريخ، ص139

2 ـ ابن خياط:(خليفة بن خياط الليثي العصفري أبو عمر ت 240هـ / 854م)، تاريخ ابن خياط، تحقيق أكرم العمري، دار القلم، بيروت، 1397هـ - 1977م ، ط2، ص130

3 ـ ابن شاكر الكتبي: عيون التواريخ، ص511

4 ـ الطبري: تاريخ، ج3، ص223 - ابن كثير: البداية، ج7، ص7

5 ـ الطبري: تاريخ، ج3، ص223

6 ـ الأزدي: فتوح الشام، ج1، ص152

7 ـ ابن حبيش: غزوات،ج1، ص265، ورد لفظ الدرنجار في موضع آخر عند ابن حبيش الديرجان وكذلك عند الواقدي الديرجان

8 ـ الطبري: تاريخ، ج3، ص226 ـ ابن الأعثم الكوفي: الفتوح،ج1، ص254

9 ـ الكردوس: القطعة من الخيل العظيمة، وهي فرقة ذات نظام مرن الحركة، يرتبط فيه الجندي بأمير، ويرتبط الأمير بالقائد العام. (أبوخليل: في التاريخ، ص283)

العاص وفيها شرحبيل بن حسنة، وكذلك الميسرة وعليها يزيد بن أبي سفيان، وقوة من الخيالة احتياطية تحت إمرته[1]. وبذلك ابتدع خالد بن الوليد أسلوباً قتالياً جديداً تفاجأ به الروم الذين جربوا القتال مع جيوش كثيرة وفي جبهات مختلفة، إلا أنهم لم يجربوا قتال من هكذا نوع وتنظيم.

ومن خلال المقارنة بين الجيشين يمكن القول: إن العدد كان لصالح الروم هذا من جهة، ومن جهة ثانية كانت قوات المسلمين في حالة انسحاب بعكس الروم، وبالتأكيد سعت جيوش الروم لخلق التماس مع جيش المسلمين لتحويل هذا الانسحاب إلى هزيمة، ومن جهة ثالثة فإن مسألة تنظيم القوات عبّرت عن خطة كل طرف، فتنظيم خالد بن الوليد لقواته إنما هو تنظيم دفاعي وليس هجومياً، في الوقت الذي نظمت فيه القوات الرومية تنظيماً هجومياً تم فيه تقسيمها إلى ميمنة وميسرة وقلب دون وجود أية قوة احتياطية.

ولابد هنا من تساؤل، هل ستختفي عبقرية خالد بن الوليد العسكرية في هذا التنظيم؟.

من خلال الوهلة الأولى يمكن أن نرى أن تنظيمه إنما هو تنظيم دفاعي، ولكن تشكيل قوة احتياطية قادنا للتأكد بأن هذا التنظيم وهذا التقسيم الدفاعي هو بالفعل دفاعي في البداية وذلك لامتصاص قوة الروم وتكبيدهم خسائر يمكن لها أن تؤثر في معنوياتهم، ولكن يمكن لهذا التنظيم أن يتحول إلى هجومي في اللحظة التي يراها القائد خالد بن الوليد مناسبة، فقد رأى أن الهجوم المعاكس يكون ذا فاعلية أكبر وتأثير أعظم فيما يخص تدمير تلك القوات، وبالتالي اتبع خالد بن الوليد أسلوباً جديداً ليس فقط في الهجوم وإنما في كيفية تحقيق النصر وامتصاص ثورة عدوه، وهو بذلك يكون قد تفوق على عدوه بل إنه تجاوز كل توقعاتهم؛ فمواجهة هكذا عدد إذا كانت مواجهة تقليدية حتماً ستكون النتيجة معروفة، لذلك كان لابد من التخطيط ومحاولة تعويض الفارق في الأعداد بخطة تزول فيها هكذا فوارق، وبالفعل تم ذلك ونجح خالد بن الوليد في تجاوز هذه المشكلة التي كانت ستؤدي إلى القضاء على جيوش المسلمين وحتى على الدعوة الإسلامية ذاتها، لولا حنكة وعبقرية القائد خالد بن الوليد وصمود الجيش المسلم وإيمانه الراسخ وتلاحم الصفوف.

وبعد أخفاق المفاوضات[2]، أصبح القتال أمراً واقعاً، وبناء على ذلك قرر خالد بن الوليد تقسيم العمل إلى مرحلتين؛ الأولى منها مرحلة الدفاع، وتضم الأيام الأربعة الأولى التي كان فيها خالد بن الوليد مدافعاً. والثانية هي مرحلة الهجوم وتضم آخر يومين، والتي كان فيها الجيش الإسلامي مهاجماً.

---

[1] ـ الطبري: تاريخ، ج3، ص226

[2] ـ ابن الأعثم الكوفي: الفتوح، ج1، ص426

المرحلة الأولى، مرحلة الدفاع:

في هذه المرحلة انتهجت فيها القوات الإسلامية خطة دفاعية تم من خلالها استنزاف قوة الروم وقدراته، وقد مرت فيها الجيوش الإسلامية بأصعب الظروف؛ بدأت فيها المعارك بالمبارزة، إذ خرج أحد فرسان الروم فخرج له روماس صاحب بصرى سابقاً، وكان قد أسلم إلا أن الرومي انتصر عليه، فخرج له قيس بن هبيرة وكذلك لم يتمكن من التغلب عليه، ثم خرج عبد الرحمن بن أبي بكر فقتله وقتل اثنين آخرين بعده. وبالتأكيد إنّ أمر المبارزة لم يكن صدفة إنما رتب له خالد بن الوليد وله دلالته وأهدافه، فدلالته أنّ خالداً بن الوليد يثق بقدرة وإيمان كل جندي وكل قائد لديه.

أما أهداف هذا الأسلوب فهي كثيرة منها رفع المعنويات لدى جنده وهم يشاهدون قادة الروم يُقتلون، أو يهربون في الوقت الذي يتم فيه تحطيم الروح المعنوية لدى الأعداء، وبهذا الأسلوب يتم الانتقال إلى مرحلة متقدمة من مراحل المعركة، وأمام هذا الوضع رأى باهان أن الاستمرار بالمبارزة سيحطم معنويات جيشه، وسيفقده الكثير من قادته وفرسانه، لذلك سعى لاستغلال تفوقه العددي والبدء بهجوم محدود يختبر من خلاله قوة جيش المسلمين، فإذا حقق أي نجاح في خرق أي موقع من المواقع الإسلامية، فإنه سيقوم بعد ذلك بتطوير هذا النجاح واستغلاله، فأمر باهان بالهجوم على المسلمين ودامت الحرب حتى الغروب وكان القتال في هذا اليوم يسيراً، وفي الليل عاد الروم ليبحثوا عن قتلاهم، فهاجمهم المسلمون وقضوا عليهم[1]. وكان القتال في هذا اليوم بالنسبة إلى المسلمين بداية جيدة، إذ شهد تفوق فرسان المسلمين في المبارزة على فرسان الروم، مما أدى إلى رفع المعنويات لدى أفراد الجيش الإسلامي، بالإضافة إلى أن المسلمين لم يتوانوا عن القتال ليلاً مع العدو البيزنطي[2].

وبقي باهان سبعة أيام بعد هذه الوقعة لا يقاتل المسلمين ولم يقاتلوه[3]. ويبدو أنه لو كان باهان وجيش الروم متأكدين من النصر لما انتظروا تلك الأيام، ولكنهم أدركوا مدى حساسية الموقف وأهمية المعركة، وظهرت مخاوفهم من جيش المسلمين وعدم ثقتهم بمقدرة جيشهم وتفوقهم العددي.

كما يُعتقد أن السبب في ذلك سوء الأحوال الجوية التي لم تكن لتساعد الطرفين على خوض المعركة. إذ وصف ابن عساكر أحد أيام القتال بقوله:" وهو يوم ذو ضباب"[4]. وقد دلت دراسات

---

1 ـ الواقدي: فتوح الشام، ج1، ص166، 168

2 ـ غوانمة:(يوسف)، معركة اليرموك، المطبعة الأردنية، أربد، 1985م، ط1، ص52

3 ـ الواقدي: فتوح الشام، ج1، ص170

4 ـ ابن عساكر: تاريخ، ج2، ص157

حديثة أن هذه المنطقة في هذا الوقت من السنة ينزل فيها قليل من الأمطار، يبلغ في متوسطه (5مم)، وتتعرض المنطقة إلى هطول رذاذ فقط[1]، وقد استغل كلا الطرفين هذا التوقف فأرسل الروم رجلاً إلى المسلمين للتجسس، فعاد إليهم ليقول بأنهم رهبان في الليل ليوث في النهار[2]، مما دفع باهان إلى اتخاذ خطوات جادة وفعالة لمواجهة هذا النموذج الجديد من الجنود الذين جعلوا من الشهادة في سبيل الله هدفاً لهم لا يقل عن هدفهم في إحراز النصر.

وفي مطلع فجر اليوم التالي[3]، قام باهان وعقد الرايات والصلبان للقادة ولما رأى أن المسلمين لا يبدؤون القتال قرر أن يأخذهم على حين غفلة، فيكون هجومهم على المسلمين وهم غير مستعدين وبذلك يضمنون النصر في هذه الجولة، وبالفعل كان المسلمون في تلك اللحظة قد بدؤوا بصلاة الفجر، وما أن وصلهم نبأ الهجوم حتى كلف أبو عبيدة بن الجراح خالداً بن الوليد بإشغالهم حتى يأخذ الرجال أماكنهم، ونقل النسوة إلى التل المجاور لهم، ونظّم الصفوف وبذلك أخفق باهان في تحقيق عنصر المفاجأة، وبدأ قتال هذا اليوم بالمبارزة، فخرج فارس من الأزد، وقتل أربعة من فرسان الروم على التتابع، إلا أنّ الخامس منهم تمكن من قتله، فثارت الأزد وبدأت المعركة، فركّز الجيش الرومي هجومه على الجناح الأيمن مما أدى إلى تراجع المسلمين، فصاح فيهم عمرو بن معديكرب الزبيدي ـــ وهو المقدم على زبيد وأميرهم ـــ : يا آل زبيد تفرون من الأعداء وتفزعون من شرب كأس الردى.... أما علمتم أن الله مطّلع عليكم وعلى المجاهدين والصابرين، فإذا نظروا إليهم وقد لزموا الصبر في مرضاته وثبتوا لقضائه أمدهم بنصره وأيدهم بصبره فأين تهربون من الجنة .... . فحملوا على الروم وأزالوهم عن أماكنهم. إلا ان جموع الروم تكاثرت على ميمنة المسلمين فتراجعوا، ولما رأتهم النسوة نادت: يا بنات العرب دونكن والرجال ردوهم من الهزيمة حتى يعودوا إلى الحرب، فرجمن وجوه الخيل بالحجارة، فرجع المنهزمون رجعة عظيمة عندما سمعوا تحريض النساء.

كما قام جرجير[4] بالهجوم على ميسرة المسلمين الذين تراجعوا فواجهتهم النسوة فعاد المسلمون عن الهزيمة[5]. بينما ذكر الأزدي أنّ الذي قام بالهجوم هو قناطر[6]، إلا أنه لا يوجد خلاف في ذلك فكلاهما كان في هذا الجناح المقابل لميسرة المسلمين وكانت خطة المسلمين تقوم على تلقي الصدمة الأولى وامتصاص الهجمة وإنهاك فرسان البيزنطيين، وبعد ذلك يكون تدخل

---

1 ـ غوانمة: اليرموك، ص53

2 ـ الواقدي: فتوح الشام، ج1، ص170، 171

3 ـ غوانمة: اليرموك، ص54

4 ـ جرجير: وهو ملك عمورية. (الواقدي: فتوح الشام، ج1، ص162)

5 ـ الواقدي: فتوح الشام، ج1، ص172، 176، 177، 178

6 ـ الأزدي: فتوح الشام، ص226 - ابن حبيش: غزوات، ج1، ص276 . قناطر: وهو ملك الروسية. (الواقدي: فتوح الشام، ج1، ص162)

الفرسان[1]، وبالفعل هذا ما تم فعله إذ نجح المسلمون في الثبات فتدخل خالد بن الوليد في اللحظة المناسبة وقام بالهجوم المعاكس على ميمنة جيش الروم البيزنطي، فانهزموا وقتل الديرجان[2]، وهناك خلا ف على شخصية قاتله[3].

قد يكون لتراجع المسلمين في أثناء المعركة مخطط هدفه امتصاص الهجمة ومن ثم القيام بهجوم يكون فيه تحقيق النصر أقرب، إذا كان ذلك فهم بالفعل نجحوا في تحقيق هذا الهدف، وإذا لم يكن ذلك مخطط له، فإنهم على الرغم من تراجعهم لم يفقدوا التصميم على القتال، كما أنه قد ظهرت في قتال هذا اليوم عبقرية القيادة التي كانت تعرف متى وكيف تستخدم القوة المناسبة كما فعل القائد خالد بن الوليد الذي استمر بهدوئه وبتفكيره السليم على الرغم من الخطر الذي هدد قوته.

و بدأ القتال في اليوم التالي بالمبارزة أيضاً، إذ خرج أحدهم وطلب فارساً من المسلمين لمبارزته، فاستطاع أن يقتل فارساً من الأزد، كما أنه انتصر على عبد الرحمن بن معاذ بن جبل، فخرج له عامر بن الطفيل الدوسي فتمكن من قتله، عندئذ خرج جبلة بن الأيهم لمواجهة عامر فنجح في قتله، فخرج جندب بن عامر ليثأر لأبيه إلا أنه قُتل بعد أن كاد أن يتغلب على جبلة بن الأيهم. عند ذلك بدأ الهجوم العام وحمل جيش الروم على جيش المسلمين الذين تراجعوا مرة أخرى واحتدم الصراع في هذا اليوم، إذ يقول الواقدي:" كان اليوم الثالث من اليرموك يوماً شديداً انهزمت فيه فرسان المسلمين ثلاث مرات كل مرة تردهم النساء بالحجارة"[4]. بل وقاتلن إلى جانب المسلمين، وفي تلك المرحلة تأكد الدور البارز لنساء المسلمين. فلم يكن دورهن ثانوياً بل كان أساسياً وله أثره الواضح في النصر، إذ إن قوات المسلمين كانت قد تراجعت ولم تعد للصمود إلا بعد أن تدخل النسوة في القتال، إذاً لم يكن دورهن مداواة الجرحى وسقاية الماء وتحضير الطعام فقط؛ بل كان لهن دور أساسي في قلب نتيجة المعركة لصالح المسلمين، إذ قاتلت النسوة قتالاً شديداً، وجعلت هند بنت عتبة أم معاوية بنت أبي سفيان تقول:" عضدوا السيوف بسيوفكم"[5]. وعند انكسار ميمنة المسلمين قالت النسوة للرجال:" لستم ببعول إن لم تمنعوا الأعلاج"؛ والهدف من ذلك إنما تحريض الرجال على الصمود والقتال[6]، وبذلك لم يكن الرجال وحدهم عدة الجيش الإسلامي، إذ كانت المرأة المسلمة بجانب الرجل إذ أحست أن على عاتقها واجباً يجب أن تؤديه كما يؤدي الرجل المسلم واجبه حيال دينه وربه ولهذا جاهدت

---

1 ـ غوانمة: اليرموك، ص58
2 ـ الديرجان: وهو صاحب القسطنطينية. (الواقدي: فتوح، ج1، ص162)
3 ـ ابن حبيش: غزوات، ج1، ص276
4 ـ الواقدي: فتوح الشام، ج1، ص178، 179 ، 180
5 ـ البلاذري: فتوح، ص159
6 ـ ابن الأعثم الكوفي: الفتوح، ج1، ص260 - 261- 262

بجانب الرجل،وأخذت بنصيبها في المعركة، وأدت واجباً أحست به من وحي إيمانها، كما أنها أبت أنْ تبقى في بيتها تقوم بدورها العادي في الحياة، لقد أرادت أن تسجل لنفسها مثل الرجال صفحات مليئة بالبطولة والمجد، إذاً فالمرأة المسلمة كانت تمثّل قطاعاً في الجيش الإسلامي يعرف واجبه ويدرك هدفه ويقدر مسؤوليته ويفهم رسالته ويعي دوره وأعباءه[1].

إلا أن المسلمين كانوا في كل مرة يعيدون تنظيم صفوفهم، وينتقلون مباشرة إلى الهجوم المعاكس، تدعمهم قوة الفرسان، وكان تركيز الهجوم في هذا اليوم على الجناح الأيمن لقوات المسلمين، اعتقاداً منهم بأن هذا الجناح يشكل نقطة ضعف بالنسبة إلى دفاعات الجيش الإسلامي، لذلك اختاروا نقطة الفصل بين قوات عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة كهدف لهم، يمكنهم من اختراق دفاعات المسلمين، فواجههم قادة المسلمين، إلا أن زيادة العدد واستمرار الضغط من قبل الجيش الرومي حقق لهم بعض النجاح، فتراجعت قوات عمرو بن العاص وقوات شرحبيل ابن حسنة، إلا أن القلب استمر ولم يهزم، كما صمد أبو عبيدة بن الجراح من وراء ظهور المسلمين وتدخل قيس بن هبيرة وخالد بن الوليد بالفرسان في الوقت المناسب، مما ساعد على إعادة التوازن إلى الجناح الأيمن لجيش المسلمين، فعادوا إلى مواقعهم بالهجوم المعاكس[2]، ويمكن ملاحظة عدة أمور في قتال هذا اليوم، إذ إن ضغط الروم على جهة واحدة هو الذي خلق هذا الارتباك في الجناح الأيمن، ولم يكن هناك أي ضعف في هذا اليوم في هذا الجناح، عند ذلك حاول الروم استغلال ذلك، إلا أن حنكة القيادة في جيش المسلمين حالت دون ذلك، ووضعت حداً لأي نجاح يمكن أن يحققوه من هذه الجهة.

وفي اليوم التالي أدرك قادة الجيشين مدى أهمية القتال في هذا اليوم وتأثير أحداثه في النتائج اللاحقة. بعد أخفاق كل الهجمات في الأيام السالفة فقرر باهان أن يقوم بالهجوم بكامل قوته في محاولة منه لتحويل مسار المعركة لصالحهم. وقد أدرك خالد بن الوليد حقيقة مخططات باهان، كما أدرك أهمية الصمود في هذا اليوم، إذ إنه لن يكون لجيش الروم بعد هذا أي قدرة على شن أي هجمات أخرى.

لذلك توقع أن يكون تركيز الروم على الجناح الأيمن لجيش المسلمين وبالفعل هذا ما حصل إذ اضطرت قوات عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة إلى التراجع، وعند ذلك تدخل خالد بن الوليد بمن معه من جهة اليمين، وحمل قيس بن هبيرة من جهة الشمال مما أفزع باهان، وقد توقف القتال وخرج أحدهم وطلب المبارزة، فخرج له ذو الكلاع الحميري إلا أنه غُلب، فخرج له فارس من حمير فقتله، والذي قتل كان صاحب نابلس، عند ذلك خرج ملك اللان واسمه

---

[1] ـ فرج:(محمد)، المدرسة العسكرية الإسلامية، دار الفكر العربي، ط2، ص367- 372

[2] ـ الأزدي: فتوح الشام، ص229 - 230

مريوس فواجهه شرحبيل بن حسنة فلم يقدر عليه، فخرج له ضرار بن الأزور وقتله، وقتل الزبير بن العوام أربعة منهم، إلى أن خرج بطريق وهو ملك الروسية فقتله خالد بن الوليد، وعند ذلك رموا المسلمين بالسهام فأطلقوا مائة ألف سهم دفعة واحدة، فأعور من المسلمين سبعمائة عين. فسمي ذلك اليوم بيوم التعوير[1]، وكان المسلمون يقاتلون من دون مساندة الفرسان ولهذا فإن الجراحات التي أصابتهم صدرت عن فرسان بيزنطيين نبالة[2].

وهنا بدأت المرحلة الثانية، مرحلة الهجوم:

هنا تغيرت الأوضاع وتبدلت الخطط إذ تحول الجيش المدافع إلى جيش مهاجم يهاجم القوات التي كانت في حالة الهجوم، عند ذلك رأى ماهان أن قادته بدؤوا يشعرون بالهزيمة وخاصة بعد الخسائر الكبيرة التي كانت في جيشه، لذلك أخذ يفكر بأسلوب يمكنه من النجاة مع من بقي من جيشه، وبعد المشاورة قرر إرسال رسول يطلب التفاوض مع المسلمين على الصلح. وبذلك نجح المسلمون وبدأت علائم النصر تتأكد.

وصل رسول باهان إلى أبي عبيدة بن الجراح، وعرض عليه إيقاف القتال بين الجيشين ضمن شروط ترضي الطرفين، فهمَّ أبو عبيدة بالاستجابة، إلا أن خالداً بن الوليد أدرك حقيقة الأمر وطلب إليه الرفض، هذا ما حصل، وخرج الجميع للقتال الذي بدأ بالمبارزة التي طلبها جرجير، فخرج له أبو عبيدة بن الجراح فتغلب عليه وقتله، ثم خرج بطريق يعرف باسم جرجيس فخرج له ضرار بن الأزور الذي تراجع لينزع ثيابه وعدته التي أثقلته وبعودته وجد مالك النخعي قد سبقه إلى البطريق، فطعن مالك الجواد وطعن ضرار جرجيس فقتله وتبارز بعد ذلك باهان مع مالك النخعي الأشتر ففر باهان من أمامه، فصاح خالد بن الوليد معلناً بداية الهجوم العام عند غروب الشمس، ففر الروم من أمامه ولحق بهم المسلمون يأسرونهم ويقتلونهم ومنهم عدد كبير متسلسل تساقطوا في الواقوصة، وأمر أبو عبيدة بن الجراح بإيقاف القتال ومتابعته عند الصباح[3].

وكان هذا الانسحاب بداية الهزيمة في الميدان وكان آخر قتال بينهما، وكل الاشتباكات التي حصلت لاحقاً في اليوم التالي إنما كانت في أثناء ملاحقة فلول منهزمين، ومعظمها حدث في وادي الرقاد ومنطقة وادي خالد الحالية، وما يدل على ذلك وجود مقابر جماعية منتشرة على طول الوادي[4].

---

[1] ـ ابن أعثم الكوفي: الفتوح، ج1، ص265

[2] ـ زكار: اليرموك، ص199

[3] ـ البلاذري: فتوح، ص159 ـ الطبري: تاريخ، ج3، ص229 ـ ابن الأعثم الكوفي: الفتوح، ج1، ص256

[4] ـ غوانمة: اليرموك، ص72

أما اليوم الأخير فقد شهد مطاردة واسعة لخيالة الروم الذين فروا من ساحة المعركة، فجال فرسان المسلمين في كل وادي اليرموك والجبال المواجهة للجولان، يقتلون ويأسرون أعداداً كبيرة منهم[1].وتمكن باهان من الوصول إلى دمشق وتم فيها قتله، بعد مطاردة خالد له فقتل على يد أحد هذين الفارسين، إما النعمان بن جهلة الأزدي أو عاصم بن خوال اليربوعي[2].

ووصلت مطاردة خالد بن الوليد لفلول الروم حتى حمص، الذين جددوا عهدهم مع المسلمين[3]. وبذلك تم القضاء على الجيش الجرار الذي بني عليه هرقل كل آماله، ولابد من الإشارة إلى ما قاله بعضهم في أن اليوم قبل الأخير لم يكن فيه أي قتال، والقتال كان في اليوم الأخير[4]. ولكن مجريات المعركة والشيء المنطقي فيها يشير إلى أنه اليوم الأخير فقد كانت فيه الملاحقة والمطاردة والقضاء على فلول الجيش الروماني، وقبل الأخير للقتال، ويسوغ بعضهم الهزيمة بهبوب عاصفة رملية أعمت عيونهم وهي أسطورة بعيدة عن الواقع[5]، فطبيعة المنطقة غير رملية، وتمتاز بتربتها السوداء المتماسكة والذي زاد من تماسكها وجود الغطاء النباتي هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الرياح التي تهب على هذه المنطقة في مثل هذه الأوقات إنما هي رياح غربية تمتاز بالرطوبة وذلك لقرب المنطقة من البحر، بل أكثر من ذلك أنها تحمل قطرات الندى الغزيرة في الصباح الباكر.

وبعد قضاء خالد بن الوليد على الفارين عاد إلى اليرموك ومن ثم عادوا جميعاً إلى دمشق وجمع أبو عبيدة الغنائم وأخرج الخمس، وكتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يبشره بالنصر[6]. وما أن بلغ الخبر إلى هرقل حتى انتقل إلى القسطنطينية هارباً وهو يقول :" عليك يا سورية السلام"[7]. أو " السلام عليك يا سورية، سلام لا اجتماع بعده"[8].

تم النصر وتحقق الفتح واستكملت عملية طرد الروم من الأراضي العربية، ولم يعد ثمة ما يعيق العرب المسلمين عن التقدم نحو الشمال بعيد تدمير القوة البيزنطية، وما أعقب ذلك من فرار هرقل والانسحاب من أنطاكية إلى القسطنطينية ومعه ذكريات هزيمته الحزينة، والأولى في حياته العسكرية، وانتشر المسلمون في كل الأراضي الشامية حتى جبال طوروس[9].

---

[1] - ابن حبيش: غزوات،ج1، ص280

[2] - الواقدي: فتوح الشام، ج1، ص194

[3] - الأزدي: فتوح الشام، ص231

[4] - أكرم: سيف الله، ص489 ، 490

[5] Turtledove:(Harry), the chronicle of theophanes,University of Pennsylvania press Philadelphia,1982- p 38 , - نتنج:(انتوني)، العرب انتصاراتهم وأمجاد الإسلام، ترجمة راشد البراوى، مكتبة الأنجلو المصرية، 1974، ص61 - غلوب: الفتوحات العربية، ص269

[6] - الواقدي: فتوح الشام، ج1، ص194

[7] - البلاذري: فتوح ، ص161

[8] - افتيشيوس: التاريخ المجموع، ص16

[9] - بيضون: من دولة عمر، ص66

اجتماع الجابية وفتح بيت المقدس (17هـ / 638م):

بعد أن تم للمسلمين القضاء على الروم في بلاد الشام، بات من الضروري تصفية وجودهم بشكل كامل، فلم يعد لهم إلا مراكز محدودة، ظهرت في مناطق متعددة منها في بيت المقدس وقيسارية وعسقلان، بالإضافة إلى المناطق الواقعة في شمال بلاد الشام. ومن الطبيعي أن تكون البداية في بيت المقدس؛ فبعد الانتصارات في اليرموك طرح القائد أبو عبيدة بن الجراح مسألة الوجهة التي سيتوجهون إليها، إذ لن يقررها بمفرده ولن يحددها فرد أو فردان مهما كانت صفاتهم، وإنما كانت مسألة إجماع وتشاور في الرأي، وفي ذلك دلالة على استمرارهم في التخطيط والتنسيق حتى الوقت الذي كان النصر فيه لصالحهم، وأخذهم بالرأي الصحيح ولو كان من أقلهم شأناً ومكانة.

كان عليهم اختيار إحدى المنطقتين، إما قيسارية وإما بيت المقدس. فقرروا العودة إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وتمت مراسلته وأرسل الكتاب مع عرفجة بن ناصح النخعي، وبعد إنهاء النقاش تم الإجماع على أن تكون البداية في بيت المقدس[1]. وتم إرسال الكتاب مع الشخص ذاته، وصل عرفجة إلى جيش المسلمين وهم متمركزون في الجابية. عند ذلك بدأ القائد أبو عبيدة بن الجراح بإرسال القادة على التتابع، وكان القائد خالد بن الوليد أولهم على رأس خمسة آلاف فارس، أما الثاني فكان يزيد بن أبي سفيان على رأس خمسة آلاف فارس وأمره أن يلحق بخالد، ثم دعا شرحبيل بن حسنة وأرسله على رأس خمسة آلاف فارس من أهل اليمن، ثم دعا المرقال بن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وضم إليه خمسة آلاف فارس، أما الراية الخامسة فقد سلمها للمسيب بن نجية الفزاري وضم إليه خمسة آلاف فارس من النخع، وسلم الراية السادسة إلى قيس بن هبيرة المرادي ومعه خمسة آلاف مقاتل كذلك، ثم عقد الراية السابعة وسلمها إلى عروة بن مهلهل بن يزيد الخيل و ضم إليه خمسة آلاف مقاتل، وانطلقت تلك الألوية بعد أن زوّدها القائد بالنصائح والتعليمات اللازمة، فوصل عددهم عند ذلك إلى خمسة وثلاثين فارساً، وكان وصولهم بالتتابع[2]، وهنا لابد من التساؤل الآتي: بما أن كل الجيش سيتوجه إلى بيت المقدس، لماذا يتم تقسيمهم إلى سبعة أقسام؟. ولماذا يتم إرسالهم بالتتابع وليس دفعة واحدة؟. قد يكون تقديراً من القائد أبي عبيدة بأن فتح المدينة لا يحتاج إلى أكثر من احدى الدفعات التي أرسلها، إلا أنه كلما وجد أن ذلك العدد لا يكفي أرسل الآخر، ولكن لا يمكن ذلك؛ فلو صح هذا

[1] ـ الملحق، الخريطة رقم(4)
[2] ـ الواقدي: فتوح الشام، ج1، ص197- 198

الأمر لكان القتال من اليوم الأول من وصول خالد بن الوليد، كما أن الزمن الفاصل لإرسال تلك القوات سيكون أكثر من يوم أو يومين أو أيام. إلا أن يكون هذا الإجراء خشية من وقوع الجيش في كمين لم يحسب له أي حساب في أثناء توجهه إلى بيت المقدس فاتبع هذا الأسلوب لمواجهة هكذا موقف، إلا أن ذلك لا يمكن الأخذ به، لأن قوات المسلمين بالأمس القريب لحقت بفلول الروم وطهّرت تلك الأراضي بشكل كامل، ومهما يكن من أمر فقد وصلت تلك القوات، فحاصرت بيت المقدس لمدة ثلاثة أيام دون أي مقاومة تذكر، على الرغم من تحصينه بأفضل الوسائل[1]، إذ كانت محاطة بأسوار قوية، لم يمتلك العرب آنذاك أسلحة جماعية لدك الحصار، لذلك شرعوا في تطويق المدينة واعتمدوا على عامل الزمن على أمل أن تنقص المؤن داخل المدينة فيضطر أهلها إلى الاستسلام، كما أن سكان المدينة اعتمدوا على الزمن، حيث أملوا بوصول نجدات بيزنطية تسهم بفك الحصار[2]. ولكنّ شيئاً من هذا القبيل لم يحصل.

وهنا خابت آمال السكان في وصول النجدات البيزنطية، وساءت أحوالهم بعد اشتداد الحصار وطوله، وزادهم الزمن والحصار ضيقاً وهزالاً وضعفاً، لذلك سعوا إلى عقد الصلح، واشترطوا أن يكون عمر بن الخطاب هو من يكتب لهم الأمان، لأنها مدينة لها مكانة كبيرة عند أهل الأديان السماوية الثلاثة، وقد كبر على المسيحيين في القدس تسليم المدينة للقائد المسلم الذي يحاصر المدينة بجنوده، أما إذا جاء عمر بن الخطاب بنفسه فإن الأمر يختلف خاصة وأن قائد القوات البيزنطية كان قد فر إلى مصر، وصار زعيم القدس البطرك صفرونيوس، ورجحت لغة السلم والصلح، وهنا راسل القائد أبو عبيدة بن الجراح الخليفة عمر بن الخطاب يخبره بذلك.

وعندما وصل الكتاب إلى المدينة، جمع عمر وجوه الصحابة وشاورهم في الأمر[3]، فكان رأي جماعة كثيرة منهم تصدرها عثمان بن عفان عدم الاستجابة وتشديد الحصار على القدس قائلاً:" إنهم يا أمير المؤمنين قد سألوك المنزلة التي لهم فيها الذل والصغار وهي على المسلمين فتح ولهم عز وهم يعطونكها الآن في العاجل في عافية وليس بينك وبين ذلك إلا أن تقدم عليهم ولك يا أمير المؤمنين الأجر ولست آمن لو أنهم آيسوا من قبولك الصلح ومن قدومك عليهم أن يتمسكوا بحصنهم ولعلهم أن يأتيهم من عدونا مدد لهم فيدخلون معهم في حصنهم فيدخل على المسلمين من حربهم وجهادهم بلاء ومشقة ويطول لهم الحصار ويقيم المسلمون عليهم فيصيب المسلمون من الجهد والجوع نحو ما يصيبهم"، فقال عمر: قد أحسن عثمان في مكيدة العدو وقد أحسن علي النظر لأهل الإسلام. ثم قال سيروا على اسم الله[4].

---

1 - علي: تاريخ، ص153

2 - زكار: اليرموك، ص244

3 - البلاذري: فتوح، ص163

4 - ابن الأعثم الكوفي: الفتوح، ج1، ص291- 292 - زكار: القدس، ج3، ص32 - زكار: اليرموك، ص245

وبالفعل توجه الخليفة إلى الشام واستخلف علي بن أبي طالب رضي الله عنه[1]، وذلك في سنة(17هـ / 638م)[2]. وهنا لابد من طرح التساؤل الآتي: هل صدق سكان بيت المقدس في طلبهم إلى الخليفة؟. أم كانت حيلة منهم لكسب الوقت استعداداً للانقضاض من جديد؟. أم ظنوا أن الخليفة لم يأت لبعد المسافة؟. ولكن مهما يكن من أمر فإن ركب الخليفة تحرك على الرغم من بعد المسافة نحو الشام وخرج معه أشراف الناس وبيوتات العرب وبعض المهاجرين والأنصار ورافقه العباس بن عبد المطلب مودعين، في موكب صغير من دون جلبة أو صخب[3]، كما اعتاد أباطرة بيزنطة أن يفعلوا، لذلك لم يصدق الناس الذين شاهدوا الموكب أنه موكب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أعظم شخصيات عصره وأقواهم لكنه أكثرهم تواضعاً.

وليس مدهشاً أن يضرب عمر المثل الأعلى في الزهد والتواضع والبعد عن الخيلاء، ومظاهر التجبر، ولكن المثير للدهشة أن يتمكن من السفر من الحجاز إلى بلاد الشام المفتوحة حديثاً من دون حراسة، ففي هذا دليل ليس على سحق القوى البيزنطية وزوالها كلياً من بلاد الشام فحسب بل على أن الحكم الجديد نال رضى الناس جميعاً، لذلك انعدمت القلاقل والفتن والاضطرابات وتوفر الأمن بشكل منقطع النظير بين سكان البادية والأرياف والمدن.

أتى الخليفة ليتسلم المدينة التي تعني للمسلمين الشيء الكثير، أتى لإجراء التنظيمات اللازمة تماشياً مع الوضع الجديد. وعند وصوله إلى مشارف بيت المقدس نزل في الجابية[4]، فكان في مقدمة مستقبليه أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان وبلال وأبو هريرة وأبو الدرداء، ولدى وصوله تفقد أحوال الجند وناقش خطط المستقبل وذلك قبل أن يتوجه نحو القدس وسيظل دخوله القدس حدثاً بارزاً في تاريخ المدينة المقدسة وفي تاريخ الشعوب. والسؤال الذي يطرح نفسه، لماذا سار عمر رضي الله عنه إلى الجابية وتمهل هناك من دون أن يسرع إلى مدينة القدس؟. لعله أراد أن يطمئن إلى أن المدد العسكري الذي أمر بإرساله لينضم إلى جيش المسلمين المحاصر لمدينة القدس قد اقترب وعندئذ يستطيع المسلمون أن يتفاوضوا مع زعماء المدينة من مركز يضعونهم فيه بين خيارين، خيار الصلح والسلام، وخيار الحرب إن لم تكن هناك سبل إلى الصلح.

[1] ـ البلاذري: فتوح، ص65 ـ الطبري: تاريخ، ج3، ص403 ـ ابن كثير: البداية، ج8، ص65
[2] ـ الطبري: تاريخ، ج3، ص404
[3] ـ ابن حبيش: غزوات، ج1، ص305 - 306
[4] ـ البلاذري: فتوح، ص163

وعند وصوله إلى القدس أذن بلال الحبشي فأقام الصلاة وصلى بهم الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه[1]، ثم دخل المدينة وصالح نصارى بيت المقدس على الجزية وكتب لهم كتاب أمان ومصالحة، وشهد على ذلك الكتاب خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان، ودخل إلى المدينة وخط فيها موضع مسجده[2]، وهذا نص العهدة العمرية:" بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت(وفي رواية أخرى اللصوص ولعل هذا الصحيح) فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان فمن شاء منهم قعد وعليه مثلما على أهل إيلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية"[3].

وفي هذا النص يظهر مدى التسامح الذي اتسم به الإسلام، فلم يعمل المسلمون على إجبارهم بدخول الإسلام، بل تركهم لأنفسهم فمن رغب دخل ومن لم يرغب لم يدخل الإسلام. بل إنهم لم يكتفوا بذلك بل أحسنوا معاملتهم وحرصوا على عدم الإساءة إلى أي فرد منهم، ومن هنا ظهر الإسلام بصفته الطبيعية ألا وهي احترامه للأديان الأخرى، وصونه للدماء والحقوق، وظهر من هذه العهدة كذلك رجحان موازين القوى لصالح المسلمين؛ إذ إنّ الأعداء هم الذين يطلبون الصلح الآن. فهل عرف التاريخ جيشاً يضرب الحصار، ويأتيه المدد من الجند والسلاح، يعرض على أهل المدينة المحاصرة ما تضمن هذا العهد العمري من مبادئ إنسانية بلغت درجة عالية من العدل والتسامح.

ومكث الخليفة في القدس عدة أيام، كشف خلالها عن موضع الصخرة المتعلقة بمعراج النبي صلى الله عليه وسلم، واختط المسجد العمري، الذي اشتهر أكثر باسم الأقصى، والاختطاط هنا

---

[1] ـ الواقدي: فتوح الشام، ج1، 205 ـ الطبري: تاريخ، ج3، ص204 - 205 - ابن كثير: البداية، ج8، ص65 ـ ابن الأعثم الكوفي: الفتوح، ج1، ص294

[2] ـ البلاذري: فتوح ،ج1 ، ص208 ـ ابن الأعثم الكوفي: الفتوح، ج1، ص296 ـ ابن كثير: البداية، ج8، ص66

[3] ـ النجار:(عبد الوهاب)، الخلفاء الراشدون، تحقيق خليل الميس، دار الأرقم، ص151

لم يكن بناء مسجد؛ فهذا ما سيكون فيما بعد؛ بل كان الذي فعله أمير المؤمنين هو أنه خط بها محراباً من جهة الشرق وهو موضع مسجده فتقدم وصلى هو وأصحابه صلاة الجمعة.

لقد رفض الفاتح العظيم أن يصلي في كنيسة القيامة، لا لأن الصلاة فيها لا تجوز، ولكنه خشي أن يستولي عليها المسلمون فيما بعد بحجة أن أمير المؤمنين صلى فيها، وهذا منتهى العدل والإنصاف للمغلوبين.

ويفيد ذلك أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب صلى بأصحابه في مكان كان شاغراً من البناء، وقد أراد بذلك أن يرعى حرمة الأماكن المقدسة المسيحية، مؤكداً احترام الإسلام للأديان الأخرى، وأطلقوا في هذه الأيام على الموقع الذي اختاره الخليفة، واختط به مسجده اسم(بيدر آرونا)، وهذا باطل. ويضاف إلى ذلك ما ذكره القديس جيروم(340 / 420م) في أثناء حديثه عن أعمال الإمبراطورة هيلانة في القدس، وفي ذلك الوقت لم يكن فوق هذا المكان هيكلاً، ولا حتى مصلى، بل بعض المساكن لعوام الناس، وكان الموضع كله من دون أي تشريف[1].

وفي حوالي (50هـ / 670م) أي بعد فتح القدس بثلاثة عقود تقريباً زار المدينة المقدسة رحالة فرنسي اسمه أركولف، فذكر أن المسلمين كانوا يترددون على مكان قائم إلى الجهة الشرقية من السور، وهو بيت للصلاة مربع الشكل قد بنوه بشكل بدائي بوساطة ألواح مرفوعة، وعوارض فوق بقايا الخرائب، ولقد قيل إن هذا البيت يمكن أن يتسع لثلاثة آلاف رجل في وقت واحد[2].

وبعد أركولف بأمد قصير قام لاهوتي آخر اسمه بيد المبجل فصنف من عدة كتب مصنفاً وصف به الأماكن المقدسة، وقد جاء عنده أنه في الجزء الأدنى من المدينة بجوار السور من جهة الشرق هناك الآن بناء مربع يبدو أنه قادر على استيعاب ثلاثة آلاف رجل عليه يتردد المسلمون للصلاة، ولقد بُني بشكل بدائي، وقد رفع فوق ألواح، وعوارض خشبية كبيرة فوق بقايا الخرائب.

أضف إلى ذلك أن صفرونيوس كتب قصيدة حنين إلى القدس تشوق فيها إلى الأماكن المقدسة بالقدس، ولم يذكر لا بقايا هيكل، ولا غير ذلك مطلقاً[3]، ويرجح أن البيوت التي أشار إليها القديس جيروم، قد تعرضت للدمار من قبل الفرس، أو لسبب آخر، وبقيت هناك بعض خرائبها العادية، فاستفاد منها المسلمون في الإنشاء البدائي لمسجدهم الأول، وذلك حتى أيام عبد الملك بن مروان، ثم ابنه الوليد. حيث كان إنشاء قبة الصخرة، ثم المسجد العمري، أو الأقصى الموجود

---

[1] - زكار: الموسوعة الشامية، ج42، ص1060- 1061

[2] - زكار: القدس، ج3، ص45

[3] - زكار: مرجع متقدم، ج3، ص46- 115- 116- 117

حالياً. هذا ولدى استعراض الروايات العربية، ولاسيما المتأخرة منها حول اختطاط أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مسجده جرى إقحام كعب الأحبار الذي كان يهودياً من أهل اليمن، وجعل أمير المؤمنين يستشيره بشأن القبلة حيث قال له: أين ترى أن نجعل المصلى؟ قال: إلى الصخرة، فقال: ضاهيت والله يا كعب اليهودية بل نجعل قبلته صدره، كما جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلة مساجدنا صدورها، اذهب إليك فإنا لم نؤمر بالصخرة، ولكن أمرنا بالكعبة[1].

وفي الحقيقة إن إقحام كعب الأحبار هنا لأمر عجيب لأنه ليس من المعروف بشكل أكيد تاريخ إسلام كعب، فقد أورد الأزدي:" إن إسلام كعب إنما كان في قدوم عمر رضي الله عنه الشام، وإنه كان من مشجعيه على التوجه إلى الشام، لكنه لم يرافقه"[2]. كما أن هناك روايات أخرى مخالفة حول تاريخ دخوله الإسلام، والمهم في الأمر أنه لم يرافق أمير المؤمنين في رحلته إلى الشام لانعدام الأسباب، ولأنه لم يكن موضع ثقة، ولأنه كان يمانياً لم يزر القدس قط قبل إسلامه. والعلاقة في فتح القدس إسلامية مسيحية لا شأن له بها، وكان كعب في المدينة حتى اغتيال أمير المؤمنين عمر، ونظراً لحومان الشكوك حوله هرب خشية المحاسبة إلى الشام[3].

وفي تاريخ دمشق لابن عساكر ترجمة واسعة جداً لكعب الأحبار فيها تقريباً كل ماحوته المصادر العربية عنه، وذكرت هذه الترجمة الروايات المختلفة حول سنة إسلامه، ومن ثم قدومه إلى المدينة. وواضح من مواد هذه الترجمة أنه لم يرافق عمر بن الخطاب إلى القدس، بل لحق بدمشق بعد اغتياله، ثم استقر في حمص فمات فيها قبل مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه بعام[4].

بالعودة إلى فلسطين فقد تفقد الفاروق رضي الله عنه أجناد المسلمين، وناقش القضايا العامة الخاصة ببقاء الجنود المسلمين بالشام، كما أنه قسم الإقليم إلى منطقتين إداريتين[5]، هذا ويذكر أنه بقدوم عمر بن الخطاب إلى القدس انتهت حقبة من عدم الاستقرار السياسي، والمظالم الدينية الكنسية التي مارسها أباطرة بيزنطة ضد الذين خالفوهم بالمعتقد الكنسي، وتبرهن للناس أجمع أن المسلمين أقدر الناس على حماية أماكن العبادات، وصيانة المؤسسات، فحرية المعتقد التزم بها المسلمون دون سواهم، واستردت بعد أمد وجيز من تحريرها اسمها الأصيل رسمياً وشعبياً، كما باتت في كثير من الأحيان تعرف باسم بيت المقدس.

---

1 ـ العليمي:(مجير الدين الحنبلي ت 928هـ 1521م)، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، بيروت، 1973م، ج1، ص256 ـ زكار: القدس، ج3، ص47

2 ـ الواقدي: فتوح الشام، ج1، ص209- 210

3 ـ زكار: القدس، ج3، ص47

4 ـ ابن عساكر: تاريخ، ج5، ص153- 172

5 ـ لجنة من أساتذة الأزهر: دراسات، ص275

وباتت بلاد الشام جزءاً من دولة الخلافة التي مركزها الآن المدينة المنورة، ولم تعد تتبع روما الغربية أو الشرقية، بل تعاديها، لذلك قسم العرب البلاد أولاً إلى أربعة أجناد هي جند دمشق، وجند حمص، وجند الأردن، وجند فلسطين، وفي العصر الأموي أيام يزيد بن معاوية قسم جند حمص قسمين، هما جند حمص وجند قنسرين[1]وبات لكل جند خراجه، ونواة إدارة مستقلة، ووال وحامية. فقد تمركزت غالبية القوات التابعة لجند فلسطين في عمواس، وآثر الصحابة سكنى البلدة لوقوعها على مقربة من بيت المقدس، ولأنها كانت حصينة، ولم يسكنوا في القدس تجنباً لاغتصاب دور أهلها، أو مضايقتهم بمشاركتهم في دورهم لأن المدينة كانت مسورة لكن مع الأيام أخذوا يتحولون إلى الإسلام، والمدينة نفسها اتسمت بسمات إسلامية.

---

[1] ـ زكار: القدس، ج3، ص39-40.

فتح بقية المناطق(17هـ / 638م):

بعد أن كتب الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه العهدة العمرية لأهل القدس، اجتمع بالقادة ونظم الأمور فيما بينهم، إذ قسّم الغنائم على الفاتحين بعد أن أخذ الخمس لله، وقام بتقسيم الشام إلى قسمين ليسهل فتحها؛ القسم الأول شمل الشام من حوران إلى حلب وما بعدها وعين عليها أبا عبيدة بن الجراح، وكلفه بالمسير إلى حلب لفتحها[1]، بينما القسم الثاني شمل أرض فلسطين والقدس والساحل وعيّن عليه يزيد بن أبي سفيان وكلفه بفتح المناطق التي لم تفتح بعد[2]، على أن تكون القيادة العامة في بلاد الشام لأبي عبيدة بن الجراح، فتوجه كل قائد إلى المنطقة التي كلف بفتحها .

وبدأت مرحلة التصفية الكاملة للوجود البيزنطي في جنوب بلاد الشام، ولم تبق مدينة حصينة في فلسطين سوى عسقلان، فحاصرها معاوية بن أبي سفيان وفتحها صلحاً، ووضع فيها المقاتلين لضمان عدم نقضهم للصلح مرة أخرى، وأعطى فيها المقاتلين القطائع[3]. وبهذا تم تصفية الوجود البيزنطي بشكل كامل من فلسطين.

هذا وقبل ختم الفتوحات في جنوب بلاد الشام لابد من الإشارة إلى الخطة التي اقترحها الخليفة عمر بن الخطاب لفتح الشام، فقد جعلت ظهر القوات العربية محمية عند وقوفها على أبواب فلسطين، وتتمكن من جلب الإمدادات أيضاً. وفي الوقت ذاته تعزل مصر عن بلاد الشام ويصبح من الصعب وصول نجدات بيزنطية من هناك أو إرسالها براً، وفي هذا برهان على وجود خطة إستراتيجية واضحة لمتابعة فتح مصر وسواها، وهذا ما حدث فيما بعد.

أضف إلى ذلك أن هزيمة قائد الروم جعلته ينسحب إلى مصر على أمل العودة إلى الشام مرة أخرى.

وقد ذهب بعضهم إلى القول إنه كان هناك خطة مدبرة بين البطريرك صفرونيوس، والقائد البيزنطي الذي تقهقر إلى مصر، ولكن الأحداث اللاحقة حملت على الاعتقاد بأن أهل البلاد لا يريدون حرباً مع هؤلاء العرب المسلمين، وكان صفرونيوس متمرداً على هرقل، ولأن أهل فلسطين ينتمون إلى العرب، وكانوا قبل الفتح يتكلمون العربية، ولا شك أن رابطة اللغة بينهم وبين المسلمين جعلتهم يشعرون بأن هؤلاء الوافدين عليهم من الجزيرة العربية ليسوا غزاة غرباء مثلما كانوا يشعرون تجاه حكامهم الروم، أضف إلى ذلك أن أهل فلسطين كانوا ساخطين ناقمين أشد النقمة على الروم وحكمهم، فقد ذاقوا منهم كل صنوف الاضطهاد والتعذيب عندما

---

[1] ـ ابن سعد: الطبقات الكبرى،ج3، ص283

[2] ـ الواقدي: فتوح الشام، ج1، ص210 ـ البلاذري: فتوح، ص165

[3] ـ البلاذري: فتوح، ص167 ـ عباس: تاريخ، ص270

كان الروم وثنيين، بينما اعتنق أهل فلسطين الديانة المسيحية، فلما اعتنق الإمبراطور قسطنطين المسيحية، وتحول الروم إلى المسيحية لم يخفَ عن الفلسطينيين المسيحيين بطش الروم وقسوتهم وجبروتهم حيث ظل الرومان المسيحيون يعاملون الفلسطينيين المسيحيين معاملة الحاكم المتجبر للمحكوم المقهور بدعوى أن الروم يقولون أن مسيحية أهل فلسطين تختلف عن مسيحية روما في بعض التفاصيل.

أليس بعد هذا أن يكون عامل الأصل العربي وعامل النقمة والكراهية للروم كفيلين بإقامة صلة التفاهم بين المسلمين القادمين وبين أهل فلسطين صلة قوية قد تغني عن الحرب!؟ وماذا يفعل جيش الروم مهما كان عدد جنوده ومهما تكن قوة سلاحه إذا انضم أهل فلسطين جميعاً إلى المسلمين القادمين وفتحوا لهم مدنهم وقراهم وبيوتهم متعاونين مرحبين؟.

أضف إلى ذلك أنه لا بد وإن سكان فلسطين سمعوا عن انتصارات العرب المسلمين في فارس والعراق وبلاد الشام، ومعاملة المسلمين لأهل البلاد المفتوحة، وكل هذا يجعل أهل القدس راغبين في تفادي الحرب مع المسلمين، وفي أن يعقدوا معهم صلحاً شرط أن يكون صلحاً مشرفاً من ناحية المظهر وعادلاً كريماً في شروطه.

طاعون عمواس(18هـ / 639م)[1]:

بعد النجاح الذي رافق كل الأعمال والفتوحات التي قام بها المسلمون، أصيبوا ببلاء ومرض أودى بحياة أغلب القادة، وعدد كبير من الصحابة عدا الأعداد الكبيرة من الجنود وغيرهم، وكان ذلك سنة (18هـ / 639م)[2]، والسبب الذي أدى إلى ظهور هذا المرض التعفن الذي ظهر في الجو بسبب كثرة الجثث[3]، مما أدى إلى فساد الهواء، ومما زاد في انتشار هذا المرض اجتماع الجيوش في مكان واحد، بالإضافة إلى باقي السكان؛ إذ لم يكن هناك أي وقاية صحية تحول دون ظهوره وتضع حداً لانتشاره. فهلك عدد كبير من الصحابة بهذا الوباء ومنهم أبو عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وشرحبيل بن حسنة، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي وغيرهم [4].

ويبدو أن السبب في اشتداد الطاعون في دمشق تمثّل باعتماد أهلها في الشرب على نهر بردى، الذي كان عرضة للتلوث بجراثيم الوباء ونقل العدوى بواسطته سهل[5]، ولم ينته هذا الوباء إلا بعد أن انتقل أهل دمشق و سكان باقي المناطق للإقامة في المرتفعات الجبلية بتوجيه من عمرو بن العاص[6]، وفيها العيون التي كانت أقل عرضة للتلوث ونشر المرض، وفي ذلك دلالة على أن رأي عمرو بن العاص كان صواباً فكان هذا الانتقال سبباً في زوال ذلك المرض.

---

[1] ـ عمواس: منطقة في شمال فلسطين بين بيت المقدس والرملة على ستة أميال من الرملة (عطوان: الجغرافية التاريخية لبلاد الشام، ص31)
[2] ـ البلاذري: فتوح، ص164 ـ الطبري: تاريخ، ج3، ص462
[3] ـ النجار: الخلفاء الراشدون، ص153
[4] ـ البلاذري: فتوح، ص164 ـ الطبري: تاريخ، ج3، ص463
[5] ـ النجار: الخلفاء الراشدون، ص153
[6] ـ الطبري: تاريخ، ج3، ص463

الفصل الخامس

آثار الفتوحات ونتائجها

لقد كانت خسائر المسلمين صغيرة بالمقارنة مع خسائر البيزنطيين الفادحة التي جعلتهم غير قادرين على إرسال أية حملة كبرى بعد حملة اليرموك، فلأول مرة وجدت الإمبراطورية البيزنطية أن الواقع يفرض عليها أن تعيد النظر بفكرتها عن العرب، فقد أصبح واضحاً بأن هناك شيئاً يكتنف الإسلام الذي حوّل العرب من قبائل بدوية لا حول لها ولا قوة إلى دولة ذات قوة لا تقهر؛ إذ بُدلت موازين القوى التي كانت قائمة في ذلك العصر، وبدأت الحاميات الرومية بالتقهقر ولم تعد قادرة على صد اندفاع جيوش العرب الفتية، وكانت تلك المعارك وخاصة اليرموك من المعارك الحاسمة تاريخياً على كل المستويات، وهي حصيلة جهد اشترك فيه مجموعة من خيرة قادة المسلمين وجنودهم، وكانت بمثابة باب انفتح بانفتاحه الطريق لنشر الإسلام وتوسيع الدولة الإسلامية في المناطق المجاورة، وبدأت معها نهاية الدولة البيزنطية، التي انهارت الروح المعنوية لدى جنودها، وحتى قادتها، ممّا أدى إلى انحلال العقدة التي كانت لدى العرب بأن الجيش البيزنطي جيش هائل وقوي[1]، ولا يمكن الانتصار عليه بل لا يمكن حتى مواجهته، إذ تم استنزاف قوتهم منذ معارك الفتح الأولى، وتم تحطيم تفوق الروم المادي والبشري والمعنوي[2]، وبذلك امتلك العرب زمام المبادرة وإدارة العمليات وتحديد مواقعها ومجرياتها وتدمير أكبر جيش في العصور الوسطى، فخسرت الإمبراطورية البيزنطية بلاد الشام، وانتقل مركز القيادة من أنطاكية إلى القسطنطينية [3]، وبذلك أنهت هذه الفتوح حكم الروم لبلاد الشام إلى الأبد، وسلخت كل ممتلكاتها فيها وهزّت موقعها بين دول ذلك العصر، واستطاعت جيوش المسلمين أن تحطم روح الروم المعنوية.

وبالمقابل ارتفعت الروح المعنوية لدى المسلمين، وزرعت الثقة في نفوسهم، وأظهروا للعالم ما يمكن أن تفعله الشجاعة والمفاجأة ضد قوات تفوقهم، وانتشروا في بلاد الشام يتمّمون فتحها ويطاردون فلول الجيوش البيزنطية المنهارة فكان فتح الأجزاء الجنوبية بمثابة تنظيم قاعدة متقدمة وقوية استندوا إليها في متابعة الفتوح، فحددت مستقبل بلاد الشام عامة ومهدت للفتوحات الإسلامية شرقاً وغرباً[4]، وظهرت الدولة الإسلامية كقوة سياسية جديدة يحسب لها حساب، وبالتالي أصبحت مصالحها موضع اهتمام الجميع، مما كان له أثره في نجاح الفتوح اللاحقة.

وأضافت معارك اليرموك وأجنادين وفحل، وفتح دمشق وحمص وغيرها مساحات جغرافية جديدة إلى رقعة الدولة الإسلامية، فكان لذلك أثره الواضح في زيادة قوتها إذ إن صغر المساحة يسهل الاجتياح؛ لأنها تصبح فقيرة إلى العمق الإستراتيجي الكافي الذي يخفف من القوة الدافعة

---

[1] ـ غوانمة: معركة اليرموك، ص79

[2] العسلي: فن، ص138

[3] ـ الطبري: تاريخ، ج3، ص398

[4] ـ غوانمة: معركة اليرموك، ص79 ـ نتنج: العرب انتصاراتهم ، ص54

لأي هجوم حسب التعبير الحديث للكلمة، أما زيادة المساحة فإنه يقلل من عنصر تأثير المفاجئة العسكرية، ويساعد على سرعة حشد القوات ويزيد من قدرة الدولة على توجيه الضربات. وكان استخدام الإبل في النقل قد أفادهم في حملات القتال على مساحة واسعة من الأرض[1].

وبالتأكيد أن هذه الحركة التي كانت أشبه بالبركان الذي غيّر كل المعالم في منطقة اعتادت على أن تكون خاضعة وتابعة لاحتلال خارجي، سيكون لها آثار شملت العالم كله في تلك الحقبة، فكانت ظاهرة على البلاد المفتوحة، إذ دخلت الإسلام أعداد كبيرة من سكان تلك البلاد ومنهم جبلة بن الأيهم مع جماعة من قومه بني غسان في أعقاب انتصار المسلمين في اليرموك[2]. وكما دخلت باقي القبائل، وهذا الكلام يدحض ادعاء رنسيمان بأن العرب المتنصرة إطلاقا انحازت إلى جانب المسلمين[3].

كما تغيرت الخريطة البشرية وذلك بعد استقرار المسلمين في البلاد المفتوحة، ولم تلبث أن لحقت بها باقي بطونها[4]، وازداد عدد المهاجرين من قبائل قيس، وبدأت القبائل العربية تقاسم قريش بالحكم والمال ومراتب الشرف، كما أدى استمرار الهجرة واتساع رقعة الدولة إلى تغير مواطن عدد من القبائل وخلل في التوزيع السكاني للعرب.

ولم تحتو أخبار الفتوح بشكل واضح وكافٍ أيَّ تحديد للمناطق التي سكنتها القبائل العربية، إذ شهدت تمازجاً واختلاطاً بين كل القبائل، وبذلك زال التوزع الجغرافي القبلي الذي كان سائداً في الماضي، فقد سكنت سليح وتنوخ وبهراء وكلب وبلقين وعذرة وعاملة في دومة الجندل، وزيزاء، ومؤتة، ومآب، وسوى، وذات السلاسل، وفحل، وتبوك، وقراقر. وكذلك استقرت فيها غسان بالإضافة إلى استقرارها في اليرموك، وغوطة دمشق، ومرج الصفر، ومرج راهط. كما أن جذام ولخم استقرت بالإضافة إلى استقرارها في تلك المناطق في حسمى وأجنادين والخليل[5]. أما طيء فقد نزلوا جنوب فلسطين، أما عاملة وهم ولد الحارث بن عدي بن الحارث ابن مرة بن سبأ، وهو أخو لخم وجذام فقد سكنوا في منطقة جبال عاملة المشرفة على طبرية. وبشكل عام سكنت القبائل مناطق مختلفة وتنقلت من مكان إلى آخر ضمن تلك المناطق فتارة سكنوا الأرياف بعد ترك أهلها لها وتارة سكنوا في مناطق جديدة[6]؛ مما أدى إلى المزج بين

---

[1] ـ حوراني: تاريخ، ص53
[2] ـ اليعقوبي: تاريخ، م2، ص142
[3] ـ رنسيمان:(ستيفن)، الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز جاويد، القاهرة، 1961م، ص34
[4] ـ دسوقي: القبائل، ص164
[5] ـ الحموي: معجم، ج5، ص434 - ج1، ص441، 442 - دسوقي: القبائل، ص187
[6] ـ دسوقي: القبائل ، ص184،188، 198

القبائل والتآخي بين أفراد المجتمع الجديد، فتمّ التزاوج بين مختلف القبائل، أدى ذلك إلى ضعف العصبية القبلية وحلول رابطة الدين فزالت بذلك الوحدة القبلية[1].

وهنا لا بد من التساؤل الآتي: هل أرغم المسلمون المنتصرون غيرهم من الشعوب على اعتناق الإسلام قسراً؟. أحداث الفتح السالفة احتوت على الإجابة الصريحة والواضحة؛ إذ ترك المسلمون لأبناء البلاد المفتوحة حرية الاعتقاد، إلا أنّ الدخول كان كبيراً في الإسلام ويمكن أن يُرد ذلك إلى عدة أسباب منها ظهور الإسلام في وقت كان العالم يعاني فيه من الفساد في كل النواحي، بينما كان الإسلام يحمل مبادئ سامية مثلت الدواء الشافي لكل تلك الأمراض. كما أن الإسلام أمر بالحرية الدينية في وقت كثر فيه الاضطهاد الديني، بالإضافة إلى الدور الذي شغلته أخلاق الدعاة من المسلمين وصفاتهم ، وهذا يدحض قول المستشرقين:" قد أمر محمد أتباعه أن يحملوا العالم كله على الإسلام بالسيف إذا اقتضت الضرورة"[2]. بينما يرى آخرون أن سبب إسلام الكثير من الكفار يتمثل بالمصلحة الاقتصادية يقول توماس أرنولد:" وكان أقوى من ذلك جذاباً لهم إلى الإسلام أملهم الوطيد في الحصول على غنائم كثيرة في جهادهم في سبيل الدين الجديد"[3]، إلا أن تعاليم الإسلام كانت تؤكد عكس ذلك فقد حرصت على الفرد وعلى عدم قتل أي نفس بغير حق، بل وعدم إيذائها إلا إذا كان هناك سبباً موجباً للقتل، وطبعاً هذا لا يتناقض مع الدعوة للجهاد فهي دعوة لحماية الإنسان وتكريمه، والمسلمون لم يحملوا سلاحاً إلا لهذه الغاية السامية ولم يضحوا بأرواحهم إلا لتكون كلمة الله هي العليا، ومما يلاحظ في فتوح جنوب بلاد الشام كثرة عهود الصلح، والسبب في ذلك أنّ كل مدينة كانت تطلب إبرام عهد خاص بها، إذ إنّ لكل مدينة منها ظروفها وإدارتها المحلية المسؤولة عن شأنها.

كما أضافت هذه الفتوحات مساحات جغرافية جديدة إلى رقعة الدولة الإسلامية، ومن هنا كان لابد من إعادة تقسيم البلاد إلى أجناد جديدة وذلك بعد هذا التبدل الجغرافي السياسي لبلاد الشام التي أصبحت جزءاً من دولة الخلافة، ومركزها المدينة المنورة وانقطعت صلتها بروما فقسموها إلى أربعة أجناد جند دمشق وجند حمص وجند الأردن وجند فلسطين:

جند دمشق: مركزه دمشق، ويضم بعلبك وحوران ومدينة بصرى، والثنية، وأذرعات والجولان والشراة، بالإضافة إلى مناطق ساحلية أخرى هي العرقة وطرابلس وجبيل وبيروت وصيدا.

---

[1] ـ خماش:(نجدت)، الشام في صدر الإسلام، دار طلاس، دمشق، 1987م، ط1، ص77

[2] أبو خليل:(شوقي)، الإسلام في قفص الاتهام، دار الفكر، دمشق، ط3، 1977، ص86

[3] ـ ارنولد: الدعوة إلى الإسلام ، ص64

جند حمص: يضم وسط الشام، ومدن حماه وشيزر و أفاميا وتدمر ومعرة النعمان وحلب والبارة وقنسرين وانطاكية و اللاذقية وجبلة وبانياس وانطرسوس.

جند الأردن: مركزه طبرية، وتضم بيسان وفحل وجرش وكل من صور وعكا على الساحل.

جند فلسطين: مركزه اللد، ومن مدنه القدس وعمواس ونابلس وسبسطية وبيت جبرين[1].

وهذا التغير السياسي والجغرافي استلزم تنظيمات إدارية جديدة، مثل نظام الدواوين والولاة الذي ظهر في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأخذ الوضع المناسب لمفهوم الدولة المعاصرة[2]، كما أصدر الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه تعليماته على عدم إخراج أهل الشام والعرب من قراهم، والسماح لهم بزراعة أراضيهم وإعمارها، وأخذ الخراج والجزية منهم دون أي ظلم[3]، وامتزجت القومية العربية بالقوميات الأخرى، فعلى الرغم من غيرة العرب على قوميتهم إلا أنهم وجدوا أنفسهم منساقين رغماً عنهم إلى الاختلاط والامتزاج بالقوميات الأخرى، فكثير من الأهالي ممّن هم من غير العرب تقبلوا الإسلام وامتزجوا بالعرب، واشترك الجميع في الحياة الاجتماعية والاقتصادية الجديدة[4]، الحياة التي كان أساسها قائماً على العدالة الاجتماعية، والتعاون على الخير ودفع الأذى؛ فدولة تقوم على هذه الأسس صالحة لأي زمان ومكان، إذ لم تضطهد عقائد ولم تسلب حقوق، بل إنها أمّنت الحرية الدينية لأتباع الديانات السماوية، وحمت أماكن عبادتهم كما حمت المساجد، بعكس ما يرى اليوم من أفعال صدرت عن قوى الشر التي دنّست كل شيء حتى أماكن العبادة، فأي قتال عرفته البشرية منذ أقدم العصور يساوي ما سعى الإسلام إلى تحقيقه من خير للإنسانية جمعاء.

كان لنجاح الفتوح أثره في التغير الجذري لأسلوب العيش وطريقة الحياة، بالنسبة إلى البدو والحضر على حدٍ سواء، فامتهن عدد كبير من عشائر البدو الزراعة، أما الحضر وأغلبهم من سكان مدن الحجاز، فقد طرأ تحول عميق على حياتهم، بعد أن انتفعوا بغنائم الفتح، فازداد عدد الأثرياء[5]، كما وفّرت قاعدة مادية كبيرة استعان بها الإسلام في فتوحاته اللاحقة، كما أنها أعادت إلى الدولة الإسلامية صلتها بأسواق الشام التي سعى الروم إلى حرمانهم منها، وأدى فتح المسلمين إلى أراضي بلاد الشام إلى إيجاد موارد اقتصادية جديدة تمثلت بالمساحات الزراعية الواسعة ذات المحاصيل المتنوعة، مما كان له أثره في زيادة المبادلات التجارية مع الأسواق المجاورة.

---

1 ـ زكار: اليرموك، ص253

2 ـ المراشدة:(علي محمد)، اليرموك الإستراتيجية والحسم، وزارة الثقافة، الأردن، 1997م، ط1، ص248

3 ـ غوانمة: اليرموك، ص8

4 ـ خربوطلي:(علي حسني)، الدولة العربية الإسلامية، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، 1380هـ ـ 1960م، ص88

5 ـ أبو يوسف:(يعقوب)، كتاب الخراج، القاهرة، 1352م، ط2، ص73

وهنا لابد من التساؤل الآتي: إلى أيّ شيء يعود تفوق الفاتحين المباشر؟ ليس بالإمكان تقديم إجابة محددة وواضحة، وقد حاول بعض المستشرقين تزييف الأسباب، إذ قال بعضهم إنّ السبب في ذلك يعود إلى التفوق العددي الذي امتلكه العرب[1]، هذا الأمر لا يحتاج إلى رد لأن كل الوثائق والحقائق والكتابات تثبت عكس ذلك، وذكر بروكلمان أنّ السبب الرئيسي في هزيمة الروم تمثل في حقد الأرمن الذين ألّفوا نصف جيش الروم مما دفعهم للقتال غير راغبين فيه[2]. وهو سبب زائف إذ إن القتال كان شديداً من كل فئات الجيش الرومي إلا أن الصمود الأشد والتجانس بين أفراد الجيش الإسلامي هو الذي أبطل مفعول هذه القوة، كما أن كل أسباب النصر كانت تكمن في طبيعة الجيش الإسلامي ذاته، فالجيش الرومي العرمرم ما كان لأي جيش قدرة على مواجهته إلا أن الفئة القليلة غلبت الفئة الكثيرة بإذن الله، ويمكن ذكر بعض الأسباب التي أدت إلى النصر:

- حنكة القيادة وتفوقها في الميدان، إذ رسمت الخطط الإستراتيجية ونجحت في تنفيذها بل وجعلت جيش الروم يتحرك وفق ما رسمته هي[3]، بالإضافة إلى استخدامها أساليب تعبوية متغيرة ومتطورة فلا يكاد يستقر على استخدام نوع معين، لذا فقد كان يربك أعداءه، إذ إنهم لا يعرفون أسلوبه في القتال، كما أنهم لم يعرفوا كيف يكبحوا تقدمهم المندفع، فامتازوا بخفة الحركة ومرونة الإدارة وتكافؤ التعبئة وتلاحم الجنود مع قيادتهم[4].
- إتباع خالد بن الوليد أشكالاً تكتيكية كثيرة؛ مثل الهجوم الجبهي والاختراق والهجوم المعاكس وصده، والهجوم من الجنب، والهجوم من المؤخرة ، والتجول حول الأجنحة[5].
- التفوق في المعنويات الذي تم استثماره أفضل استثمار، ومما أسهم في هذا التفوق اتباع خالد بن الوليد سياسة المبارزة وقتل القادة.
- الاختيار الخاطئ لمكان المعسكر حتى لا يلجأ جيشه إلى الهرب، فكان بحد ذاته أداة حصار أسهمت في القضاء على كل قوة الروم.
- أسهم التنظيم الجيد للقوات مادياً ومعنوياً في دفعهم إلى الصمود والصبر أمام الضغط المستمر من جيوش الروم.

---

[1] ـ سورديل: الإسلام العقيدة، ص38

[2] ـ بروكلمان: تاريخ، ص123

[3] ـ وتر:(محمد ضاهر)، خالد بن الوليد ومعارك الفتوح، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب بدمشق، 1423هـ - 2002م، ص133

[4] ـ الشجاع: دراسات، ص345

[5] ـ صافي:(نبيل)، معارك خالد ونتائجها، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب بدمشق، العدد88، 1423هـ - 2002م، ص126

- الإستراتيجية النبوية التي اعتمدت على صقل الرجال على تحمل الشدائد و الصعاب وبناء النفس على الحياة في سبيل الله ثم الموت من أجل ذلك.
- الدور البارز الذي شغلته النسوة، وتمثل في عدة أمور منها: صد الفارين ورفع الحمية لديهم للعودة إلى أرض المعركة، وإسعاف الجرحى، وتقديم الماء وإعداد الطعام وحتى المشاركة في المعارك إذ يقول الواقدي على لسان أبي سفيان:" ولقد رأيت منهن امرأة، وقد أقبلت على علج عظيم، وهو على فرسه فتعلقت به وما زالت به حتى نكسته عن جواده وقتلته...."[1].

كما ثبت أنّ النصر في المعارك لا يكون بكثرة العدد والعدة وإنما بقوة الروح المعنوية، فقد كان جيش المسلمين جيشاً يتمثل الإيمان الحقيقي، ويسعى إلى الحرية والتحرير، على النقيض تماماً من جيش المشركين الذي يمثل العقيدة الفاسدة ويسعى إلى التحكم والاحتلال، وكل هذا ساعد على زيادة الثقة بالنجاح والنصر وانتصار العرب في اليرموك وما تلاها من فتح آفاق جديدة للدعوة الإسلامية فتهيأت مرتكزات قوة مضافة لهذه الدعوة، ثم إنّ معركة اليرموك أدت إلى إيجاد جيش عربي إسلامي متمرّس له تجارب، وزادت هذه المعركة من خبرته وقدراته العسكرية والقتالية[2]، وكانت المعارك المتتابعة بمثابة مدرسة تعلّم منها القادة فن الحرب، فَصُقِلَتْ المواهب التي امتلكوها وأظهرتها على مسرح الوجود، فظهرت قيادات عسكرية اتصفت بتبعيتها المطلقة للخليفة وانضباطها في تنفيذ الأوامر فتوجيه خالد بن الوليد إلى الشام ومن ثم عزله من الشواهد على ذلك[3]، كما تأصّلت القواعد الحربية في تلك الفتوح، فهي حروب نظيفة لم تسع إلى الظلم، ولم تتسم بالغدر، والتزمت بعهود الأمان ولم تنقضها، كما ظهر فيها التجديد في القيادات وخاصة ممن أسلم حديثاً، مثل عمرو بن العاص في ذات السلاسل، وخالد بن الوليد في مؤتة وغيرهم.

ودفعت معارك الفتح الأولى دماء جديدة للانضمام إلى الجيش الإسلامي، فأهالي الشام دخلوا بأعداد كبيرة في الجيش الإسلامي، وأصبحوا مورداً مهماً من موارده البشرية، فبرز المسلمون كقوة سياسية جديدة ومؤثرة في مسرح أحداث العالم[4]، بعد أن تبدّلت موازين القوى التي كانت قائمة في ذلك العصر، وأصبحت قوة مرهوبة الجانب، ويجب على كل القوى السياسية الأخرى أن تحسب لها حساباً فاكتسبت بعداً إقليمياً ودولياً.

---

1 ـ الواقدي: فتوح الشام، ج1، ص177
2 ـ غوانمة: معركة اليرموك، ص81
3 ـ ابن الأعثم الكوفي: الفتوح، ج1، ص133
4 ـ غوانمة: معركة اليرموك، ص81،80

وهكذا فقد افتتحت الفتوحات الكبرى عصراً جديداً في تاريخ الإنسانية، فتوقف تاريخ العالم، ومن ثم بدأ من جديد كما قال عليه الصلاة والسلام:" إن الزمان استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض"[1].

وفي أيامنا هذه يستدير الزمان من جديد، فهل سيتمكن العرب مجدداً من شغل الدور الذي اختارتهم العناية الإلهية لشغله؟؟؟.

---

[1] ـ المباركفوري: الرحيق، ص710

خاتمة:

أخذ التوسع الجغرافي المتدرّج للدعوة الإسلامية شكل مراحل وخطوات لتأسيس الدولة العربية الإسلامية الأولى، كانت بسيطة في البداية إلا أنها أخذت تتوسع وتزداد أهميتها مع توسعها، وشكّلت هذه المراحل من فتح جنوب بلاد الشام أولوية من الأولويات التي ظهرت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، واستمرت بل وازداد العمل على تحقيقها في عصر الخلفاء الراشدين، إذ كانت بلاد الشام بمثابة البوابة الأولى التي تؤدي إلى كل المناطق سواء الشرقية في العراق وفارس، أم الشمالية باتجاه القسطنطينية، أم باتجاه مصر وشمال أفريقيا، وشكّلت ممراً لأهم الطرق التجارية، وكانت ميداناً للصراع بين أعظم إمبراطوريتين؛ الفارسية والبيزنطية، فخضعت تارة للفرس وتارة أخرى للروم، فعانى سكانها الكثير من الويلات، وكانوا دائماً تابعين وليسوا حكّاماً مستقلين، بدءاً من الضجاعم وبعدها تنوخ ومن ثم سليح وانتهاءاً بالغساسنة. والمعيار الوحيد لتسليم البيزنطيين لهم حكم تلك القبائل والبلاد كان القوة، فالأقوى هو الذي يحكم.

وبالفعل ما إنّ استقر النبي محمد صلى الله عليه وسلم في المدينة وأسس الدولة حتى بدأ التفكير الجدي بفتح بلاد الشام، وقد اختلف المؤرخون في أسباب تلك الفتوح واتسع فيها النقاش، والتي لم تكن بفعل قوة غير مرئية ولم تكن هجرة جديدة ولم تكن بحثاً عن وضع اقتصادي أفضل، وإنما كانت حركة تعددت أسبابها وظهر فيها أثر الدين الجديد على نفسية المقاتل المسلم، وأخذ هذا النشاط شكلين النشاط العسكري وبدأ مع غزوات مبكرة تمثلت بدومة الجندل الأولى والثانية وحسمى وذات أطلاح سبقت النشاط الدبلوماسي الذي لقي ردات فعل معارضة ورفض لهذه الدعوة، ومن الطبيعي أن يسبق النشاط الدبلوماسي تحركاً عسكرياً ليظهر أن هذه الدعوات والمراسلات لم تكن من ضعيف، وتوبع النشاط العسكري بعد تلك المراسلات فكانت مؤتة وذات السلاسل وتبوك ليُختم عهد النبي صلى الله عليه وسلم بإعداد جيش أسامة بن زيد الذي لم يتم إرساله إلا في عهد أبي بكر الصديق، فشكّلت تلك التحركات مفاجأة بل وصدمة لكلا الإمبراطوريتين ولسكان المنطقة ذاتهم، و كانت المفاجأة الأخرى في الإقبال منقطع النظير من قبل سكان الحجاز واليمن للانضمام لجيش الفتح، فوضعت الخطط وحددت الإستراتيجيات التي حاول بعضهم إنكار وجودها، وظهرت شجاعة المقاتل العربي وبطولته في كل الميادين، وشكل مجيء خالد بن الوليد من العراق بهذه السرعة، والظهور غير المتوقع للقوات البيزنطية من الخلف الصدمة الأكبر لهرقل نفسه، وخلق الطريق الذي سلكه القائد خالد بن الوليد إشكالية وضعت المؤرخين في حيرة من أمرهم، فمنهم من أخطأ ومنهم من قرب من الصواب، ومنهم

من مزج الخيال بالواقع، إلا أنّ مقارنة الروايات وتتبع الأحداث أوضح ما فيه لبس واختلاط من غيره، في محاولة للوصول إلى الرواية الصحيحة، ففتحت تدمر وبصرى وهزم الروم في أجنادين وفحل وتم فتح دمشق الذي شكّل صدمة جعلت هرقل يرسل كل ما لديه من جيوش على أمل حسم المعركة لصالحه، فارتقى كل القادة إلى مستوى المسؤولية الموكلة إليهم، فعقدت المجالس الحربية ووضعت المخططات بعد أن أدركوا أن المعركة المقبلة هي الفصل وبها سيتم الحسم، وكان عليهم مواجهة مشكلة الفارق الكبير في الأعداد والعدة، إلا أنّهم بالفعل خططوا فأجادوا وأظهروا شجاعتهم فأفادوا، أفادوا كل الأمة وحددوا مصيرها؛ فكان النصر المؤزر في اليرموك وغيرها، مما فتح المجال أمامهم لإتمام الفتوح، فأصبحت جنوب بلاد الشام بمثابة القاعدة التي تم الانطلاق من خلالها إلى باقي المناطق وتم القضاء على الجيش الجرار الذي بنى عليه هرقل كل آماله، وهرب هرقل إلى القسطنطينية ومعه ذكريات هزيمته الحزينة والأولى في حياته العسكرية، وبدأت بعد ذلك مرحلة تصفية الوجود البيزنطي بشكل كامل من جنوب بلاد الشام. ففتح بيت المقدس صلحاً واقترن بهذا الصلح ما عرف بالعهدة العمرية التي أظهرت مدى التسامح الذي اتسم به الإسلام، وحرصه على حقوق الإنسان قبل أن تعرف المواثيق الدولية ذلك بأربعة عشر قرناً، وبدأ مع هذه الفتوح عصر جديد، عصر زالت فيه قوى الظلم وسادت فيه قوى الحق التي تميزت بروح التسامح الذي كان له أكبر الأثر في اعتناق أعداد كبيرة من سكان جنوب بلاد الشام للإسلام في نهاية المطاف. وقد أظهر البحث الموقف العام لأهل الشام من الفتوح، وأوضح ما واجهت الجيوش من صعوبات في أثناء الفتح وذلك ضمن منظور علمي يعتمد أساساً على العدل مع الصديق والعدو، وعلى مطابقة واقع الأمة مع مبادئ الإسلام والتركيز على رصد هذه الفتوحات من زاوية جديدة، وهي زاوية البناء التربوي للفرد، وبناء الأمة كلها في محاورة النصوص واستنطاقها، واستخراج أصدق صورة ترسمها.

و يستخلص من خلال هذه الدراسة عدداً من النتائج والملاحظات وهي:

- لم يكن سكان جنوب بلاد الشام بكل فئاتهم يتمتعون بمثل هذا الأمن والاستقرار الذي تمتعوا به بعد مجيء الإسلام وقد عانوا الكثير في أثناء حكم الدولتين الفارسية ومن ثم البيزنطية، إلا أن الإسلام كفل لهم حقوقهم الدينية والدنيوية، والراجح أنهم مارسوا أعمالهم التجارية والصناعية بكل حرية ولم يتعرض لهم المسلمون بشيء يسيء إلى نشاطهم الاقتصادي والديني ويؤكد لوبون أنّ الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب ولا ديناً سمحاً مثل دينهم[1].

[1] - لوبون: حضارة العرب، ص72

- لم يكن الإسلام دين حرب بل دين دبلوماسية، فالهدف الأول والأخير هو نشر الدين الإسلامي؛ والدليل على ذلك أن الدعوة بدأت بإرسال الرسائل.
- لم يتغلب المسلمون بقوة جيوشهم فقط ، بل تغلبوا كذلك بقوة إيمانهم فكان النصر يأخذ أماكن متعددة ومختلفة غير نصر ساحة المعركة، وإنما كان النصر في كسب تلك الأعداد الهائلة من أبناء جنوب بلاد الشام واعتناقهم الإسلام.
- إنّ هذه الغزوات والسرايا والمعارك لم تكن فقط لتحقيق أهداف قريبة ومباشرة وإنما سعت إلى تحقيق أهداف بعيدة تمثّلت بفتح كل المناطق المجاورة من خلال فتح جنوب بلاد الشام.
- خروج العرب بشكل عام من حالة الضعف والتمزق، لتظهر لأول مرة دولة تعرف باسم الدولة العربية الإسلامية غيّرت وجه التاريخ بشكل كامل.

وأخيراً: إن تعدد الروايات حول الحدث الواحد واختلافها في إيراد المعلومات والتواريخ ينتج عنه تعدد في التفسيرات وصعوبة البحث فيها، مما يحتم على الباحث التاريخي معاودة النظر في الرواية التاريخية وتحليل عناصرها وبيان مصادرها وطرق انتقالها، ومما يزيد صعوبة البحث في روايات التاريخ الإسلامي ومنها روايات الفتوح انعدام مصادر أخرى غير عربية معاصرة تسند الرواية الإسلامية لذا يجد الباحث نفسه مرغماً على اعتماد المصادر العربية وذلك من خلال الوصول إليها وجمع رواياتها وفهمها ونقدها وفق المناهج العلمية المعاصرة للوصول إلى الحقيقة.

ما أحوج اليوم إلى هؤلاء الرجال الذين بذلوا المال والنفس، فما أكثر الأعداء وما أثقل الأعباء، هؤلاء الفاتحون جعلوا العبرة من أمر أثبته التاريخ في الماضي، وأثبتته التجربة في الحاضر، وفي زمن كثر فيه الأعداء وثقلت به الأعباء، إن الحاجة اليوم ليست لكل هذه الأعداد بل بحاجة إلى عدد أقل يختفي من بينهم المنافقون، ويزول منهم المرائون، ويغلب عليهم الصادقون الذين يبذلون النفس والمال وكل شيء في سبيل حرية هذه الأمة التي تقاذفتها رياح الفرقة والتمزق في كل الجهات، والله مع العبد إذا كان العبد مع الله.

قائمة المصادر العربية والمعربة:

❖ **ابن الأثير:(عز الدين أبي الحسن علي بن محمد ت630هـ / 1232م)**

1- أسد الغابة، دار الفكر، بيروت، 1409هـ ـ 1989م.

2- الكامل في التاريخ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، 1420هـ ـ 1999م، ط2.

❖ **الأزدي:(محمد بن عبد الله ت231هـ / 845م)**

3- فتوح الشام، تحقيق عبد المنعم عبد الله عامر، مؤسسة سجل العرب.

❖ **الأصطخري:(أبي أسحق إبراهيم بن محمد ت 346هـ / 956م)**

4- المسالك والممالك، تحقيق جابر عبد العال الحسيني، دار القلم، بيروت، 1961م.

❖ **ابن الأعثم الكوفي:(أبي محمد أحمد ت314هـ / 926م)**

5- الفتوح، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، ط1.

❖ **أفتيشيوس:(المكني بسعيد بن بطريق ت 328هـ / 939م)**

6- التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، مطبعة الأباء اليسوعيين، بيروت، 1909م

❖ **البخاري:(أبي عبد الله محمد بن إسماعيل ت 256هـ / 869م)**

7- صحيح البخاري، تحقيق مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، 1407هـ ـ 1987م، ط3.

❖ **البدري:(أبي البقاء عبد الله ت 894هـ / 1489م)**

8- نزهة الأنام في محاسن الشام، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، 1400هـ ـ 1980م، ط1.

❖ **البغدادي:(صفي الدين ت 739هـ / 1338م)**

9- مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق وتعليق علي محمد البجاوي، دار أحياء الكتب العربية، عيسى علي البابي الحلبي، القاهرة، ط1، 1954م، ج1.

❖ **البكري:(أبي عبد الله بن عبد العزيز ت 487هـ / 1094م)**

10- معجم ما استعجم، تحقيق مصطفى السقا، القاهرة، 1945م

❖ **البلاذري:(أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البغدادي ت279هـ / 892م)**

11- فتوح البلدان، تحقيق طه عبد الرءوف سعد وعمر أحمد عطوة، دار ابن خلدون.

12- أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف، مصر، 1959م.

❖ **البيهقي:(أبو بكر أحمد بن الحسين ت 458هـ / 1066م)**

13- دلائل النبوة، دار الكتب العالمية، بيروت، 1958م.

❖ **التميمي:(الحافظ أبي حاتم بن أحمد ت 354هـ / 965م)**

14- السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، صححه الحافظ السيد عزيز بك، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1407هـ ـ 1987م، ط1.

❖ **ابن الجوزي:(عبد الرحمن بن علي بن محمد ت 597هـ / 1201م)**

15- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، تحقيق محمد بن عبد القادر عطا و مصطفى عبد القادر عطا، مراجعة نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992م، ط1.

❖ **ابن حبيش:(عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله ت 584هـ / 1188م)**

16- غزوات ابن حبيش، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، 1412هـ ـ 1992م، ط1.

❖ **ابن حجر العسقلاني:(أحمد بن علي بن محمد بن الكناني ت 852هـ / 1448م)**

17- الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، 1412هـ ، ط1.

❖ **ابن حزم:(أبي محمد علي بن سعيد ت 456هـ / 1063م)**

18- جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، مصر، 1962م.

❖ **ابن حنبل:(أبو عبد الله أحمد بن محمد ت 241هـ / 855م)**

19- مسند الأمام احمد، دار الفكر، بيروت.

20- فضائل الصحابة، تحقيق وصي الله محمد عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1403هـ ـ 1983م، ط1.

❖ **ابن حوقل:(أبي القاسم ت 367هـ / 977م)**

21- صورة الأرض، مطبعة بيرل ليدن، 1967م، ط2.

❖ **الحموي:(ياقوت بن عبد الله ت 626هـ / 1228م)**

22- معجم البلدان، دار الفكر، بيروت.

❖ **ابن خرداذبه:(عبيد الله بن عبد الله ت 300هـ / 912م)**

23- المسالك والممالك، دار أحياء التراث العربي، بيروت، 1988م.

❖ **ابن خياط:(خليفة بن خياط العصفري ت 240هـ / 854م)**

24- تاريخ ابن خياط، تحقيق أكرم العمري، دار القلم، بيروت، 1397هـ ـ 1977م، ط2

❖ **الدواداري:(أبي بكر بن عبد الله بن أيبك ت 736هـ / 1335م)**

25- كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق محمد السعيد جمال الدين، القاهرة، 1402هـ 1981م، ج3.

❖ **الدياربكري:(حسن بن محمد بن الحسين ت966هـ / 1558م)**

26- تاريخ الخميس في أنفس نفيس، مؤسسة شعبان، بيروت، 1970م

❖ **الذهبي:(شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ت748هـ / 1374م)**

27- تاريخ الإسلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، 1407هـ ـ 1987م، ط1.

28- المغازي، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي.

❖ **السرياني:(مار ميخائيل)**

29- تاريخ مار ميخائيل السرياني الكبير، ترجمة مار غريغوريوس صليبا شمعون، دار ماردين ، حلب، 1996م، ط1.

❖ **ابن سعد:(أبي عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري ت 230هـ / 844م)**

30- الطبقات الكبرى، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968م.

❖ **ابن سيد الناس:(فتح الدين أبو الفتوح محمد بن محمد ت 734هـ / 1333م)**

31- عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، دار الجيل، بيروت، 1974م، ط2

❖ **السيوطي:(جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ت911هـ / 1505م)**

32- تاريخ الخلفاء، تحقيق إبراهيم صالح، دار البشائر، دمشق، 1417هـ ـ 1997م، ط1.

❖ **ابن شاكر الكتبي:(محمد بن أحمد ت 764هـ / 1362م)**

33- عيون التواريخ، تحقيق حسام الدين القدسي، مكتبة النهضة المصرية.

❖ **الشامي:(محمد بن يوسف الصالحي الشافعي ت942هـ / 1535م)**

34- سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت.

❖ **ابن شهاب الزهري:(محمد بن مسلم بن عبيد الله 124هـ / 741م)**

35- المغازي النبوية، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 1400هـ ـ 1980م، ط1

❖ **الطبري:(أبو جعفر محمد بن جرير ت 310هـ / 922م)**

36- تاريخ الرسل والملوك، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط2.

❖ **ابن عبد البر:(الحافظ يوسف النمري ت 463هـ / 1070م)**

37- الدرر في اختصار المغازي والسير، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة

❖ **ابن العبري:(أبي الفرج بن اهرون ت 685هـ / 1286م)**

38- تاريخ مختصر الدول، صححه الأب أنطوان صالحاني اليسوعي، دار الرائد، لبنان، 1415هـ ـ 1994م، ط2

❖ **ابن عساكر:(ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله ت571هـ / 1175م)**

39- التاريخ الكبير، تصحيح عبد القادر أفندي بدران، مطبعة روضة الشام، 1329هـ.

40- تاريخ مدينة دمشق، تحقيق علي شيري، دار الفكر، دمشق.

❖ **ابن العماد الحنبلي:(أبي الفلاح عبد الحي ت 1089هـ / 1678م)**

41- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت.

❖ **العيني:(بدر الدين محمود بن أحمد ت 855هـ / 1451م)**

42- السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، تحقيق فهيم محمد شلتوت، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1967م

❖ **أبو الفداء:(عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر ت 732هـ / 1331م)**

43- المختصر في أخبار البشر، دار المعرفة، بيروت.

44- تقويم البلدان، تصحيح ريود ومالك كوكين ريسلان، نشر دار الطباعة السلطانية، باريس، 1850م

❖ **القرآن الكريم**

❖ **القزويني:(زكريا بن محمد بن محمود ت 682هـ / 1283م)**

45- آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، 1389هـ ـ 1969م.

❖ **القلقشندي:(أبي العباس أحمد بن علي ت821هـ / 1418م)**

46- صبح الأعشى، وزارة الثقافة، القاهرة.
47- مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، بيروت، 1964م، ط1.
48- نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، بغداد، 1958م.
❖ **ابن كثير:(أبي الفداء إسماعيل ت 747هـ / 1346م)**
49- البداية والنهاية، تحقيق علي شيري، دار أحياء التراث العربي، بيروت، 1396هـ ــ 1971م.
50- السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت، 1408هـ ــ 1988م، ط1.
❖ **الكلاعي:(أبو الربيع سليمان بن موسى ت 634هـ / 1237م)**
51- الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة خلفاء، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي، عالم الكتب ، بيروت، 1417هـ، ط1.
❖ **مجير الدين الحنبلي:(عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد العليمي ت 928هـ / 1521م)**
52- الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، بيروت، 1973م، ج1.
❖ **المسعودي:(أبي الحسن علي بن الحسين ت 346هـ / 957م)**
53- مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الفكر، بيروت، 1409هـ ــ 1989م.
❖ **المقدسي:(محمد بن أحمد بن أبي بكر ت 390هـ / 999م)**
54- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1991م، ط3.
❖ **المقدسي:(مطهر بن طاهر ت 507هـ / 1113م)**
55- البدء والتاريخ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.
❖ **ابن هشام:(أبي عبد الملك بن هشام المعافري الحميري ت 213هـ / 828م)**
56- السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1375هـ ــ 1955م، ق2
❖ **الواقدي:(محمد بن عمر ت 207هـ / 822م)**
57- المغازي، تحقيق مارسدن جونس، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت.
58- فتوح الشام، دار الشام، دار صادر، بيروت.
❖ **اليعقوبي:(أحمد بن يعقوب ت 284هـ / 897م)**

59- البلدان، المطبعة الحيدرية، العراق.

60- تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت.

❖ **أبو يوسف:(يعقوب ت182هـ / 798م)**

61- كتاب الخراج، القاهرة، 1352م، ط2

قائمة المراجع العربية والمعربة:

❖ أرنولد:(توماس)

1- الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم وآخر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1970م، ط3.

❖ أكرم:(أ)

2- سيف الله خالد بن الوليد، ترجمة العميد الركن صبحي الجابي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1402هـ ــ 1982م، ط4.

❖ بخيت:(عبد الحميد)

3- عصر الخلفاء الراشدين، دار المعارف، مصر، 1965م، ط2.

4- ظهور الإسلام وسيادة مبادئه، مكتبة الأنجلو المصرية

❖ البخيت، عباس:(محمد عدنان، إحسان)

5- بلاد الشام في صدر الإسلام، الندوة الثانية من أعمال المؤتمر الرابع لبلاد الشام، مطبعة الجامعة الأردنية، 1405هـ ــ 1985م.

❖ بروكلمان:(كارل)

6- تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه فارس والبعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، 1974م.

❖ البيطار:(عزت)

7- الرسول العربي محمد بن عبد الله والإمبراطور هرقل، 1350هـ ــ 1931م، بدون.

❖ بيضون:(إبراهيم)

8- تاريخ بلاد الشام إشكالية الموقع والحدود، دار المنتخب العربي للدراسات.

9- من دولة عمر إلى دولة عبد العزيز، دار النهضة العربية، بيروت، 1411هـ ــ 1991م.

❖ بيغوليفسكيا:(نينا فكتورفنا)

10- العرب على حدود بيزنطة وإيران من القرن الرابع إلى القرن السادس الميلادي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

❖ تدمري:(عبد السلام)

11- لبنان من الفتح الإسلامي حتى سقوط الدولة الأموية، طرابلس، 1410هـ ـ 1990م، ط1.

❖ جبر:(يحيى عبد الرعوف)

12- معجم البلدان الأردنية والفلسطينية حتى نهاية القرن الهجري السابع.

❖ الجبوري:(نهاد عباس شهاب)

13- تدابير الأمن العسكري في صدر الإسلام، بدون.

❖ حتي:(فيليب)

14- تاريخ سورية ولبنان، ترجمة جورج حداد وكمال اليازجي، دار الثقافة، بيروت.

❖ حتي، جرجي، جبور:(فيليب، ادوارد، جبرائيل)

15- تاريخ العرب المطول، ترجمة ادوارد جرجي وجبرائيل جبور، دار الكشاف، بيروت، 1965م

❖ حسن:(حسن إبراهيم)

16- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1964م، ط7.

❖ الحمارنة:(صالح)

17- الناس والأرض، دار الينابيع للنشر، عمان، الأردن، 1991م.

❖ حوراني:(ألبرت)

18- تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيل صلاح الدين، الهيئة المصرية، 1997م.

❖ الحيدر آبادي:(محمد حميد الله)

19- مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، القاهرة، 1941م.

❖ الخربوطلي:(علي حسني)

20- الدولة العربية الإسلامية، مطبعة عيسى البابي، القاهرة، 1380هـ ـ 1960م.

❖ خريسات، النابودة:(محمد عبد القادر، حسن محمد)

21- صاحب الخبر، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين الإمارات العربية المتحدة، 1424هـ ـ 2003م.

❖ الخضري بك:(محمد)

22- تاريخ الأمم الإسلامية، دار الفكر، بيروت، 1994م، ط1.

❖ خطاب:(محمود شيت)

23- قادة فتح الشام ومصر، بيروت، 1385هـ ـ 1965م، ط1.

❖ **أبو خليل:(شوقي)**

24- في التاريخ الإسلامي، دار الفكر، دمشق، 1412هـ ـ 1991م، ط1.

25- الحضارة العربية الإسلامية، دار الفكر ، دمشق، 1996م

26- الإسلام في قفص الاتهام، دار الفكر، دمشق ، 1977م، ط3

❖ **خماش:(نجدت)**

27- الشام في صدر الإسلام، دار طلاس، دمشق، 1987م، ط1.

❖ **دحلان:(أحمد زيني)**

28- الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية، المطبعة التجارية الكبرى، 1354هـ.

❖ **دسوقي:(محمد عزت)**

29- القبائل العربية في بلاد الشام من ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الأموي، الهيئة المصرية للكتب، 1998م.

❖ **رنسيمان:(ستيفن)**

30- الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز جاويد، القاهرة، 1961م

❖ **زكار:(سهيل)**

31- اليرموك والفتح العمري للقدس، دار الفكر، بيروت، 1422هـ ـ 2002م.

32- القدس في التاريخ، منشورات القيادة الشعبية الإسلامية العالمية، 1422هـ ـ 2002م.

33- الموسوعة الشامية

❖ **زيادة:(نقولا)**

34- التطور الإداري لبلاد الشام بين بيزنطة والعرب (المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام)، عمان، 1986م.

❖ **الزيادي:(محمد فتح الله)**

35- ظاهرة انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منها، طرابلس، ليبيا، 1392هـ ـ 1983م.

❖ **زيود:(محمد)**

36- تاريخ العرب والإسلام، جامعة دمشق، 1994ـ 1995م

❖ سالم:(عبد الرحمن)
37- المسلمون والروم في عصر النبوة، دار الفكر العربي، القاهرة، 1418هـ ــ 1997م.
❖ سالم:(عبد العزيز)
38- التاريخ السياسي والحضاري للدولة العربية، دار النهضة العربية، بيروت.
❖ سعيد:(أمين)
39- حروب الإسلام والإمبراطورية الرومية، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر.
❖ سليم:(أحمد أمين)
40- معالم تاريخ العرب قبل الإسلام، مكتب كريدية أخوان، بيروت.
❖ سورديل:(دومينيك)
41- الإسلام العقيدة السياسة الحضارة، ترجمة علي مقداد، دار التنوير، لبنان، 1998م، ط2.
❖ الشامي:(أحمد)
42- الخلفاء الراشدون، دار النهضة العربية، القاهرة، 1982م، ط1.
❖ الشجاع:(عبد الرحمن)
43- دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، دار الفكر المعاصر، صنعاء، 1419هـ ــ 1999م.
❖ الشريف:(حامد محمد الهادي)
44- أحوال غير المسلمين في بلاد الشام حتى نهاية العصر الأموي، عمان، 2007م
❖ شكري:(فيصل)
45- حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول، دار العلم للملايين، بيروت، 1982م، ط6.
❖ شندب:(محمد حسين)
46- تاريخ الخلفاء الراشدين، المؤسسة الجامعية للدراسات، 1423هـ ــ 2003م، ط1.
❖ صالح:(قاسم محمد)
47- العسكرية الإسلامية في العصر الراشدي، 1989م، ط1.
❖ الصعيدي:(عبد المتعال)

48- السياسة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين، دار الثقافة العربية للطباعة.
❖ طنطاوي:(محمد سيد)
49- السرايا الحربية في العهد النبوي، الزهراء للإعلام العربي، 1410هـ ـ 1990م.
❖ الطيب:(محمد سليمان)
50- موسوعة القبائل العربية، دار الفكر العربي، عابدين، 1418هـ ـ 1997م، ط2، ج1
❖ عاقل:(نبيه)
51- تاريخ عصر الرسول والخلفاء الراشدين، مطبعة أبي العلاء، دمشق، 1395هـ ـ 1975م.
❖ عباس:(إحسان)
52- تاريخ بلاد الشام، عمان، 1410هـ ـ 1990م
❖ عبد الحميد:(صبحي)
53- معارك العرب الحاسمة، بيت الحكمة، بغداد، 2003م، ط1.
❖ عبد المطلق:(إبراهيم)
54- التدرج في دعوة النبي، وزارة الشؤون الاجتماعية، 1417هـ، ط1.
❖ عبد الهادي:(مهدي)
55- تطور العلم العربي من الفتح الإسلامي حتى مطلع القرن العشرين، عمان الأردن، 1986م، ط1.
❖ عرجون:(محمد الصادق)
56- خالد بن الوليد، الدار السعودية للنشر والتوزيع، 1401هـ ـ 1981م، ط1.
❖ العسلي:(بسام)
57- فن الحرب، دار الفكر، 1394هـ ـ 1974م، ط1.
❖ عطوان:(حسين)
58- الجغرافية التاريخية لبلاد الشام، دار الجيل، بيروت، 1407هـ ـ 1987م، ط1.
❖ العقاد:(عباس محمود)
59- العبقريات العسكرية، دار الآداب بيروت، 1968م، ط2.

❖ علي:(أحمد إسماعيل)

60- تاريخ بلاد الشام منذ ما قبل الميلاد وحتى نهاية العصر الأموي، دمشق، 1984م، ط1.

❖ العلي:(جواد)

61- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، 1969م، ط1.

❖ عوض الله:(الشيخ الأمين)

62- الخلفاء الراشدون، مكتبة الفلاح، الكويت، 1410هـ ـ 1990م، ط3

❖ الغضبان:(منير محمد)

63- عمرو بن العاص الأمير المجاهد، جامعة أم القرى، مكة، 1421هـ ـ 2000م، ط1.

❖ غلوب:(جون باغوت)

64- الفتوحات العربية الكبرى، ترجمة خيري حمادة، بدون.

❖ غوانمة:(يوسف)

65- معركة اليرموك، المطبعة الأردنية، أربد، 1985م، ط1.

❖ فرج:(محمد)

66- المدرسة العسكرية الإسلامية، دار الفكر العربي، ط2.

❖ فوزي:(فاروق عمر)

67- الاستشراق والتاريخ الإسلامي، مؤسسة ياقوت، لبنان، 1998م، ط1.

❖ أبو قدورة:(شاهر سليمان)

68- الحروب العربية والإسلامية، عمان، 1993م، ط1.

❖ الكاتب:(عبد الحميد)

69- القدس، دار الشروق، القاهرة، 1415هـ ـ 1994م، ط1.

❖ كنعان:(محمد بن أحمد)

70- الخلافة الراشدة، مؤسسة المعارف، بيروت، 1417هـ ـ 1997م، ط1.

❖ كيرك:(جورج)

71- موجز تاريخ الشرق الأوسط، ترجمة عمر الأسكندري، دار الطباعة الحديثة.

❖ الكيلاني:(إبراهيم زيد)

72- المراسلات النبوية مع بعض القبائل العربية في جنوب بلاد الشام، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، الندوة الثانية.

❖ **لجنة من أساتذة جامعة الأزهر**

73- دراسات في السيرة النبوية وعصر الخلفاء الراشدين، ط1، 1419هـ ـ 1999م.

❖ **لوبون:(غوستاف)**

74- حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة.

❖ **لومبارد:(موريس)**

75- الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي خلال الأربعة قرون الأولى، ترجمة عبد الرحمن حميدة، دار الفكر، دمشق، 1979م

❖ **ماجد:(عبد المنعم)**

76- التاريخ السياسي للدولة العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1960م، ط2.

❖ **المباركفوري:(صفي الدين)**

77- الرحيق المختوم، المطبعة العالمية، 1422هـ ـ 2001م، ط1.

❖ **المراشدة:(علي محمد)**

78- اليرموك الإستراتيجية والحسم، وزارة الثقافة ، الأردن، 1997م، ط1.

❖ **المطلق:(إبراهيم بن عبد الله)**

79- التدرج في دعوة النبي، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، 1417ه، ط1، ج1

❖ **نتنج:(انتوني)**

80- العرب انتصاراتهم وأمجاد الإسلام، ترجمة راشد البراوى، مكتبة الأنجلو المصرية، 1974

❖ **النجار:(عبد الوهاب)**

81- الخلفاء الراشدون، تحقيق خليل الميس، دار الأرقم، لبنان.

❖ **الهاشمي:(عبد المنعم)**

82- الخلافة الراشدة، دار ابن حزم، بيروت، 1423هـ ـ 2002م، ط1

❖ **وتر:(محمد ظاهر)**

83- الريادة في حروب وفتوحات أبي بكر الصديق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1999م.

❖ **الوكيل:(محمد السيد)**

84- جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين، دار المجتمع، 1416هـ ــ 1995م، ط5.

المجلات المستخدمة:

❖ مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب بدمشق، 1423هـ ــ 2002م.
❖ مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، 1985م، عدد 19ــ 20.
❖ المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، مركز الدراسات العسكرية، طباعة المؤسسة العامة للمساحة، دمشق، ط1، م2، 1992م.
❖ مجلة جامعة أم القرى، مطابع جامعة أم القرى، ك1، المجلد16،ج1، عدد 28

المصادر والمراجع الأجنبية:

1- Turtledove:(Harry), the chronicle of theophanes, University of Pennsylvania press Philadelphia,1982.
2- Trimingham:(J. S), Christianity Among the Arabs in pre- Islamic Times London and New York.
3- Thomson:(R.W), The Armenian History Attributed to Sebeos, Liverpool university press, 1999.
4- Fouracry:(Paul),The new Cambridge Medieval History, Volume c.500- 700, Printed in the united kingdom at the university Cambridge , 2005.
5- Vasiliev:(A.A), History of The Byzantine Empire, Wisconsin,1952
6- . Groune baun:(G.E.von), classical Islam, a history 600_ 1258London,1970
7- surdel :(D) , Dumat al- Djandal, in the Encyclopedia of Islam new edition.

الملاحق

الكتاب رقم/1/

كتاب أبي بكر الصديق إلى أهل اليمن

:" بسم الله الرحمن الرحيم، من خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى من قرأ عليه كتابي من المؤمنين والمسلمين، من أهل اليمن، سلام عليكم فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإن الله كتب على المؤمنين الجهاد، وأمرهم أن ينفروا خفافا وثقالا، وقال{ جاهدوا بأموالكمْ وأنفسكمْ في سبيل الله}، فالجهاد فريضة مفروضة، وثوابه عند الله عظيم، وقد استنفرنا من قبلنا المسلمين إلى جهاد الروم بالشام، وقد سارعوا إلى ذلك، وعسكروا وخرجوا، وحسنت في ذلك نيتهم، وعظمت في الخير حسبتهم، فسارعوا عباد الله إلى فريضة ربكم، وإلى إحدى الحسنيين، إما الشهادة، وإما الفتح والغنيمة، فإن الله لم يرض من عباده بالقول دون العمل، ولا يترك أهل عداوته حتى يدينوا بالحق، ويقروا بحكم الكتاب، أو يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون، حفظ الله لكم دينكم، وهدى قلوبكم، وزكى أعمالكم، ورزقكم أجر المجاهدين الصابرين، والسلام عليكم"[1].

---

[1] ـ الأزدي، فتوح الشام، ص8-9

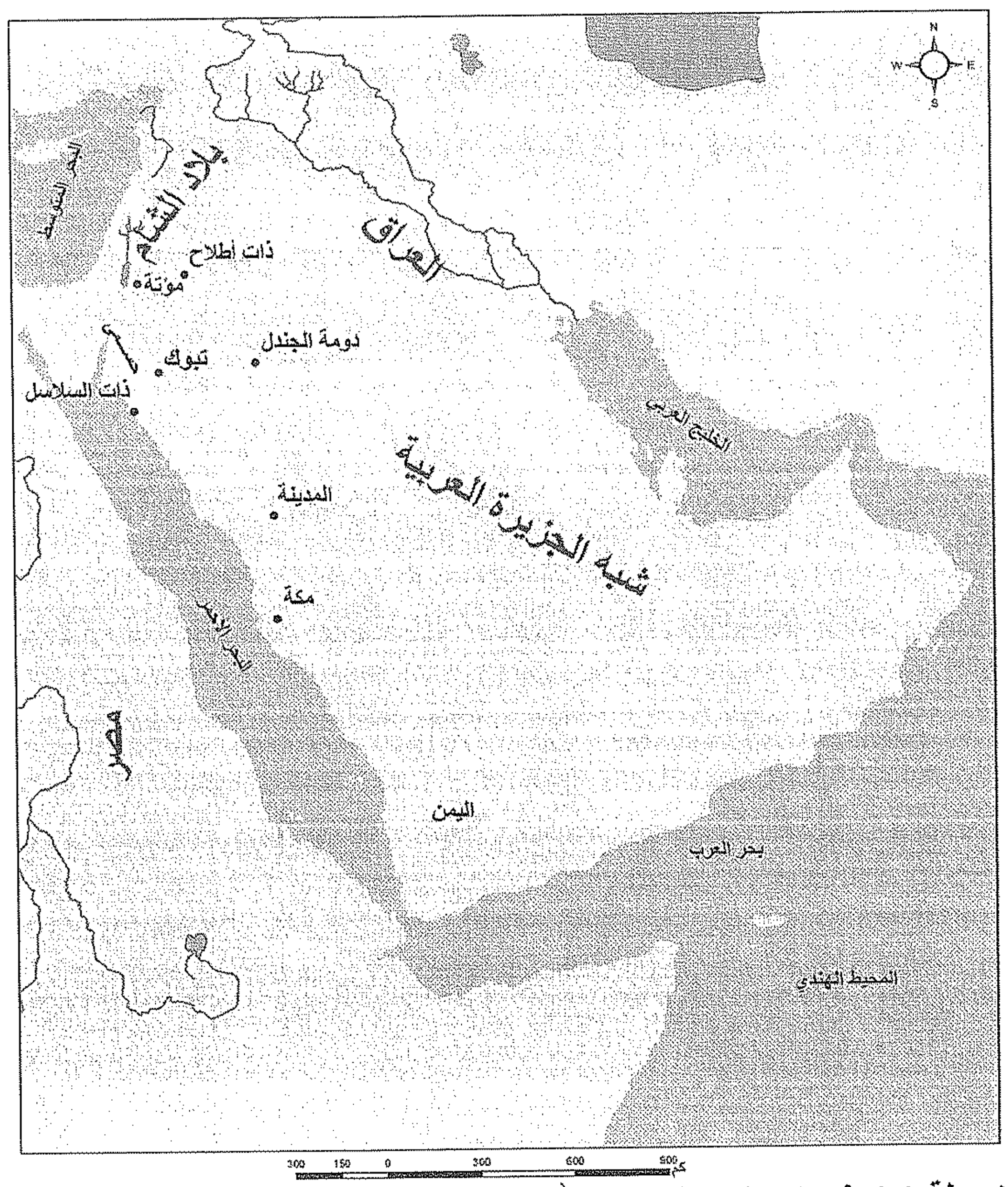
الكتاب رقم/2/

كتاب أبو بكر الصديق لخالد بن الوليد يكلفه بالتوجه إلى الشام

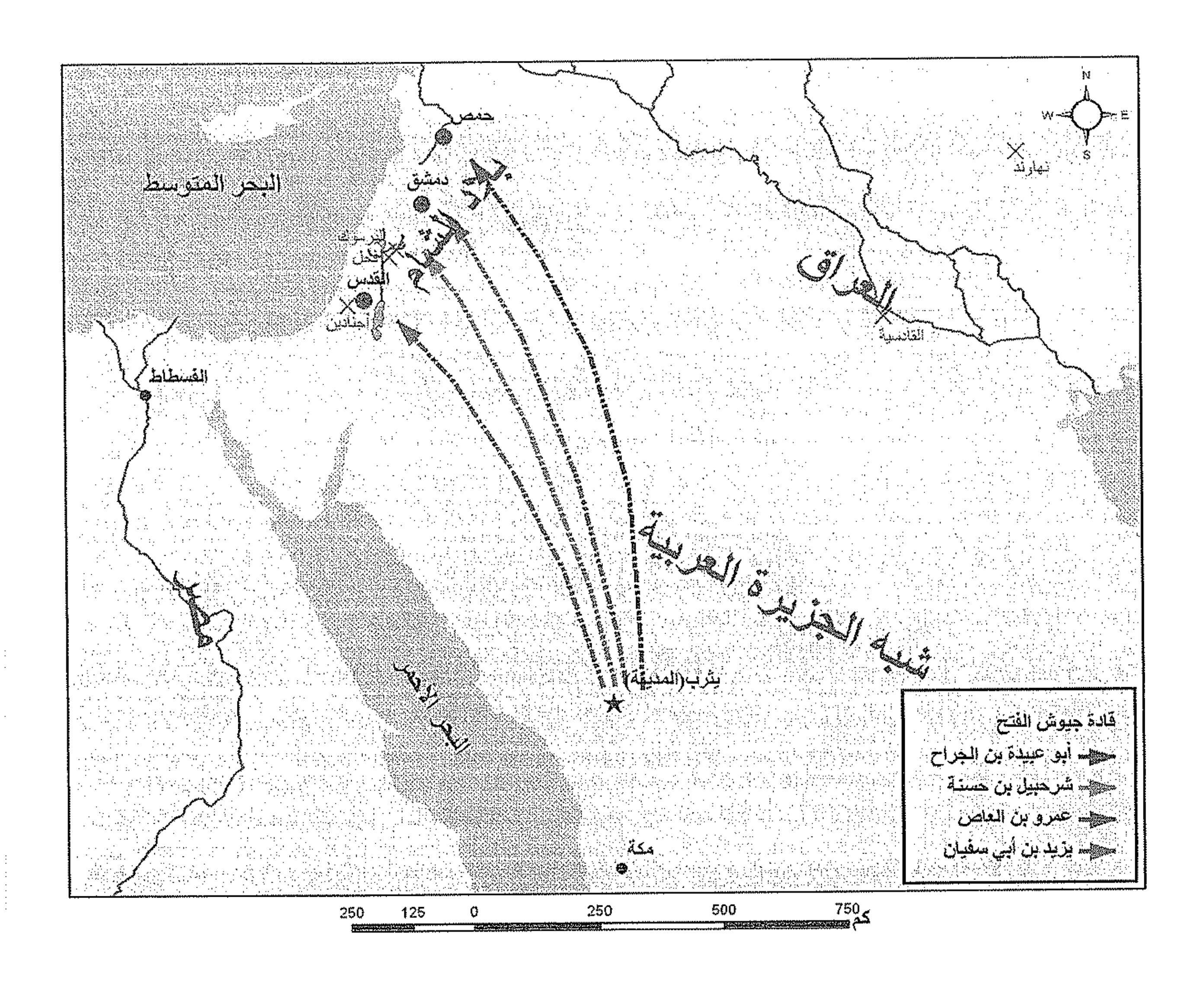
:" بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عتيق بن أبي قحافة إلى خالد بن الوليد سلام عليك، أما بعد: فأني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، وأصلي على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وأني قد وليتك على جيوش المسلمين وأمرتك بقتال الروم وان تسارع إلى مرضاة الله عز وجل وقتال أعداء الله ...... وقد جعلتك الأمير على أبي عبيدة ومن معه.." وبعث الكتاب مع نجم بن مقدم الكتاني[1].

---

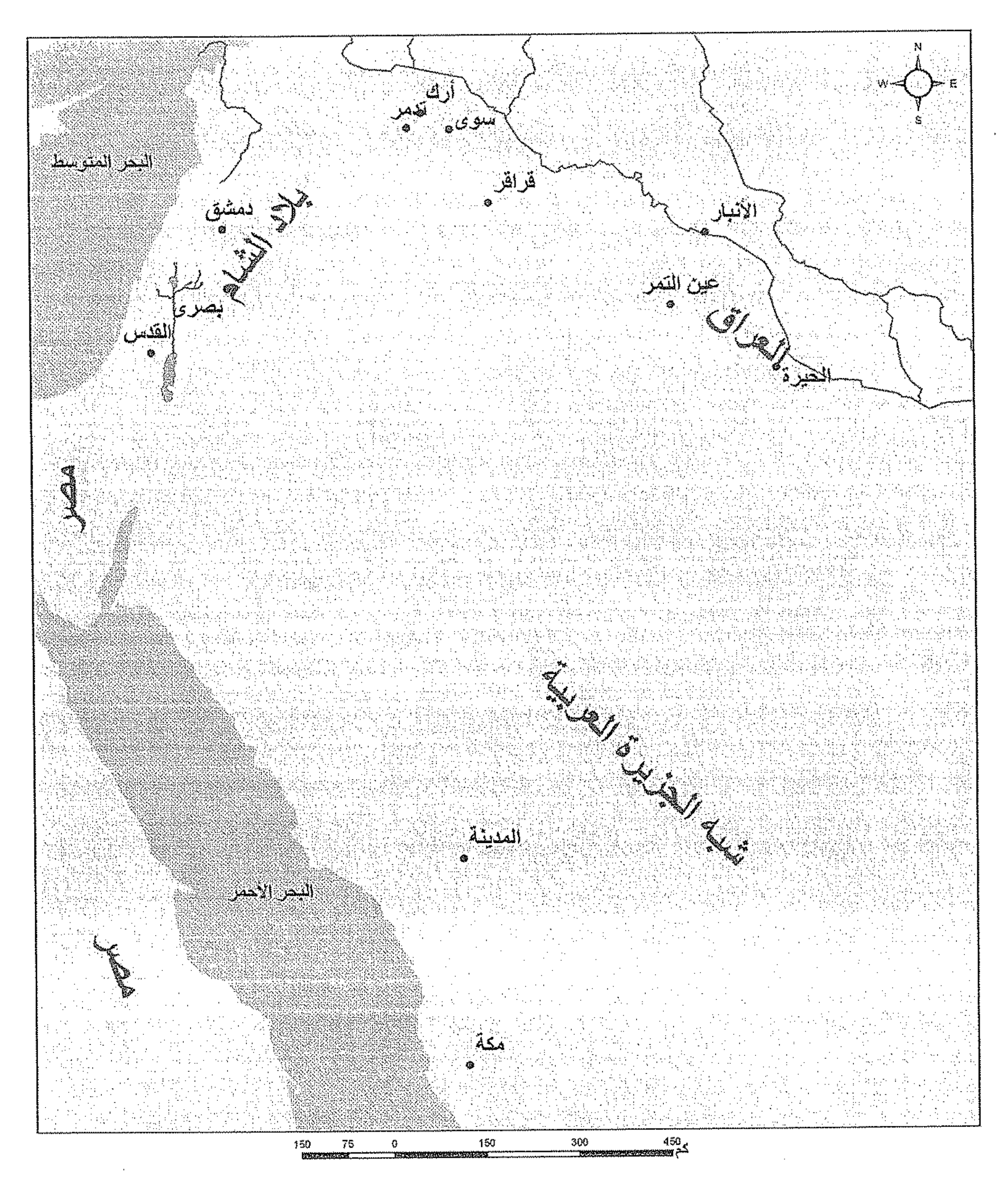
[1] ـ الواقدي، فتوح الشام، ج1، ص26 - ابن عساكر، التاريخ الكبير، م1، ص130



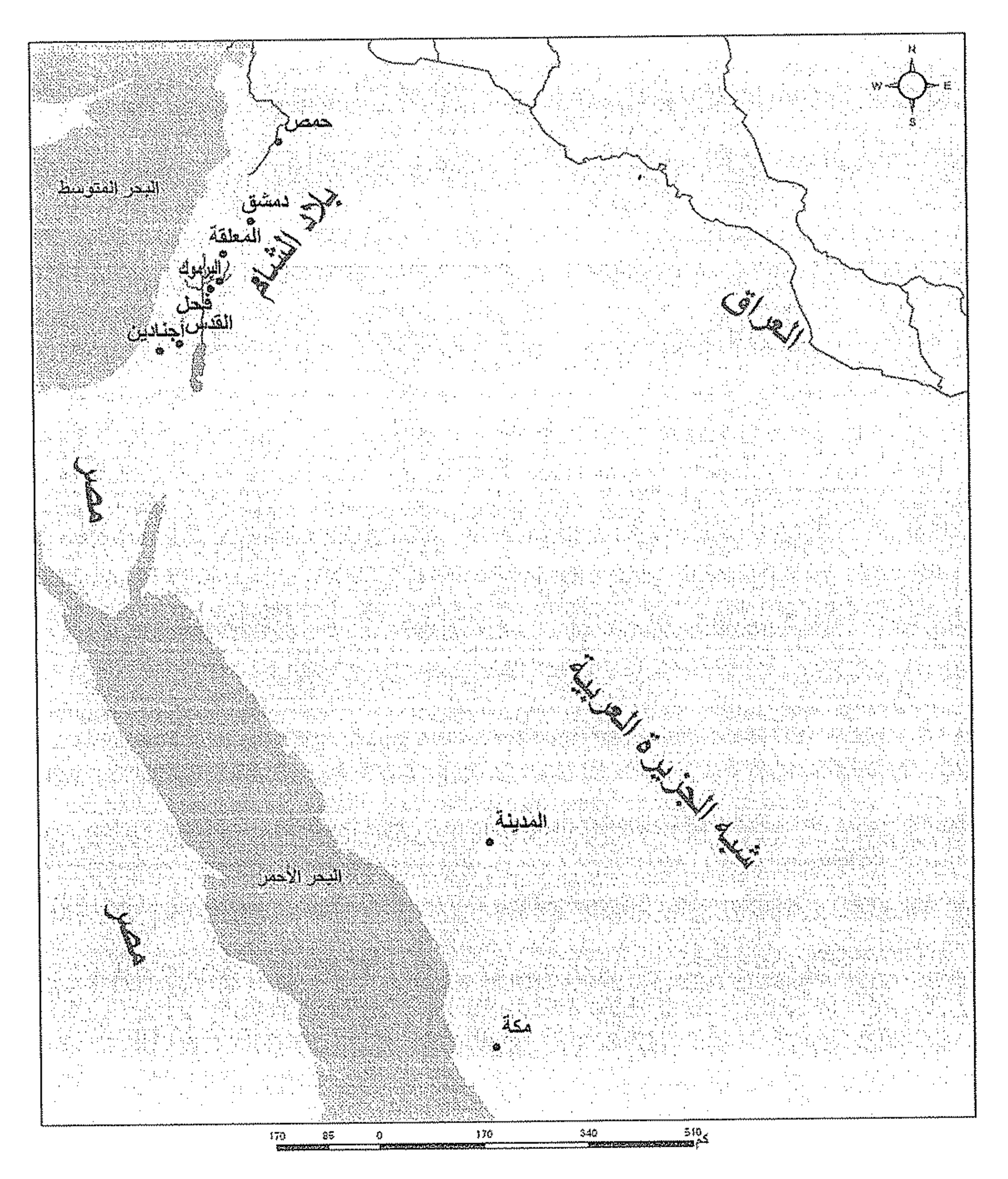
الخريطة (1) غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم



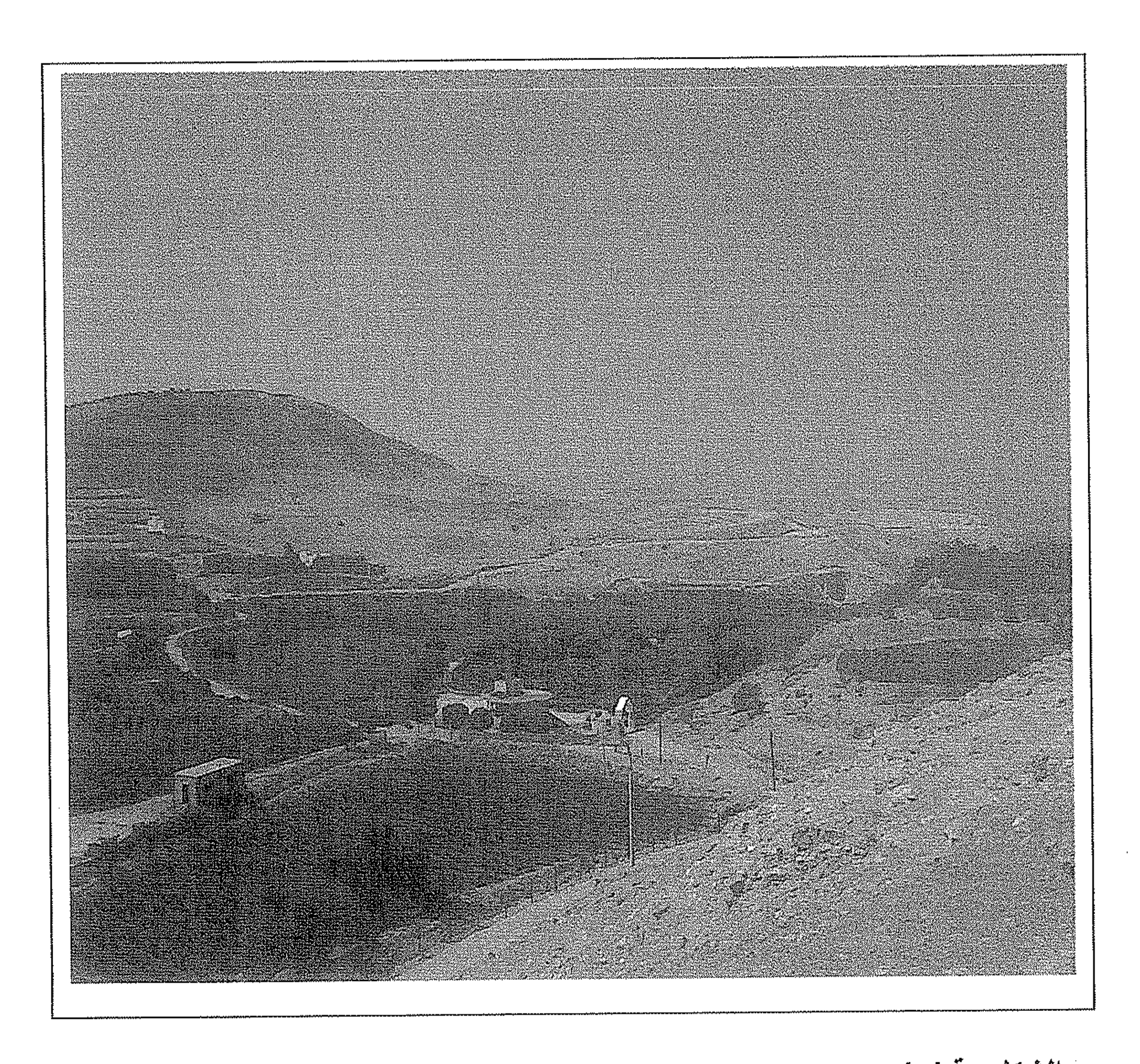
الخريطة (2) وجهة قادة جيوش الفتح إلى بلاد الشام



الخريطة (3) طريق خالد بن الوليد من العراق إلى الشام

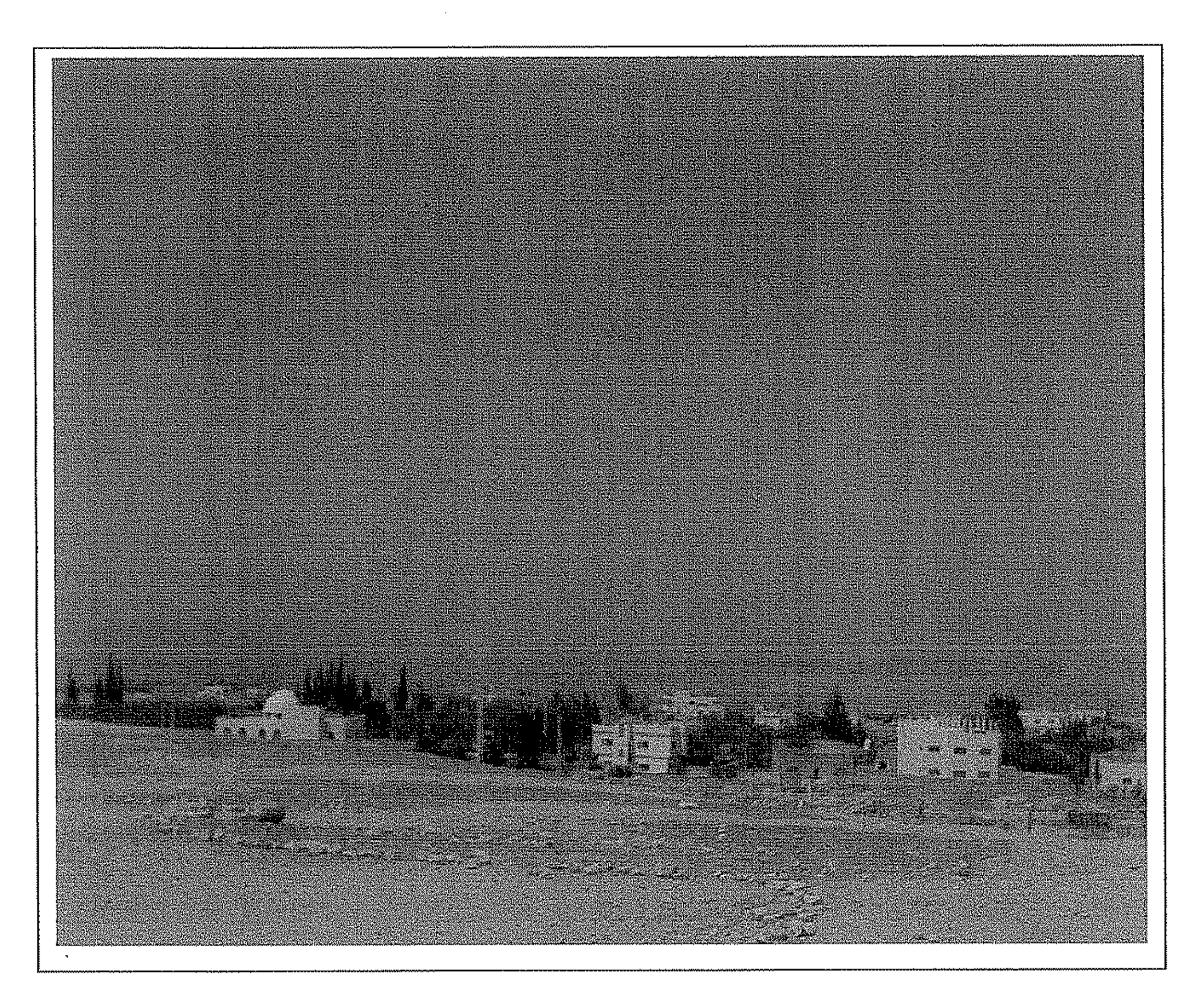


الخريطة (4) مواقع معارك أجنادين وفحل واليرموك



الشكل رقم/1/

المساحات الخضراء صيفاً في فحل التي تؤكد ما ورد عن فتح المياه على جيش المسلمين، دراسة ميدانية



الشكل رقم/2/

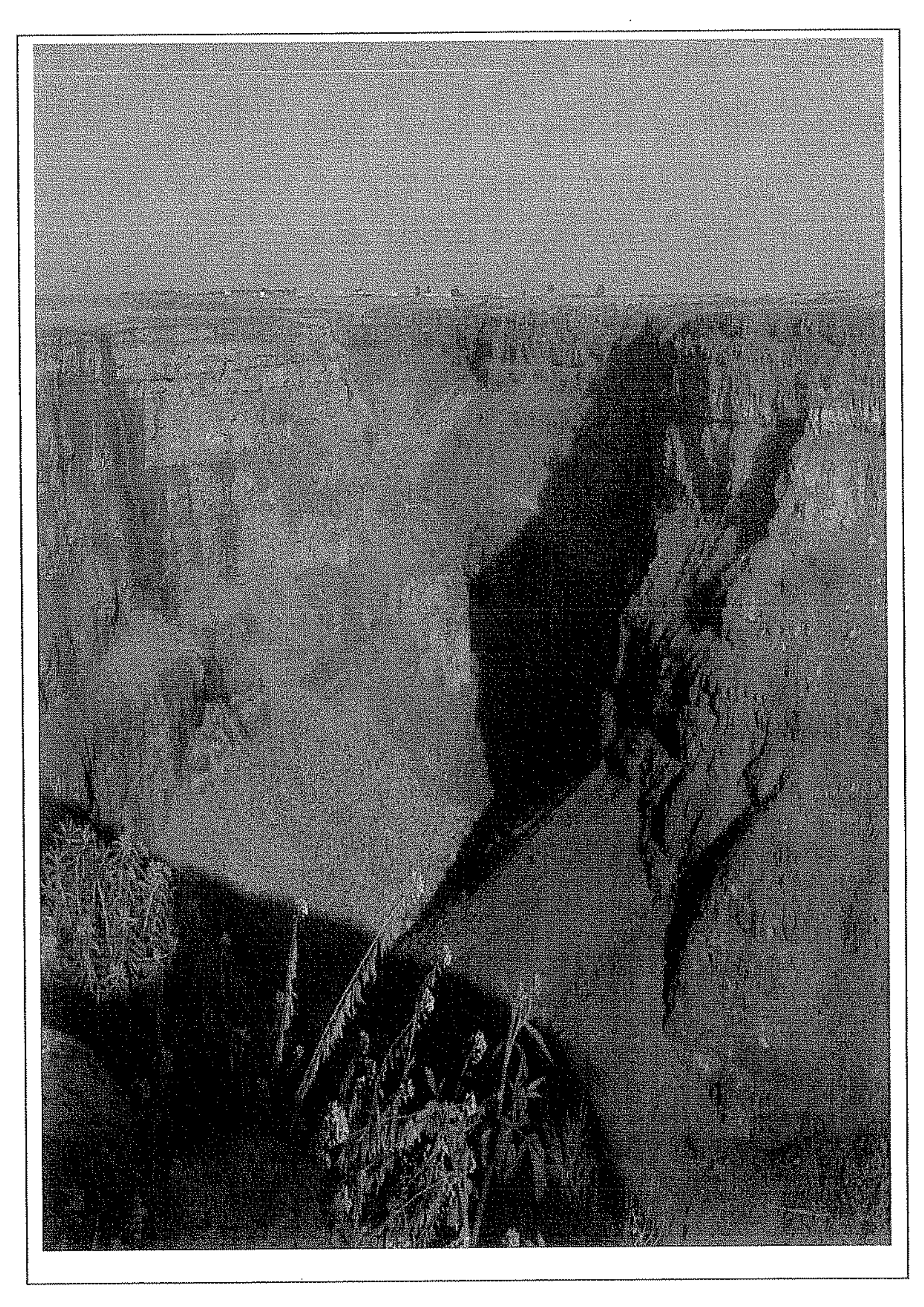
ساحة المعركة في فحل، دراسة ميدانية



الشكل رقم/3/دراسة ميدانية، نصب تذكاري من موقع معركة فحل



الشكل رقم(4) صورة لحصار دمشق



الشكل رقم/ 5/ وادي الرقاد، دراسة ميدانية

The fourth chapter talked about the conquests in the time of Caliph Omar Bin Al Khattab- may Allah be pleased him- in addition to , the most important battles took place in his time such as /Fahel, /

After the success of Muslims in opening damascuse they Penetrated North to Homs then withdrawed to Yarmouk, to start the decieve stage of alYarmouk battle and what followed it such as the conquest of jerusalem.
The fifth chapter has made to display the effects that appeared on the population of Southern Belad Al Sham as a result of the armies movements and the successes achieved that led led to an important results and significant in all sides.

The first chapter was devoted to talk about the reasons stand behind these consequents and the attituds ofArab tribes inhabiting the southern of Belad Al Sham about the attitude of the Arab tribes, in the southern of Belad Al Sham about these conquests (leprosy Lkhm, Tie, and Tnokh, Nabataeanians, Ghassan and Taghliband even the Jews).

The second chapter talked about the beginnings of conquests, which were represented as /Saraya /through which the diplomatic activity start, which take the form of letters sent to kings and rulers and princes, by the Prophet- peace be upon him- inviting them to Islam. And then the military activity began .so it has Been talking about the reasons and events and results of invasions / Muta, zat al salasel, Tabuk and the events results.

Chapter III,resented a new stage of conquests in the time of Caliph Abu Bakr, may Allah be pleased him, which Osama Ibin Zaid started it secretely .and which prepared by Prophet- peace be upon him- before his death, then he moved to preparing the armies for the complete opening, and sending them and bringing the leader Khaled Ibn al-Walid from Iraq. so it has been researching how the leader Khaled Ibn Al Waleed treated the problem of the way he will bath. So many stories differed and said about this side , and how to solve the problem of water trying to reach the fact through the availability of historical and scientifical informations .it Has also been talked about opening Bosra al Sham and the triumph of Ajnadayn.

The fourth motive: associated with the Islamic conquests itself, as they generally have not given the scientific right of the objective studies in the light of advanced principles for the history of science military, and geographical

knowledge, and archaeological discoveries. So it was the choice of the theme:

/Arab Islamic conquest of the southern of alsham countries from military field/

7 H / 628 AD 17 AH / 638 AD

This research gives a clear picture of the motives behind the conquests, and the role of the Arab armies in the battles for liberation, also it studies the geographical locations of battles that took place on the land of the southern of Al Sham countries . so it is difficult to understand what happened without studying the geography, especially that geography is the field of politics , and its spreading is history
accordingly ,the events can only understood, , and placed it in a suitable time and place, and knowing the natural obstacles and difficulties, then the lines of connection, to take lesson and interest of the previous experiences, and understanding the way used by generations in fighting, and the victory they achieved.
The research is divided into five chapters:
it is preceded by talking about the geography of the region that have been studied, in addition to apreface about those conquests and the political, religious, economical, social and cultural situations of the south of Belad AlSham before the Arab Islamic conquest.

ملخص باللغة الإنكليزية

The extended period of the period from the time of Prophet and the age of Al- Rashidia caliphate is considered the basic of the Arab Islamic civilization, that the honest men belonged to and followed what the Prophet- peace be upon him, and achieved what he called for by spreading The Islamic religion and returning people to their humanity raising them from worshipping unusefull and harmfull idols into worshipping the Almighty God who has the ability of everything.

This is the motivation for selecting this search.

The second motive represented the nature of history as it is news and vision. so it should be reconsidered in the conquests, and explored what related to it, whereas the Islamic conquest studies showed care about the leaders works, and the direct results of conquests and its ignoring of the strategies and plans ,the direct and indirect aimes, and Geographical battles and the role of the Arab armies in the liberation battles.

The third motive is about the privacy of the southern Belad AlSham, such as Al Yarmouk battle and after few centuries Hattin followed by the Ein Goliath. so all of previous battles occurred in the south corner of Belad Al Sham. also it is important to search about the importance lies in this region and the strange secret associated with it. so its results were decisive and a turning point that changed the wholl subsequent events, and defined the fate of nation completely.